
مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها حلمى مراد
عاشقات.. فى الخريف!
١- الأرملة العاشقة
٢- الأم العاشقة
للروائى النمسوى الأشهر
ستيفان زفايج
١٠ قروش
قصتان طويلتان كاملتان في عدد واحد

ستيفان زفايج

عاشقات .. فى الخريف !

١ - الأرملة العاشقة
٢ - الأم العاشقة



1. --- 24 HEURES DE LA VIE D'UNE FEMME
2 --- BRULANT SECRET

par
STEFAN ZWEIG

(ترجمت القصتان الى العربية عن الترجمة الفرنسية لهما ، مع مقارنتها ومراجعتها على الترجمة الانجليزية)

مطبوعات

كتابى

التـرجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الحادى عشر

الأرملة العاشقة : ترجمة كليم أبو سيف

الأم العاشــقة : ترجمة أنطون العبيدى

الإدارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ثمانية وأربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وفيما يلي قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديدة . أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الأرض . ليدى هاملتون . الأرملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بيتهوفن . حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتاة لها ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أمير مصر . الأمطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الأعداد : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ما عدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والأعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد Money Order

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) . وثمن كل من الأول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص البريد المسجل)

عزيزى القارىء ..

• لعلك لاحظت – فى الأعداد السابقة من هذه السلسلة – مبلغ حرصى على التزام « التنويع » فى الآداب العالمية التى أختار لك فى كل شهر نموذجا لأحدها :

ففى عدد منتصف نوفمبر الماضى ، (وهو العدد الأول منها بعد أن صارت تصدر شهريا) ، قدمت لك نموذجين من الأدب (الايطالى) الحديث ، للروائى المعاصر « ألبرتو مورافيا » ..

.. وفى عدد ديسمبر ، انتقلنا معا الى (اليونان) القديمة ، فعشنا فى جو مأساة « سوفوكل » الخالدة « أوديب » !

.. وفى عددى يناير وفبراير ، عدنا الى العصر الحديث ، الى (فرنسا) فى القرن الماضى ، فتابعنا حياة « مدام بوفارى » ، « المخلوقة » الأدبية الخالدة التى جاد بها خيال الروائى « جوستاف فلوبير »

وفى هـذا العدد الذى بين يديك ، ننتقل الى أدب آخـر ، لبلد آخر ، هو (النمسا) .. فنستمتع بتحفتين من روائع الأديب النمسوى الأشهر «ستيفان زفايج » .. وأنا أعترف ان بى « ضعفا » نحو هذا الاديب العبقرى – أرجو أن تنتقل عدواه اليك ! – ومن مظاهر هذا الضعف اننى قدمت لك فى الأعـداد السابقة من (كتابى) « ملخصات » لأربع من قصصه الخالدة ، أعتقد انك لابد تحتفظ بنفحة من ذكراها فى نفسك .. وهـذه القصص التى أعنيهـا هى : « أموك » – أو « غرام تحت سماء الشرق » – التى قرأتها فى « كتابى » الأول .. ثم « رسالة من مجهولة » – وقد لخصتها لك فى « كتابى » التاسع عشر .. تليها : « الخوف » – فى « كتابى » السابع والعشرين .. وأخيرا : « ليبوريللا » – فى « كتابى » السابع والثلاثين ..

واليوم ، يسرنى أن قد اتيحت لى الفرصة كى أقـدم لك « النص الكامل » لقصتين طويلتين أخريين – غيرتلك القصص الأربع – وكنتقد أرجأت تلخيصهما لك منذ زمن ، الى أن يتاح لى تقديمهما لك كاملتين . وقـد راعيت فى اختيار القصتين أن تمثلا ، أروع تمثيل ، عبقرية « زفايج » الخـارقة فى « تقمص » نفسيات بطلاته وأبطاله ، وتحليل تلك النفسيات من زوايا لم تخطر لسواه من قبل – فى تاريخ الآداب العالمية كلها ، بقـدر ما أعلم – ويكفى أن تطالع فى القصة الأولى وصفه الطويل الممتع ل « يدى » الشاب المقامر ، وما يرتسم عليهما من « انفعالات » ! .. ثم تحليله الرائع لمراحل التطور السريع المفاجىء الـذى انزلقت اليه المرأة فى علاقتها معه – دون قصد .. ودون صد ! – ثم تقرأ

تصـويره المعجز ، فى القصة الثانية ، لنفسية الصبى الحائر ، المعذب ، والأم العاشقة السادرة فى نزواتها ..

أقول : يكفى أن تقرأ هذا الاعجاز فى التحليل ، والتصوير ، حتى تصبح مثلى من عشاق ادب هذا الكاتب العبقرى ، وحتى تؤمن معى بانه واحد من أعظم أدباء القرن العشرين - ان لم يكن أعظمهم على الاطلاق !

ولما كانت لغة المؤلف الأصلية التى كتبت بها القصتان هى الألمانية ، (وعنها نقلتا الى الفرنسية والانجليزية ، وغيرهما من اللغات) .. فقـد تحيرت فترة بين الاعتماد - عند ترجمتهما - على النص الفرنسى ، أو النص الانجليزى ، سيما وقد وجـدت بين النصين بضعة فروق طفيفـــة فى التعبير .. وازاء ذلك لم أجد بدا من المقارنة بين النصين ، ومراجعة الترجمة العـربية على الترجمتين .. وفاء لعهدى لك بأن تكون رسالة «مطبوعات كتابى » أن تقدم لك الترجمة الكاملة «الامينة» للشوامخ العالمية من الكتب !

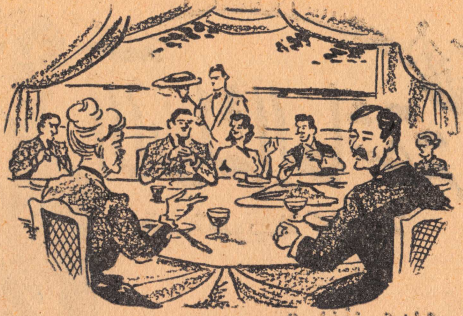
واستكمالا لهذه الرسالة ، وتحقيقا لمبـدأ « التنويع » فى اختيار نماذج الآداب العالمية فى هـذه السلسلة ، اخترت لك - للعدد القادم منها باذن الله - قصة طـويلة كاملة من روائع الأدب الهندى ! .. ولعلها أول قصة هندية طويلة تنشر باللغة العربية !

وتقبل أطيب تحياتى

حلمى مراد



24 HEURES DE LA VIE D'UNE FEMME



الفصل الأول

• احتدم النقاش حول المائدة ، فى النزل (البنسيون) الصغير الذى كنت أقيم فيه ، فى (الريفييرا) ، حيث كنت أقضى الشتاء ، قبل الحرب بعشر سنوات . وتطور النقاش – دون أن نفطن – الى خلاف حاد أوشك أن يغدو شجارا مصحوبا بالسباب . فلقد أوتى معظم الناس آفاقا ضيقة ، تجعلهم لا يكادون يتأثرون بشىء ما دام لا يمسهم مباشرة ، ولا يفرض نفسه على مداركهم عنوة ! .. أما الحادث التافه الذى يقع تحت أعينهم ، وفى نطاق أحاسيسهم ، فانه لا يلبث أن يذكى فيهم من الانفعالات العاطفية ما لا يتناسب مع قيمته .. وفى مقابل ندرة اهتمامهم تلك ، نجدهم من ناحية أخرى – اذا ما استيقظ اهتمامهم أخيرا – ينفعلون فى تحمس ينطوى على مغالاة لا مبرر لها !

وكان هذا شأن أفراد الجماعة التى اعتادت الجلوس الى مائدتنا ، وكلهم من أبناء الطبقة الوسطى . فقد اعتادوا أن يقنعوا بالأحاديث القصيرة ، الهادئة ، تتخللها بعض الدعابات التى لا معنى لها ، ثم يتفرقون بمجرد الفراغ من الطعام ، ويذهب كل منهم فى طريقه : فكان الزوجان الألمانيان ينصرفان الى

النزهات والى ممارسة هوايتهما وهى التصوير الفوتوغرافى ٠٠ ويفرغ الدانيمركى – الممتلىء الجسم – الى صيد السمك ، الذى يتطلب منه نشاطا وحركة ٠٠ كما كانت السيدة الانجليزية الوقورتخلو الى كتبها٠٠والعروسان الايطاليان يترددان كل حين على (مونت كارلو) ٠٠ أما انا ، فكنت أستلقى فى مقعد من القماش ، أو أعكف على التأليف ٠٠

على اننا فى هذه المرة لزمنا أماكننا ، وقد اشتبكنا فى الجدال العنيف ٠٠ وكان يحدث أن يقفز أحدنا عن مجلسه لحظة ، ولكن لم يكن قفزه هذا – كما جرت العادة – استئذانا بمفارقة الجماعة ، وانما كان مجرد مظهر لانفعال اشتد حتى انقلب غضبا متقدا ٠٠

والواقع ان المسألة التى أثارت جماعتنا الصغيرة الى هذا الحد كانت غريبة حقا٠٠كان النزل الذى أقمنا فيه – نحن السبعة – يبدو فى ظاهره دارا صغيرة – « فيلا » – قائمة بذاتها ، تشرف نوافذها على منظر رائع ، على الساحل الصخرى ٠٠ اما فى حقيقته ، فكان النزل قسما خاصا رخيص الأجر ، ملحقا بفندق (بالاس) ، وتصله بهذا الفندق حديقة تمكننا – نحن نزلاء الملحق – من أن نختلط بنزلاء المبنى الرئيسى اختلاطا تاما ٠٠

وكانت ثمة ضجة كبرى قد حدثت فى الفندق فى اليوم السابق ٠٠ ففى قطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة العشرين – ولابد من تحديد الموعد بالدقة ، لما له من أهمية فيما حدث ، وفى نقاشنا المحتدم – وصل شاب فرنسى ، واستأجر احدى الحجرات الأمامية المطلة على البحر ٠٠ **وكان حرصه على اختيار موقع حجرته دليلا كافيا على انه من ذوى الثراء ٠٠ كما انه كان يسترعى الأنظار ، لا لأناقة ملبسه – فى غير بهرجة – فحسب، بل لأنه كان على درجة غير عادية من الوسامة واللطف ٠ كان وجهه ناحلا ، أشبه بوجه أنثى ٠٠ وكان فمه يوحى بالدفء**

والعواطف المرهفة ، يعلوه شارب أصفر ناعم ٠٠ أما شعره فكان كستنائيا ، ناعما ، يشوبه تموج يروق للعين ٠٠ وكانت عيناه تنمان عن لطف وحنان٠وبالاختصار،كان فى مجموعه فاتنا، رقيقا حقا ، ومع ذلك كان غاية فى البساطة ، خلوا من كل تكلف! والواقع انشكله كان يذكر الناظر - لأول وهلة - بتلك الوجوه الوردية المصنوعة من الشمع التى ترى فى نوافذ متاجر الأزياء ٠٠ أو بتلك التماثيل التى تصور أجمل الشبان فى أوضاع رشيقة ، متكئين على عصى أنيقة ، كنماذج لأعلى مثل الجمال بين الرجال ! ٠٠ ولكن تأمل النزيل الجديد عن قرب كان ينقض هذه الفكرة غير المستملحة عنه ، فلا يلبث الناظر اليه أن يتبين أنه ازاء مثل من الأمثلة النادرة - كل الندرة - للطف الطبيعى الكامن فى نفس صاحبه !

* * *

◆ **وأخذ** النزيل الجديد يحيى كل شخص بطريقة تجمع بين التواضع والحفاوة ٠٠ وكان من بواعث السرور حقا أن تشهد حرصه على اضفاء حسن طباعه ، وعلى أن ينتهز كل فرصة ليؤدى بعض المجاملات الرقيقة ٠٠ فكان يسرع الى مساعدة أية سيدة تخرج الى البهو بحثا عن معطفها ، ويقابل كل طفل بنظرة ودود ، أو كلمة لطيفة ٠ كان ظريفا فى غير ازعاج ٠٠ وباختصار ، كان من اولئك المحظوظين ، الذين يدرك الواحد منهم - بالتجربة - أن الآخرين يبتهجون بشبابه وحسن مظهره ، فيزيده هذا الادراك سحرا وفتنة ! ٠٠ وكان لوجوده مفعول الدواء المقوى فى نفوس النزلاء الآخرين ، الذين كان أغلبهم من المسنين ٠٠ وقد استطاع أن يستولى دون عناء على مشاعرهم جميعا ، بفضل شبابه الذى كان يغزو القلوب ، وبما أوتى من المرح الفياض والنشاط الدافق ٠ فلم تنقض ساعتان على وصوله ، حتى كان يلعب «التنس» مع ابنتى الرجل البدين، البادى الميسرة ، والذى يمتلك مصنعا فى (ليون) ٠ وكانتا

فتاتين فى الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر ، تدعى أولاهما «آنيت»والأخرى «بلانش»٠٠وكانت أمهما ـ «مدام هنرييت»ـ سيدة محتشمة ، رقيقة ، مهذبة ٠٠ وقد راحت ترقب فى ابتسام كيف كانت الصبيتان تداعبان الشاب الغريب فى دلال برىء ٠٠ حتى اذا كان المساء ، انضم هو الينا ساعة حول رقعة الشطرنج ، وروى لنا ـ فى أدب ـ قصتين أو ثلاثا من القصص الشيقة ، ثم أخذ يتمشى فى الشرفة ، مندمجا فى حديث مع مدام « هنرييت » ، التى كان زوجها مستغرقا فى لعب « الدومينو » مع صديق له من رجال الأعمال ٠٠ فلما تقدم الليل ، رأيته فى مكتب سكرتيرة الفندق ، وقد انهمك الاثنان فى حديث خاص كاد يبدو سرا خاصا بينهما !

وفى الصباح التالى ، انطلق الفتى لصيد السمك مع النزيل الدانيمركى ، مبديا ألماما واسعا بهذه الرياضة ٠٠ ثم انصرف الى الحديث مع صاحب مصنع (ليون) ، فتناولا المسائل السياسية ٠٠ وبدا ان الشاب الفرنسى كان محدثا ظريفا ، اذ ان قهقهة الرجل المسن كانت تنبعث ـ من وقت لآخر ـ عالية، حتي لقد كانت تطغى على هدير البحر !

وبعد تناول الغداء ـ وليس بوسعي ايضاح الموقف دون ايراد هذه التفصيلات جميعا ـ جلس ساعة مع مدام « هنرييت » فى الحديقة يحتسيان القهوة ، ثم لعب « التنس » مرة أخرى مع ابنتيها ، وانصرف بعد ذلك الى الحديث مع الزوجين الألمانيين فى بهو الفندق ٠٠ حتى اذا كانت الساعة السادسة ، التقيت به فى محطة سكة الحديد ، حيث ذهبت لالقاء خطاب فى صندوق البريد ، فأقبل على فى خطوات متعجلة ، وقال انه مضطر الى أن يودعنى ، اذ استدعى للسفر فجأة ، ولكنه لن يلبث أن يعود بعد يومين ٠٠ وبالفعل ، لم يكن بيننا عند العشاء ٠٠ على انه وان غاب بجسمه ، فقد كان حاضرا بروحه ، اذ كان المحور

الرئيسي للحديث . فقد أخذ القوم ـ على كل مائدة ـ يطرون طباعه العذبة ، المرحة !

★ ★ ★

• وخلوت في غرفتي ـ في تلك الليلة ـ الى كتاب أردت أن أفرغ منه .. ولعلها كانت الساعة الحادية عشرة ، حين سمعت فجأة ـ خلال النافذة المفتوحة ـ جلبة في الحديقة ، وأشخاصا يتنادون ، بينما بدا ان أمرا غير عادي يجرى في الفندق .. وأسرعت ـ يدفعني القلق أكثر مما يحدوني الفضول ـ فاجتزت الياردات الخمسين التي تفصل بين الملحق والفندق، واذا بي أجد النزلاء ومستخدمي الفندق في قلق صاخب ..

كان زوج مدام « هنرييت » قد انصرف الى لعب « الدومينو » مع صديقه القادم من (نامور) ، كعادتهما في مثل تلك الساعة من كل ليلة ، ولكن الزوجة لم تكن قد عادت من نزهتها المسائية على شاطىء البحر ، فاذا كل امرىء يوجس خيفة من أن يكون قد أصابها مكروه .. واندفع الزوج ـ الذى كان بدينا ، ولكنه بطبعه رزينا ، خفيف الحركة ـ وراح يجرى على الشاطىء كحيوان مذعور ..وعندما أخذ يناديها بصوت يخنقه الانفعال : « هنرييت ! .. هنرييت ! » ، بدا صياحه وحشيا ، رهيبا ، كصراخ حيوان ضخم دهمه الموت بغتة..وراح السقاة والسعاة ينهبون السلالم ـ صعودا وهبوطا ـ موقظين النزلاء . واتصل مدير الفندق تليفونيا بالبوليس..والزوج البدين يهيم ـ طيلة هذه الاثناء ـ متخبطا كمعتوه ، وقد فك أزرار صديريه ، وراح يصيح دون انقطاع : « هنرييت ! .. هنرييت » ، بصوت جمع بين العويل والصراخ ..

وما لبثت ابنتاه أن استيقظتا ، فوقفتا بقميصي النوم في النافذة تناديان أمهما .. واذ ذاك ، هرع الأب صاعدا اليهما ، أملا منه في أن يهدىء روعهما ..

ثم حدث أمر من البشاعة بدرجة لا أكاد أجد عبارات أصفه بها ، اذ أن الطبيعة ـ فى أويقات الأزمات العصيبة ـ كثيرا ما تخلع على تصرفات الناس طابعا أليما ، لا سبيل للـرسم ولا للكلام الى وصف قوته الهائلة ! ٠٠ اذ ما لبث الرجل البدين ، الجزع ، أن هبط السلم وقد تبدلت أساريره ، وبدا عليه الاعياء والوحشية فى آن واحد ، وهو يمسك بيده رسالة مفتوحة ٠٠ وصاح فى رئيس الخـدم ، وقد استرد صوته رزانته : « **ادع رجالك للعودة ٠٠ لم يعد فى وسعهم أن يفعلوا شيئا ٠٠ لقد هربت زوجتى !** »

كان فى مسلك الرجل شيء من ضبط النفس ، رغم انه أصيب لتوه بطعنة نجلاء ٠٠ بل لقد أبدى جلدا يفـوق طاقة البشر ، أمام كل الناس الذين أحاطوا به متسائلين ، وأخذوا يرمقونه بأنظارهم ٠٠ ثم لم يلبثوا أن انفضوا من حوله ، وقد غشـيهم الفزع والخجل فجأة ! ٠٠ وكانت لا تزال به بقية من قوة مكنته من أن يمر بنا مترنحا ـ دون أن ينظر الى أحد منا ـ متجها الى قاعة المطالعة ، حيث اطفأ الأنوار ٠٠ وسمعنا صوت ارتطام جسمه الضخم وهو يتهالك على أحد المقـاعد ، ثم انبعث نحيب حيوانى وحشى ٠٠ بكاء رجل لم يعرف البكاء منذ طفولته ! ٠٠



هـــذا المظهر البدائى للألم المبرح ، كان له فى نفوسنا جميعا ـ حتى أضعفنا احساسا ـ تأثير أذهلنا ، فلم يجرؤ أحد من خدم الفندق ، ولا من الفضوليين من النزلاء ، على أن يبتسم أو ينبس بكلمة تتصل بالموضوع ٠٠ وانما انسحبنا فى صمت ٠٠ وكأنما أخجلنا هذا الانفجار العاطفى المدوى ، فتسللنا الى حجراتنا ، واحدا اثر واحد ٠٠ **بينما ظل هذا الحطام البشرى المنهار يبكى ويشهق فى عزلة وظلام الحجرة التى لاذ بها ، وقد شملته وحدة مطلقة فى هـــذا الفندق الكبير الذى ملأته همسات لم تلبث أن أخذت تخفت رويدا ، متلاشية فى الظلام ، ليسود صمت لم يكن يعكره سوى نحيب الرجل ٠٠**

* * *

وقد يتبادر الى الذهن ان حادثا كهذا ـ يقع فجأة ، وتحت أبصارنا ـ كفيل بأن يترك أثرا قويا فى نفوس قـــوم كانوا ـ بوجه‌عام ـ يعيشون بمنأى عن الهموم والشواغل ، ولا يجدون لهم من عمل عادة سوى البحث عن ملهاة تجنبهم الضجر ٠ بيد ان النقاش الذى احتدم حول مائدتنا ، والذى أوشك المشتركون فيه أن يتبادلوا خلاله اللكمات ٠٠ هذا النقاش كان فى صميمه ـ رغم انبعاثه عن الحادث الذى رويته لتوى ـ مظهرا لخلاف حول مبدأ معين ٠٠ كان صراعا عنيفا بين وجهتى نظر متعارضتين فى الحياة ! ٠٠ فقد كان الزوج المهجور ـ فى غضبه الأهوج ـ قد فرك الخطاب وألقاه على أرض قاعة المطالعة ، فاذا بخادم تلتقطه وتقرأه ٠٠ وعن طريق لسانها المفلوت ، عرف الجميع ان مـــدام « هنرييت » لم ترحل بمفردها ، ولكنها سافرت بصحبة الشاب الفرنسى ! وازاء هذا النبأ ، بدأت نظرة العطف التى كان معظم النزلاء يبدونها للشاب الغريب فى الانحسار ٠٠ **وان كان من الطبيعى ـ فى الواقع ـ أن تهجر «مدام بوفارى» الصغيرة هذه ،**

الرجل الريفى الكئيب ، البدين ، ـ زوجها ـ لتلقى بمصيرها الى شاب وسيم لطيف !

على ان الذى أثار سخط الجميع ، هو ان لا صاحب المصنع ، ولا ابنتيه ، ولا مدام « هنرييت » ، كانوا قد رأوا « لوفلاس » ـ الشاب الفرنسى ـ من قبل ٠٠ وان حوارا لمدة ساعتين فى الشرفة مساء ، وحديثا لمدة ساعة أثناء تناول القهوة فى الحديقة ، كانا كافيين لاغراء امرأة فى نحو الثلاثين من عمرها ـ كانت حتى ذاك الوقت محترمة ـ على ان تهجر زوجها وابنتيها ، وتسلم مصيرها الى أهواء شاب غريب عنها تماما !

واتفقت كلمة الجماعة التى ضمتها مائدتنا على أن هذا العمل ـ بظروفه التى لا لبس فيها ولا غموض ـ كان خيانة منكرة من العاشقين ٠٠ وان مدام « هنرييت » كانت ولا بد على علاقة خفية بذلك الشاب قبل اليوم بأمد طويل ، وان هذا «الساحر» ما جاء الا ليرسم معها آخر دقائق خطة هربهما ٠٠ فمن المؤكد ان اية سيدة محترمة يستحيل عليها أن تهجر زوجها لأول اشارة من رجل لم تنقض على تعارفها به أكثر من سويعات قلائل ! ٠٠ هكذا رأى الجميع ٠٠ **أما أنا ، فقد راق لى أن أنحو نحوا مخالفا ، وان أعلن فى تحمس أن من المعقول ، ان لم يكن من المحتمل، أن يصدر عمل كهذا عن امرأة لم تصادف فى حياتها الزوجية ـ على مر السنين ـ سوى خيبة الأمل ٠٠ أو منيت من الزواج بضجر لم تجد مفرا منه الا بالاستسلام عند أول هجوم قوى لغزو قلبها !** ٠٠ وسرعان ما أثار هذا الرأى غير المرتقب نقاشا عاما ، لم يلبث أن اشتد واحتدم ، اذ رفض الزوجان الألمانيان ، والزوجان الايطاليان ـ فى استهجان ـ أن يعترفوا بما يسمى بالحب الداهم ٠٠ الحب الذى يستولى على القلب من النظرة الأولى٠٠وقالوا ـ فى عبارات تجاوزت حدود المجاملة ـ ان القول بوجود شىء كهذا حماقة ، لأنه من وحى خيال الروائيين !

ولا مجال هنا لاعادة سرد النقاش العاصف ـ الذى دار أثناء تناول الطعام ـ بحذافيره .. على ان احدا لم يؤت من حضور البديهة فى مثل هذه المحاورات ، قدر اولئك الذين ألفوا تناول الوجبات فى المحال العامة . ذلك لأن الحجج التى تعن فى غمرة جدال طارىء حول مائدة ، تكون تافهة فى العادة ، لأنها مرتجلة ، تقفز الى الخاطر فى عجلة . كذلك من العسير أن نبين سبب احتدام مناقشتنا بمثل هذه السرعة . وأعتقد أن التوتر الذى سرى فى الجو ، نشأ فى أول الأمر عن حرص الزوجين ـ الألمانى والايطالى ـ على أن يبينا بجلاء ان زوجتيهما بمنجاة تماما من الاقدام على مثل هذا التصرف الطائش الذى أقدمت عليه مدام هنرييت ! .. وشاء الحظ أن لا يجدا ، لايضاح رأيهما ، أفضل من أن يقولا ان آرائى لا يمكن أن يعتنقها سوى رجل يحكم على نفسية المرأة فى ضوء خبرته مع من عرف من النساء فى مغامراته العابرة .. النساء اللاتى يسهل وقوعهن فرائس لكل رجل أعزب . وأذكى هذا الرأى غضبى بعض الشىء ، فلما قالت السيدة الألمانية ، بنفس اللهجة القاسية ، ان النساء نوعان : « نساء فاضلات » ، و « نساء فطرن على الفجور » ، وان مدام « هنرييت » ـ فى رأيها ـ لابد أن تحسب من النوع الثانى ، نفد صبرى تماما ، وعمدت الى الهجوم ، قائلا ان المرأة تصادف فى حياتها ساعات كثيرة تتعرض فيها لدوافع غامضة أشد قوة من ارادتها ، ومن علمها .. وان هـذا التهرب من الحقيقة الواضحة ، وذلك الكبت للواقع ، لا يهدفان الا الى اخفاء استبشاعنا لغرائزنا ، وخوفنا من القوى الأولية الكامنة فى طبيعتنا . وجاهرت بأن كثيرا من الناس يستطيبون أن يتصوروا أنفسهم أصلب عودا ، وأقوى خلقا ، وأطهر نفسا من « اولئك اللاتى انزلقن بسهولة الى الزلل » .. **أما أنا ، فأرى من الأشرف للمرأة أن تسلم قيادها ـ فى حرية وانطلاق ـ لغريزتها ، بدلا**

من أن تغمض عينيها وتخون زوجها وهى بين ذراعيه ، كما جرت عادة النساء عامة !

كان هذا خلاصة ما قلت على وجه التقريب ٠٠ وكانت المناقشة ــ فى هذه الأثناء ــ قد اشتدت قسوة ، بطبيعة الحال ٠٠ وكلما عنف الآخرون فى مهاجمة مدام « هنرييت » المسكينة ، ازددت تحمسا فى الدفاع عنها ٠٠ وان كنت فى الواقع قد شعرت بأننى قد جاوزت حدى ، شأن المرء اذا ما استثير ! ٠٠ ولاح للزوجين الالمانيين وزميليهما الايطاليين أن تهورى أشبه بالاهانة التى يعمد اليها الصبية للاستفزاز ٠ ومع انهم كانوا يؤلفون «رباعيا» غير متناسق ولا منسجم ، الا أنهم استطاعوا أن يحشدوا قواهم فى مهاجمتى بشدة ، ومن ثم زاد هياجنا الى درجة حدت بالسيد الدانيمركى المسن الى أن يتطلع نحونا ببشاشة ــ ذكرتنى بالحكم حين يقف فى مباريات كرة القدم ممسكا بساعة التوقيت (الستوب ــ ووتش) فى يده ــ وأن يطرق المائدة بأصابعه عدة مرات ، منبها ايانا ، وهو يقول : « أرجوكم ، أيها السادة ! » ٠٠ وكان هذا التدخل يحملنا على الهدوء الى حد ما ، ولكن ٠٠ للحظة واحدة ! ٠٠ ولقد قفز أحد الزوجين ثلاث مرات مستويا على قدميه ، وقد احتقن وجهه غضبا ، فكانت زوجته تجد عناء فى تهدئته ٠ وكنا مسوقين ــ بلا مراء ــ الى أن نشتبك بالايدى بعد دقائق قليلة ، لو لم تتدخل مسز «س ٠» فتلطف من حدة هياجنا ٠٠

* * *

• **كانت** مسز « س » سيدة انجليزية متقدمة فى السن ، بيضاء الشعر ، بادية الوقار ، استطاعت أن تكون « زعيمة » لمائدتنا دون ما انتخاب رسمى ! ٠٠ فهى تتصدر المائدة ، فى جلسة معتدلة ، وتوزع على كل منا قسطا من الرعاية ، فى عدل

ومساواة ٠٠ وكانت قليلة الكلام بعض الشيء ، ولكنها تحسن الاصغاء ٠٠ وكان مظهرها فى حد ذاته يشرح الصدر ، اذ كان يبدو أن رزانة رائعة تشع من شخصيتها الوقور ، المترفعة ! وكانت لا تختلط بنا الا بقدر ، وان كانت تعرف دائما ـ فى لباقة بديعة ـ متى تبدى الود ، ومتى تقبل الزمالة ٠٠ على أنها كانت عادة تجلس فى الحديقة منصرفة الى القراءة أو تعزف على « البيانو » فى بعض الاحيان ٠ وكان من النادر جدا أن ترى منهمكة فى حديث خال من الكلفـــة مع أى انسان ٠٠ كانت ميـــالة للعزلة ، ومع ذلك فقد كان لها على زملائها من النزلاء تأثير غريب ٠٠ فما أن تكلمت ـ فى هذه المناسبة ، مثلا ـ حتى شعرنا جميعا باستحياء من أنفسنا ، اذ فطنا الى أننا سلكنا مسلكا غير مستحب ولا لائق ٠٠

واستغلت مسز « س » الوجوم الذى ساد حين قفز الالمانى على قدميه ، ثم أغرى على الجلوس ثانيـــة ، فرفعت عينيهـــا الرماديتين الصافيتين ، على غير توقع ، ورمقتنى لحظة والتردد يبدو عليها ، ثم تناولت الموضوع ، من وجهة نظرها ، فى حنكة وبراعة ، فقالت : « اذن فأنت ترى ـ ان كنت قد أصبت فى فهم حديثك ـ ان من المحتمل أن تكون مدام « هنرييت » قد وجدت نفسها مسوقة الى هذه المغامرة فى ســذاجة ، ودون تدبير سابق ٠٠ وان مثل هـــذا قد يحدث لاية امرأة ، فتجد نفسها متورطة فى تصرفات كانت تبدو لها ـ قبل ذلك بساعة واحدة ـ مستحيلة ، ومن ثم فهى لا تكاد تكون مسئولة عنها ! »

ـ هذا ما أراه بالتأكيد !

ـ ولكن هذا يجعل معاييرنا الخلقية غير ذات قيمة ، ويبرر أى انتهاك للقوانين ٠٠ واذا كنت تعتقد حقا أن « الجريمـــة العاطفية » ليست جريمـــة على الاطلاق ، فما حاجتنا الى نظام قضائى ؟ ٠٠ انك اذا شئت ـ (وهنا ابتسمت) ـ وأخال ان اتجاهك يميل فعلا الى هذا ، ففى وســـعك أن تجد وراء كل

جريمة دافعا عاطفيا يبررها ، بناء على رأيك !

وأطربتنى نبرات صوتها .. كانت واضحة ، بل اننى أكاد أقول انها كانت مرحة .. فقلت بين الجد والفكاهة ، محاولا بدورى أن أقلدها : « **لا مراء فى أن العدالة العامة ترى فى هذه الامور رأيا أقسى من رأيى .. فان المجتمع المنظم مسوق الى حماية الاخلاق العامة والتقاليد ، ومن ثم فهو مضطر الى أن يدين بدلا من أن يعذر** .. أما أنا ، فلست أرى ما يضطرنى – كفرد عادى – الى أن أقوم بدور المدعى العام ، وانما أفضل أن أؤدى دور الدفاع .. اننى أوثر أن أفهم الناس بدلا من أن أحكم عليهم ! »

وحدجتنى مسز « س . » بنظرة ثابتة ، ثم ترددت قبل أن تجيب .. وكنت قد بدأت أخشى أن لا تكون قد فهمت تماما ما رميت اليه ، فهممت بأن أكرر بالانجليزية ما سبق أن قلته بالالمانية . بيد أننى لم أجد ما يدعو الى ذلك ، اذ لم تلبث أن عاودت تساؤلها فى لهجة صارمة ، وكأنها أستاذ ممتحن : « **ألا تراه عملا شائنا .. ألا تراه عملا معيبا أن تترك امرأة زوجها وابنتيها لكى تربط مصيرها بمخلوق ألقته المصادفات فى طريقها ، وهى لا يمكن أن تكون قد أدركت بعد ما اذا كان أهلا لحبها ؟.. أترى حقا ان من الممكن التماس عذر لهذا العمل النابى .. لهذا المسلك الطائش ، من امرأة لم تعد فى باكورة الشباب .. امرأة كان يخلق بها أن تحترم نفسها ، ولو من أجل ابنتيها ؟** »

ولكننى تشبثت بوجهة نظرى ، قائلا : « لا يسعنى الا أن أكرر اننى أتردد فى أن أتخذ رأيا ، أو أن أدين السيدة ، فى هذا الحادث .. على اننى مستعد لأن أقر امامك انى كنت مبالغا فى تصوير الحادث ، فليست مدام « هنرييت » المسكينة بطلة ، بالطبع .. ولست أحسبها كانت مدفوعة بحب المغامرة المنزه عن أية شائبة .. وكذلك أرانى أقل ميلا الى اعتبارها « عاشقة

مدلهة » .. لقد لاحت لى ـ فيما رأيته منهـا ـ امرأة لا تزيد عن أية امرأة عادية فى شىء .. بل انها امرأة ضـعيفة ، ومع ذلك فانى أكن لها شـيئا من الاحترام ، لأنها تبعت رغبتها فى جرأة .. كما أكن لها شيئا من العطف ـ كذلك ـ لانى موقن من انهـا ستكون فى أقصى حالات التعاسة غدا ، ان لم تكن اليوم .. ولعلها اندفعت فى حماقة ! ومهما يكن الأمر ، فانها كانت متعجلة فى اندفاعها أكثر مما ينبغي ، ولـكن مسلكها ـ فى حد ذاته ـ لا ينطوى على شىء من الدناءة أو الخسة .. وما زلت ـ كما كنت من قبل ـ أنكر على أى انسان الحق فى أن يحتقر هذه المرأة المسكينة ، التعسة ! »

ـ اذن فأنت ما زلت ـ فى قرارة نفسـك ـ مقيمـا على احترامك وتقديرك لها ؟.. ألا تفرق بين المرأة الشريفة التى كنت فى صحبتها حتى أول أمس ، وهذه المرأة الاخرى التى هربت أمس مع رجل غريب عنها تماما ؟

ـ لست أفرق بينهما على الاطلاق .. لا أقل تفرقة .. بل ولا أتفهها !

فهتفت بالانجليزية ـ على الرغم منهـا ـ اذ اسـتغرقها موضوع النقاش الى أقصى حد : « أهذا رأيك حقـا ؟ » .. وأخلدت الى التفكير فترة وجيزة ، ثم تطلعت الى ثانية بنظراتها الصافية ، وعادت تقول : « واذا حدث أن التقيت غدا بمدام « هنرييت » ، فى (نيس) ـ مثـلا ـ وهى بين ذراعى ذلك الشاب ، فهل تحييها كالعادة ؟ »

ـ بالتأكيد !

ـ وهل تتحدث اليها ؟

ـ بالتأكيد !

ـ فاذا كنت .. أو لو كنت متزوجـا ، أفكنت تعـرف زوجتك بامرأة كهذه ، وكأن شيئا ما لم يحدث على الاطلاق ؟!

واذ أجبت : « بالتأكيـد » ، هتفت بالانجليزية ـ مرة

أخرى ـ وقد استبدت بها الدهشة ، فأنكرت ما سمعت : « أحقا كنت تفعل هذا ؟ » ٠٠ فأجبت بالانجليزية مثلها ، دون ما تعمد : « كنت أفعله حقا ! »

ولاذت مسز « س ٠ » بالصمت ، وبدا عليها الاستغراق فى تفكير عميق ٠ وما لبثت أن قالت بالانجليزية ـ فجأة ـ وهى تحملق فى وجهى ، وكأنها فى دهشة من جرأتها : « **ما الذى يدرينى بما كنت أفعله أنا ؟ ربما كنت قد حذوت حذوها !** »

ونهضت فبسطت لى يدها مصافحة ، بذلك الاطمئنان الذى لا سبيل الى وصفه ، والذى لا يحذق استخدامه سوى الانجليز ، ليضعوا حدا لأى نقاش ، فى بساطة ، دون ما جفاء أو غلظة ٠٠ وعاد الهدوء يسودنا بفضل تدخلها ٠٠ وشعرنا ـ فى دخائل أنفسنا ـ بأننا مدينون لها ، اذ استطعنا ، نحن الذين كنا على وشك الخصام ، أن نفترق على شىء من الوئام ، وأن نرى التوتر الخطير يتلاشى من الجو ، دون أن يخلف سخيمة أو جفوة !



الفصل الثانى

◆ بالرغم من ان نقاشنا انتهى بوئام وتصاف ، الا ان شيئا من الفتور ران على العلاقات بينى وبين اولئك الذين خالفونى فى الرأى ٠٠ فاذا الزوجان الألمانيان يبديان تحفظا وبرودا ، بينما أخذ الزوجان الايطاليان يتلطفان الى ، فكانا لا يكفان فى الأيام التالية عن سؤالى - فى شىء من التهكم - عما اذا كانت لدى أنباء عن « الكاراسنيورا هنرييتا » ! ٠٠ ومع اننا احتفظنا بما للمعاشرة من آداب ومجاملة ، الا أن صدعا لا سبيل الى اصلاحه أصاب ما كان بيننا من اخلاص وصراحة ٠٠

وخفف عنى الود الصافى الذى اختصتنى به مسز « س ٠ » ، منذ تلك المناقشة ، ذلك البرود الساخر الذى بدا من خصومى الألداء ٠٠ فقد تحينت عدة فرص لتجاذبنى الحديث فى الحديقة ، وهى التى كانت تلتزم عادة أقصى درجات التحفظ ، فلم يحدث قط أن أسرفت فى الحديث مع أحد من زملاء المائدة ٠٠ وأستطيع أن أقول ان مسلكها ازائى كان تكريما لى ، فان ما امتازت به من تحفظ مترفع ، كان يجعل أى حديث تختص به أحدا ، صنيعا تؤثره به ٠٠ أجل ، بل اننى لأذهب صادقا الى أنها كانت تبحث جادة عنى ، وتنتهز كل مناسبة للحديث معى ٠٠ وكان حرصها على هذا واضحا لا يمكن اغفاله ، مما كان خليقا بأن يوحى الى غرورى ببعض أفكار معينة ، لولا انها كانت متقدمة فى السن ، يكلل الشعر الأبيض رأسها !

على انه ما من مرة دار فيها الحديث بيننا ، الا واتجه بنا - دون أن نملك له دفعا - الى نقطة البداية ٠٠ الى مدام « هنرييت » ٠ ويبدو ان مسز « س ٠ »

كانت تستشعر لذة خفيــة فى اتهام هذه المــراة - التى نسيت ما عليها من واجبات - بعدم الرزانة ، وضعف الخلق .. ولكنها كانت فى الوقت ذاته تبدى اغتباطا بثباتى عــلى ما كنت اظهر نحو تلك المراة من عطف رقيق مهذب ، كما كانت تجهر بسرورها من أن ترى ان شيئا ما لم يقو على أن يزحزحنى عن ذلك العطف ! .. كانت مسز « س . » تذكر لى هذا ، وهى توجه أحاديثنا دائمـا نحو هذه الناحية ، حتى حرت - فى آخر الأمر - من سر هذا الدأب العجيب ، الذى كاد ينقلب الحاحا ممضا !

وظل الأمر على هذه الحال بضعة أيام - لعلها خمسة أو ستة - دون أن يبدر منها ما يشى بسر اهتمامها بهذا الموضوع . ولكن مدى هذا الاهتمام تجلى واضحا لى ، حين قلت لها عرضا - فى احدى نزهاتنا - ان اقامتى فى الفندق أوشكت على نهايتها ، وانني أفكر فى السفر بعد غد .. فقد علا وجهها - الذى كان فى العادة هادئا - اكفهرار غريب ، وغامت سحابة معتمة على عينيها اللتين كانتا فى لون البحر ، ثم قالت : « يا للأسى ! .. لا يزال عندى أمور كثيرة أود أن أتحدث اليك عنها »

وغشيها منذ تلك اللحظــة ارتباك وحيرة ، كما لو كان فكرها فى شــغل بموضوع غير الذى كانت تتكلم فيه .. ولعل شرود ذهنها ضايقها ، اذ لم تلبث أن صمتت بغتة ، ثم بسطت يدها فى عجلة ، قائلة : « أرى انى عاجزة عن أن أعبر عما أريد الافضاء به اليك .. وأفضل أن أكتبه لك ! » .. واتجهت على الفور الى الفندق بخطى سريعة لم أعهدها منها قبل ذلك الوقت ..

وبالفعل ، وجدت فى حجرتى - قبيل مــوعد العشاء - خطابا كتب بخط سريع ، واضح .. وكنت - للأسف - مهملا فى الاحتفاظ بالخطابات التى تلقيتها فى شــبابى ، ومن ثم لا يسعنى أن أورد نص ذلك الخطاب ، وانما أكتفى بأن أورد مضمونه على وجه التقريب .. فقد سألتنى عما اذا كنت أسمح لها بأن تروى لى حادثا صادفها فى حياتها .. وقالت - فى رسالتها - ان هذا الحادث من القدم بحيث انها لم تعد تعتبره جزءا من حياتها فى الواقع .. وبما اننى راحل بعــد غد ، فان ســفرى يسهل عليها الحديث عن أمر ظل يشغل بالها ، ويعذبها - فى قرارة نفسها - زهاء عشرين عاما .. فاذا لم أر بأسا فى الاصغاء الى هذا الحديث ، فلأسع الى لقائها فى ساعة حددتها لى ..

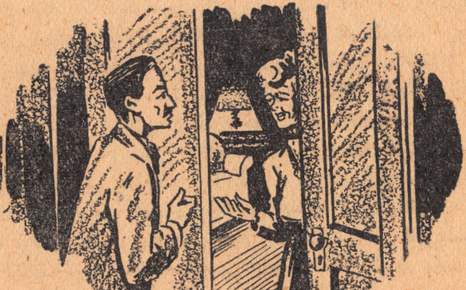
* * *

◆ أسلمنى هذا الخطاب - الذى لم أملك هنا سوى الاشارة الى مضمونه - الى دهشة تفوق الوصف .. كان أسلوبه الانجليزى واضحا ، دقيقا الى درجــة لا تتسني لغير تلك السيدة ، مما جعل الرد أمرا غير يسير ، حتي انني مزقت

ثلاث مسودات ، قبل أن أصل الى صيغة نهائية ، قلت فيها : « انه لشرف أن تؤثريني بمثل هذه الثقة ، وأعــدك بأن أجيبك مخلصا اذا ما طلبت رأيي .. ولست - بالطبع - في حاجة الى أن أرجوك بأن لا تفضى الى الا بما تشائين ان تبوحى به ، على أن تلتزمي الحقيقة الخالصة - نحو نفسك ونحوى - في رواية ما ترين روايته..وأرجو أن تؤمني بأنني أعتبر ثقتك تقديرا خاصا أعتز به » !

ونقلت رسالتي هذه اليها في نفس الليلة ، فتلقيت في الصباح التالي هذا الرد : « أنت محق تماما فيما قلت ، فان الحقيقة الناقصة لا تساوى شيئا .. ولابد من أن تكون مكتملة دائما .. سأحشد كل قواى لكى لا أخفى شيئا عن نفسي أو عنك .. فتعال - بعد العشاء - الى حجرتى (فلست أخشى ، وأنا في السابعة والستين ، أى تأويل سيء لزيارتك) ، اذ انني لن أستطيع الكلام في الحديقة ، أو على مقربة من الناس .. وصدقني حين أكرر ان اتخاذ هذا القرار لم يكن أمرا هينا على ! »

والتقينا قبل نهاية ذلك النهار على المائدة ، فتبادلنا حديثا خفيفا تناول أمورا غير ذات بال . لكن المرأة تجنبتني في اضطراب جلى حين التقينا في الحديقة بعد ذلك .. وكم آلمني وأثار اشفاقي أن أرى تلك السيدة العجوز ، ذات الشعر الأبيض ، تفر مني - في أحد الدروب المحفوفة بأشجار الصنوبر الوارفة - كما لو كانت فتاة في مقتبل الشباب !



وطرقت بابها في الموعد المناسب من ذلك المساء ، ففتحت لى على الفور .. وكانت الغرفة مضاءة بنور باهت ، كليل .. كان ثمة مصباح صغير واحد ، على منضدة ، يرسل ضوءا مخروطى الشكل ، خلال الظلام الداكن الذى سيطر على الغرفة .. وتقدمت مني مسز « س . » في غير ما ارتباك ، فقدمت لى مقعدا ،

واتخذت لنفسها آخر فى مواجهتى ٠٠ وشعرت بأنها كانت تزن كل حركة من حركاتها ! ٠٠ وسادنا صمت واجم فرض نفسه علينا دون ارادة منا ٠٠ صمت كذلك الذى يسبق قرارا يشق اتخاذه ٠٠ صمت استمر طويلا ، وطويلا جدا ، دون أن أجرؤ على خرقه بأن أبدأ الكلام ، اذ أحسست بأننى ازاء ارادة قوية ، تصطرع فى عنف مع مقاومة قوية ٠٠ وكانت تترامى الى سمعى فى تلك الاثناء أنغام خافتة متقطعة من موسيقى راقصة ، كانت تنبعث من قاعة الاستقبال فى الطابق السفلى ، فتعمدت أن أصغى اليها بكل جوارحى ، لكى أتخفف من وطأة الصمت الممض ٠٠

★ ★ ★

◆ وكأنما شعرت المرأة بدورها بوطأة هذا الصمت غير الطبيعى ، فما لبثت أن استجمعت قواها ، كمن تتأهب لهجوم ، ثم شرعت تقول :

« ليس أشق على من أن أستهل الحديث ٠٠ اننى أتأهب منذ يومين لكى أكون صريحة ، صادقة فى كل ما أقول ، وآمل أن أوفق فيما اعتزمت ٠ ولعلك لم تهتد بعد الى ما يبرر اقدامى على أن أروى لك كل هذا ، وأنت الغريب بالنسبة الى ٠٠ ولكن ما يكاد يمضى يوم ، أو تنقضى ساعة ، دون أن أفكر فى هذا الحادث ٠٠ وبوسعك أن تصدق العجوز التى تجلس أمامك ، اذا ما قالت ان من الأمور التى لا تطاق ، أن يظل فكر الانسان مركزا طيلة حياته على حادث لم يستغرق سوى يوم واحد ٠٠ فان ما أنا مقدمة على روايته لم يستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة من سنى عمرى السبع والستين ! ٠٠ وكم أخذت أردد لنفسى ، حتى أوشك قولى ان ينقلب هذيانا محموما : « ما قيمة أن تعترض المرء لحظة حماقة ٠٠ لحظة واحدة فى كل هذا العمر الطويل ؟ » ٠٠ ولكن المرء لا يستطيع أن يفلت بسهولة من ذلك الشىء الغامض المبهم، الذى نسميه : الضمير !٠٠ فلما قدر لى أن أسمعك تستعرض حادث « هنرييت » بمثل هذه النظرة الواقعية ، خطر لى اننى قد أستطيع أن أضع حدا لهذا الوضع الفظيع ٠٠ لهذه الحال التى تجعلنى أتلفت دائما الى الماضى ، فلا أفتأ أتهم نفسى بنفسى ٠٠ خطر لى اننى قد أخلص من هذه الحال اذا أقنعت نفسى بأن أفضى بصراحة لأى امرىء بقصة ذلك اليوم الأوحد فى حياتى ٠٠ ولو اننى كنت كاثوليكية - بدلا من أن أكون من رعايا الكنيسة الانجليزية - لتخففت من ذنبى بالاعتراف منذ زمن طـويل ، ولكننا محرومون من هذه السلوى ٠٠ لهذا كله أقدم اليوم على هذه المحاولة الغريبة ، فألقى اليك بسرى ، متطهرة منه ٠٠ وانى لأدرك ان هذا التصرف منى ، أمر شاذ ، غير عادى ٠٠ ولكنك قبلت ما عرضت عليك دون ما تردد ، فأشكرك ٠٠ « وعلى هذا ، فاننى - كما ذكرت من قبل - أود ان اقص عليك ما حدث لى فى

يوم واحد من أيام حياتى .. أما بقية الأيام ، فتبدو غير ذات قيمة ، بل انها قد تبعث الضجر فى نفس كل امرىء سواى ..

★ ★ ★

◆ « كانت حياتى عادية جدا ، حتى بلغت الثانية والأربعين .. اذ كان أهلى من كبار الملاك فى (اسكتلندا) ، وكنا نملك مصانع كبيرة ، وضياعا شاسعة ، ونعيش على غرار النبلاء فى بلادنا : نقضى الشطر الأكبر من السنة فى مزارعنا ، ونقضى « الموسم » فى لندن .. وتعرفت الى الرجل الذى صار زوجى، فى أحد المجتمعات التى كنت أرتادها وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى .. وكان ثانى أبناء أسرة « ر . » المعروفة ، وقد خدم فى الجيش ، وقضى عشر سنوات فى الهند .. ولم يطل بنا الوقت حتى تزوجنا ، وأخذنا نعيش الحياة المترفة التى تحظى بها طبقتنا فى المجتمع .. فكنا نقضى ثلاثة أشهر فى لندن ، وثلاثة فى مزارعنا .. أما بقية السنة ، فكنا نقضيها متنقلين بين فنادق ايطاليا واسبانيا وفرنسا ، لا يخيم على هنائنا الزوجى أتفه غيم .. وأنجبنا ولدين ، هما الآن رجلان فى أوسط العمر ..

« وكنت فى الأربعين من عمرى ، حين مات زوجى فجأة .. اذ كان قد أصيب بداء الكبد ، أثناء الأعوام التى قضاها فى البلاد الحارة .. وفقدته بعد أسبوعين عانى فيهما أفظع الآلام .. وكان ابنى الأكبر - حين مات أبوه - قد انخرط فى سلك الجيش ، أما الأصغر ، فكان فى الكلية .. وهكذا وجدت نفسى - بين عشية وضحاها - وحيدة تماما ، لا يؤنس وحشتى أحد .. وكانت هذه الوحدة عذابا مضنيا لى ، أنا التى ألفت الحياة مع رفاق أحباء ، فبدا لى اننى لن أطيق البقاء يوما واحدا - بعد ذلك - فى البيت الخالى ، الذى كان كل ما فيه يذكرنى بفجيعتى فى زوجى الحبيب . ومن ثم عقدت العزم على أن أكثر من الأسفار فى سنواتى المقبلة ، لا سيما وان ولدى لم يكونا قد تزوجا واستقرا ..

« ومنذ تلك اللحظة ، بدت لى حياتى خالية من كل غاية ، بل ومن كل نفع فى الغالب .. فقد مات الرجل الذى شاطرنى كل ساعة ، وكل فكرة ، ثلاثة وعشرين عاما .. ولم يكن ولداى فى حاجة الى .. بل لقد خشيت أن أنغص عليهما صفو شبابهما بحزنى وأساى .. ثم اننى لم أعد أهفو الى شىء ! .. وقد سافرت - فى بادىء الامر - الى (باريس) .. وأخذت أرتاد ، فى فراغى الطويل ، المتاجر والمتاحف . ولكننى شعرت بالوحشة والملل ، اذ كانت المدينة غريبة عنى بأهلها .. وكنت أتجنب الناس ، اذ لم ترق لى نظرات العطف المهذبة التى كانت تثيرها فى أعينهم ملابس الحداد ..

« من العسير على اليوم أن أقص عليك كيف انصرمت تلك الأشهر الأولى الحزينة ، المعتمة .. كل ما أذكره هو ان الرغبة فى الموت أخذت تلاحقنى ،

ولكنى لم اجد الجراة على أن اعجل بلقاء هذا المصير الذى كنت اشتهيه فى لوعتى وأحزانى ..

« ووجدتنى فى نهـاية شهر مارس - من العـام الثانى لترملى ، والثانى والأربعين من عمرى - فى (مونت كارلو) ، وقد ساقتنى اليها الرغبة المستترة فى الفرار من حياة لم يعد فيها ما يستهوينى ، او يشغل وقتى .. اجل ، لم يدفع بى الى تلك المدينة ، فى الواقع ، سوى الضجر والفراغ اللذين يلقيان على النفس تثاقلا تحاول ان تجد مهربا منه فى أتفه الأحداث التى تقع .. وكنت كلما فطنت الى تبلد أحاسيسى ، ازددت رغبة فى ان ألقى بنفسى فى دوامة الحياة وهى منطلقة بأقصى سرعتها .. فالمرء الذى يفتقد ما يستهويه فى الحياة ، يجد فى الهزات العنيفة التى تصيب حياة الغير ، ما يثير أعصابه من جديد .. كما يفعل المسرح والموسيقى فى نفوس الرواد والمستمعين !

★ ★ ★

◆ « ولهذا السبب أخذت أكثر من التردد على « الكازينو » .. فقد كان يلذ لى أن أشاهد امارات السعادة ، او الشقاء ، ترتسم على وجوه الآخـرين ، فى الوقت الذى لم تكن تهتز فيه جارحة واحدة من جوارحى .. اضف الى هذا ان زوجى - رغم بعده عن النزق - كان يميل الى التردد على قاعة اللعب ، كلما زرنا « الكازينو » فى الماضى ، فرأيت فى الوفاء لعاداته القديمة نوعا من التعبد فى محراب الأحزان !

« وفى تلك القاعة ، بدأت تلك الساعات الأربع والعشرون ، التى كانت أكثر عنفا واثارة من أية لعبة أخرى فى دنياى ، والتى قلبت مصيرى رأسا على عقب لبضع سنوات .. فقد تناولت الغداء ظهر ذات يوم مع دوقة « م . » ، وهى سيدة تربطها بأسرتى صلة نسب .. ثم جاء الليل ، فلم أشعر بتعب يحبب الى أن آوى الى مضجعى بعد العشاء ، ومن ثم ولجت قاعة اللعب ، ورحت اتسكع من مائدة الى مائدة ، دون أن أشترك فى اللعب على الاطلاق ، بل كنت أرقب « بطريقة خاصة » اولئك اللاعبين المتجمعين هنا وهناك .. وأقول « بطـريقة خاصة » ، لأن المرحوم زوجى علمنى اياها ذات يوم ، اذ رآنى وقد برح بى الضجر لطول تحديقى فى الوجوه التى لم تكن تتغير .. وجـوه أولئك العجائز المتغضنات الجباه ، اللواتى يقضين ساعات طويلة جالسات الى موائد اللعب ، دون أن تجازف احداهن بالقاء « فيشة » واحدة .. أو وجوه اولئك المحتـالين المحترفين ، أو الغانيات المقامرات .. هذا الخليط المتنافر ، القادم من كافة أرجاء العالم ، والذى هو فى حقيقته - كما تعلم - أقل رواء واثارة للخيال من تلك اللـوحة التى اعتدنا أن نتخيلها ونحن نقرأ القصص التعسة التى تصـورهم وكأنهم اعلى أمثلة الأناقة ، وصفوة الارستقراطية الأوربية !

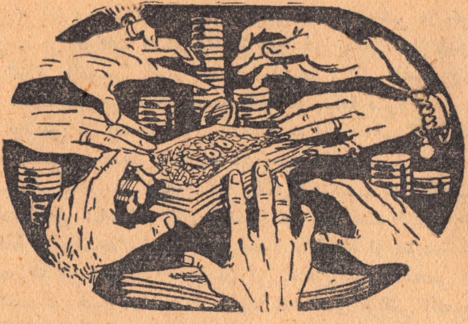
« اننى أصف لك ما كان منذ عشرين عاما ، عندما كانت الأموال وفيرة ، فكانت الأوراق المالية الجديدة ، والعملة الذهبية التى تحمل رسم نابليون ، والقطع الكبيرة ذات الخمسة فرنكات ، تنهال على موائد اللعب ٠٠ عندما كان « الكازينو » ـ قلعة القمار الفخمة ـ أروع وأفتن مما هو اليوم ، وخاصة بعد أن أعيد بناؤه ٠٠ وعندما كان السياح الذين تجلبهم شركة « كوك » يبعثرون الأموال فيه دون وعى ولا حساب !

« ومع كل هذا ، كنت أضيق بالتشابه الرتيب ، حتى أرشدنى زوجى ـ الذى كان ذا ولع خاص بعلم الكف ـ الى تلك الطريقة المبتكرة لتأمل الناس ٠٠ طريقة مثيرة ، خلابة ، لا يحس المرء معها بذلك الخمول الذى ينتابه وهو يقف جامدا كالصنم ، بلا حراك ٠٠ هذه الطريقة تتلخص فى عدم النظر الى الوجوه على الاطلاق ، وتركيز البصر على صفحة المائدة وحدها ٠٠ على هذا المربع الذى لا ترى فيه سوى أيدى اللاعبين ، بأدق حركات هذه الأيدى !

« ولست أدرى ان كان قد قدر لك يوما أن تمعن النظر فى الموائد الخضراء ، وأن ترى ذلك المربع الأخضر الذى تترنح داخله الكرة ، كشخص ثمل ، متنقلة من رقم الى رقم ٠٠ وأوراق النقد ، والقطع الفضية والذهبية المستديرة ، تتساقط على مربعاته تساقط البذور على الأرض ، ليجرفها مراقب اللعب بعد ذلك ، حاصدا اياها بضربة قاضية من مجرفته الشبيهة بالمنجل ، أو ليدفعها نحو الرابح !

« ٠٠ العنصر الوحيد الذى كان يختلف فى هذه الناحية من المنظر ، هو الأيدى ٠٠ ذلك الحشد من الأيدى الشاحبة ، المرتعشة ، أو المرتقبة حول المائدة حتى تحين ساعة العمل ٠٠ أيد كلها تحفز ، وقد أحاط بكل منها كم جعلها تبدو كحيوان ـ على فوهة مغارة ـ يتأهب للانقضاض !٠٠ أيد ، لكل يد منها شكلها الخاص ، ولونها الخاص ٠٠ أيد عارية ، وأيد مثقلة بالخواتم والسلاسل الذهبية البراقة ، وأيد كثة الشعر كالحيوانات الكاسرة ، وأيد ناعمة بضة تتلوى كالأفاعى ! ٠٠ على انها رغم تباينها ، كانت تتشابه جميعا فى توتر عضلاتها ، وفى حركاتها المنفعلة ، المرتعشة ، التى تنم عن صبر نافد ٠٠

« وكنت فى كل مرة لا أتمالك من أن أتخيل نفسى فى ميدان لسباق الخيل ، فى اللحظة التى تسبق الانطلاق ، وقد شدت أعنة الجياد كبحا لجماحها ، حتى لا تنطلق قبل الموعد المحدد ٠٠ هكذا تبدو أيدى اللاعبين ٠٠ ترتجف ، وتتراجع ، ثم تندفع ٠٠ وهى فى ترددها ، وفى طريقة امساكها بالنقود او « الفيشات » ، وفى توقفها عن الحركة ، تفصح عن شخصية اللاعب ٠٠ فالأيدى ذات الأظافر الطويلة تشى بالبخل ، والأيدى المسترخية تنم عن اسراف ، والأيدي الهادئة الرزينة تدل علي اعتداد مبني علي دقة في الحساب ، والأيدي



المرتجفة تكشف عن يأس .. مائة سجية وخلق ، تفضحها فى لمح البصر تلك الحركة السريعة التى تبدر من اليد وهى تلتقط الأرباح .. فمن الناس من يفرك الأوراق المالية فى يده ، ومنهم من ينثرها فى حركة عصبية ، ومنهم من يقبض يده عليها - اذ تكون موارده قد نضبت - ثم يلقى بها بعد ذلك على الأرض فى غير اكتراث !

« ومن الأقوال الدارجة ، ان «اللعب يكشف عن حقيقة اللاعب» !.. أما أنا فاقول أن يد اللاعب نفسه هى التى تكشف - خلال اللعب - حقيقته فى أوضح صورها .. فجميع الذين يمارسون المقامرة - أو معظمهم على الأصح - يتعلمون كيف يكتمون انفعالاتهم ، فلا ترتسم على وجوههم .. انهم يسدلون على كل ما يعلو ياقة القميص قناعا من الجمود البارد ، ويجهدون فى اخفاء تلك التجاعيد التى تتجمع حول الفم ، ويحبسون اهتزازاتهم النفسية بين أسنانهم وهم يصرون عليها ، ويسدلون بين سرائرهم وأعينهم ستارا ، حتى لا تنعكس ومضات اضطراباتهم خلال نظراتهم ، وينسقون عضلات وجوههم فى أوضاع مصطنعة توحى بعدم الاكتراث . وهم اذ يركزون كل عنايتهم على وجوههم - لأنها أكثر أجزاء الجسم افصاحا عما فى النفس - ينسون أيديهم ، ويغفلون عن أن من الناس من يرقبون هذه الأيدى دون سواها ،ويستشفون منها ما تحاول اخفاءه الشفة ذات الابتسامة المتكلفة ، والنظرات التى تصطنع عدم المبالاة !

« وان اليد لتفضح أعمق أسرارهم دون استحياء ، اذ لا مناص من ان تاتى لحظة تفيق فيها الأصابع من السبات الذى كانت تجبر عليه لتبدو هادئة .. وفى اللحظة الفاصلة التى تسقط فيها كرة « الروليت » فى الفجوة ، وينبعث الصياح الذى يعلن الرقم الرابح ، تصدر من هذه الأيدى المائة - او الخمسمائة - حركة لا ارادية ، هي التعبير الفردى الصريح للغريزة البدائية .. فاذا تعود

المرء ما تعودته أنا من مراقبة معركة الأيدى هذه ، وخبر ما خبرت ـ بفضل هواية زوجى ـ من حركات تصدر مفاجأة وعلى غير توقع ، على الدوام ، فتكشف سافرة عن التوتر العصبى الذى يتملك صاحبها ، ألفى نفسه ينفعل ويتحمس كما لو كان يشهد مسرحية ، أو يسمع ألحانا موسيقية مثيرة !

« وليس بوسعى أن أصف لك ـ تفصيلا ـ آلاف الحركات التى تصدر من الأيدى أثناء اللعب ·· فبعض هذه الأيدى حيوانات وحشية ، ذات أصابع نحيلة يكسوها الشعر ، تنقض على النقود كما ينقض العنكبوت على الذباب ·· وبعضها مرتجفة ، ذات أظافر شاحبة ، تكاد لا تجرؤ على مس هذه النقود··وسواء أكانت الأيدى مترفعة أو وضيعة ، وحشية أو حيية ، خبيثة أو مترددة ، فان لكل يد منها طابعا يميزها عن سواها ·· بل ان كل يد من يدى الشخص الواحد ، تعبر عن حياة تختلف عن حياة الأخرى ·· فيما عدا أيدى مراقبى اللعب ، فهى آلات صماء فى دقتها ، وانتظام حركاتها المكتسبة بالمران ، وحيـادها المطلق ازاء النشاط المستعر فى أيدى اللاعبين ·· فتراها تدور محدثة صريرا كذلك الذى يصدر عن باب حديدى يدور حول محور أقيم عليه عداد (مثل باب حديقةالحيوان) ·· ومع ذلك ، فان لهذه الأيدى المحايدة تأثيرا عجيبا ، اذ انها بتناقضها مـع الأيدى الشرهة ، المتوثبة ، تلوح كما لو كانت ذات زى خاص موحد ، كرجال الشرطة وسط حشد هائج متمرد !

« أضف الى ذلك لونا من المتعة يستشعره المرء اذا ما اندمج ـ عدة أيام ـ فى هذه العادات والانفعالات التى يراها من بعض الأيدى ! ·· عـلى انه لم تك تنقضى بضعة أيام ، حتى أتعرف على أيد جديدة ، أفحصها واضع كلا منها فى المرتبة التى تلائمها ·· كنت أراها كالآدميين تماما ، فمنها ما تكون خفيفـة الظل ، ومنها ما تكون ثقيلة··وكنت أنفر من عدد كبير منها لفظاظتها وجشعها، حتى اننى لم أكن أتمالك أن أشيح بوجهى عنها كلما وقع بصرى عليها ، وكأنى أرى فيها شيئا نابيا !·· وكانت كل يد جديدة تظهر على مائدة اللعب ، حدثا جديدا بالنسبة لى ، يثير فضولا واستطلاعا ·· وكثيرا ما كنت أغفل النظر الى الوجه الذى يعلو الياقة ويظل جامدا فوقها بلا حراك ـ كأنه قنـاع بارد فوق قميص الـ (سموكنج) ـ أو الوجه الذى يعلو العنق المزدان بعقد براق ، اذا كانت اليدان لامرأة !

★ ★ ★

◆ « وعند ما دخلت «الكازينو» فى ذلك المساء ـ الذى بدأت فيه قصتى ـ مررت بمائدتين اشتد زحام الناس حـولهما ، حتى اذا اقتربت من الثالثة ، بدأت أعد بعض القطع الذهبية ،

واذا بى أفاجأ بما أدهشنى ٠٠ كان الوجوم يسيطر على المائدة ٠٠ وجـوم صامت مفعم بالتفزز العصبى ، حتى ليخيل اليك ـ لفرط السكون ـ انك توشك أن تسـمع للصمت ذاته رفيفا أو حفيفا ٠٠ وفى غمرة هذا الوجوم الذى يسود اللاعبين عادة عندما تكون الكرة وشـيكة الوقوف ، وقد أخذت تتأرجح بين رقمين قبل أن تسقط فى ثغرة أحدهما ٠٠ فى غمرة هذا الوجوم، أدهشنى أن أسمع فى الجانب المواجه لى صوتا غريبا ، وقرقعة خيل الى انها تنبعث من عظام تتهشم ٠٠ وتطلعت ـ على الرغم منى ـ الى الجانب الآخر من المائدة ، واذا بى أجفل ! ٠٠ فقد رأيت يدين لم أر لهما مثيلا من قبل ، على الاطـلاق ٠٠ يدين أطبقت كل منهما على الأخرى ، كحيوانين يتحفز كل منهمـا كى يعض الآخر !٠٠ وكانتا تشتبكان ، وتتصاولان فى عنف وحشي ، فتحدث عظام أصابعهما ـ فى غمرة الاحتدام الخشن ـ قرقعة أشبه بتلك التى تنبعث من ثمرة الجوز وهى تتكسر !

« أما جمال هاتين اليدين ، فكان باهـرا ، نادرا ٠٠ كانتا مفرطتى الطول ، مسرفتى النحول ، ومع ذلك فقـد تخللتهما عضـلات ذات قوة غير عادية ٠٠ وكانتا ناصـعتى البياض ، تنتهيان بأظافر شاحبـة ، لامعة ، مستديرة فى اتساق ٠٠ ووجدتني أحدق فيهما طوال السهرة ٠٠ أجل ، كنت أتأمل فى دهشة لاتنضب هاتين اليدين غير العاديتين٠٠اليدين الفريدتين، اللتين لم يكن لهما نظير حقا ٠٠ أما ما أثار فى نفسى دهشـة أوشكت أن تكون جزعا ، فقد تمثل فى تلك الحمى التى كانت تسرى فيهما ، وتلك التعبيرات التى كانت تصدر عنهما وهمـا تشتبكان وتتصارعان ٠٠ **وأدركت لأول وهلة ـ اذ رأيتهما ـ انهمـا لرجل فاضت قوته جامحة ، فحشـد كل انفعالاته فى أصابعه ، لكي لا تحتبس فى أطواء نفسه فلا تلبث أن تنفجر وينفجر معها كيانه !** ٠٠ وفى اللحظة التى هوت فيها الكرة فى الفجوة ـ محدثة بارتطامها صوتا مكتوما ـ وصاح مراقب اللعب

معلنا الرقم الرابع ٠٠ فى تلك اللحظة الحاسمة ، انفصلت كل من اليدين عن الأخرى ، كما لو كانتا حيوانين أردتهما رصاصة واحدة ، وارتمتا على المائدة ميتتين ، لا منهوكتي القوى فحسب! ٠٠ وكانتا فى ارتمائهما تنمان عن ذعر ولوعة تعجز فصاحتى عن وصفهما ، وكأنما باغتتهما صاعقة ! ٠٠ ما رأيت قط من قبل - ولا بعد - مثل هاتين اليدين الناطقتين ، المعبرتين ، كأن كل عضـــلة فيهما فم ٠٠ وكأن شهوة المقامرة تكاد تنبثق من مسامهما !

«وظلت اليدان مستلقيتين على المائدة الخضراء برهة ، وكأنهما حيوانان بحريان قذفت بهما الأمواج على الشاطىء ، ميتين ، يثير منظرهما التقزز ٠٠ وما لبثت احداهما - اليد اليمنى - أن شرعت ترفع أصابعهـــا فى عنـــاء ، وهى ترتجف ٠٠ ثم انكمشت ، وأخذت تدور حول نفسها مترددة ٠٠ واذا بهـا قد أمسكت باحدى « الفيشات » فى حركة عصبية واضحة ، وراحت تديرها - فى حـــيرة - بين السبابة والابهام ، وكأنها عجـلة صغيرة ٠٠ وفجأة ، تراجعت تلك اليد كنمر يتحفز ، ثم قذفت بتلك « الفيشـــة » - من فئة المائة فرنك - الى وســـط المربع الأسود ، وكأنها تلفظها ، أو تبصقها ! ٠٠ وكأنما كانت هذه الحركة ايذانا لليد اليسرى ، فاذا بها تضطرب - بعد أن كانت مستلقية بلا حراك - وتنهض بدورها فتتسلل زاحفة الى اختها التى كانت ترتجف بعنف ، كما لو كان آلقاء « الفيشـــــة » فى المربع الأسود قد أنهكها واستنفد قواها ٠٠ ولاحت اليدان ، وهما ترتجفان جنبا الى جنب ، كالأسنان حين تصـطك فى عنفـــوان الحمى ٠٠ وأخذتا فى ارتعاشهما ترتطمان بالمـائدة برفق ، دون أن تحدثا صوتا ٠٠

« لا ٠٠ أبدا ٠٠ ما رأيت من قبل - عـــلى الاطلاق - يدين أوتيتا مثل هـــذه القدرة المعبرة الخـارقة ، التى تجلت فى اضطرابهما ، واختلاجاتهما العصبية ٠٠ فاذا كل ما كان يجرى

تحت تلك القبة الكبيرة ٠٠ واذا الهمهمة السارية فى أجـواء الحجرات ، وصياح مراقبى اللعب ، وحركة الناس فى غـدوهم وذهابهم ، بل وحركة الكرة ذاتها ، اذ القيت ــ اذ ذاك ــ من عل ، فأخذت تقفز كمجنون فى قفص مستدير مصقول القضبان ٠٠ كل هذه الصور التى تداخل بعضها فى بعض ، وامتزجت فى تعاقبها ، وأناخت على الأعصاب بكل ثقلها ٠٠ كل هـذه بدت لى ــ فجأة ــ ميتة ، اذا قيست بتلكما اليدين المرتعشتين ، المضطربتين ، اللتين استسلمتا للانتظار وهما تنتفضان ٠٠ تلكما اليدين العجيبتين اللتين سحرتانى وحملتـانى على أن أركز كل انتباهى عليهما وحدهما ٠٠

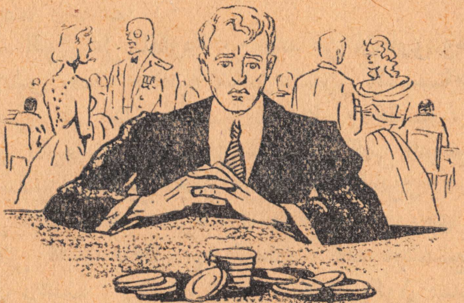
« ولم أعد أقوى على المقاومة ٠٠ لابد من أن أرى وجه الرجل ٠٠ الوجه الذى يملك صاحبه هاتين اليدين الســاحرتين ٠٠ وأرسلت بصرى فى حذر وخشية ــ أجل ، خشية ، اذ كانت هاتان اليدان تخيفاننى ــ فتسلل على طول كمى السترة حتى بلغ الكتفين الضيقتين، واذا بى أجفل مرتاعة مرة أخرى ٠٠ كان الوجه ينطق بنفس تلك اللغة الثائرة ، المتطرفة فى جموحها وانفعالها ٠٠ اللغة التى كانت تنطق بها اليدان ٠ فقد اجتمـع فى ذلك الوجه نضال رهيب ، وجمال رقيق ــ يكاد يكون نسويا ــ فى آن واحد !٠٠ ما رأيت من قبل وجهـا كذلك الوجه ، لا تمت تعبيراته الى جسد صاحبه بصلة ما ، فكأن الوجه وصاحبـه شخصان لا علاقة بين كل منهما والآخر فى حيـاته ، ولا فى أحاسيسه وانفعالاته !

« وأتيح لى ــ وأنا أحدق فيه من موقفى ــ أن أتأمله فى أناة، فتراءى لى كقناع ، أو كرجل من « البلاستيك » لا دبيب للحياة فيه ! ٠٠ كانت عينه ــ تلك العين الجامدة ــ لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، اللهم الا فى لحظات خاطفة ، وقد قبعت تحت جفنهـا المفتوح الى أقصاه ، حدقة سوداء ، لا تتحرك ، كأنهـا كرة من زجاج لا حياة فيها ، ينعكس عليها طيف الكرة الزرقاء الأخرى،

التى كانت تدور وتقفز فى جنـــون أرعن ، داخل صـــندوق « الروليت » الصغير ، المستدير ٠٠

★ ★ ★

◆ « **وأكرر** مرة أخرى اننى لم أر من قبل مثل ذاك الوجـه المنفعل ، الفاتن ٠٠ كان لشاب فى الرابعة والعشرين من عمره تقريبا ٠٠ وكان وجها نحيفا ، لطيفا ، على شىء من الاستطالة ، يطفح فى مجموعه بآيات ما كان ينتابه من انفعال ٠٠ وكان هذا الوجه ـ كاليدين ـ خاليا من كل أثر للـرجولة ، كما لو كان



وجه طفل ينصرف الى اللعب بكل مشاعره٠٠على أننى لم ألاحظ كل هذا الا فيما بعد ٠٠ اذ كان الوجه ـ حين تأملته للمـرة الأولى ـ يستتر خلف تعبيرات صارخة تدل على جشع جنونى مستعر ٠٠ كان فمه صغيرا ، مفتوحا ، وقد بدت أسنانه خلال شفتيه القرمزيتين ٠٠ واستطعت أن أتبين ـ وأنا على بعد عشر خطوات منه ـ ان أسـنانه كانت تصطك فى رعـدة محمومة ، بينما ظلت الشفتان ثابتتين فى انفراجهما ٠٠ وانسدلت عـلى جبينه خصلة من شعر أشقر ناعم ، لامع ، تدلت من حافة رأسه كانسان على وشك أن يسقط ٠٠ وانتابت طاقتى أنفه اختلاجة

متواصلة ، وكأن موجات صغيرة أخذت تتدافع تحت بشرته ٠٠ وكان رأســه يزداد انحناء الى الأمام - دون أن يفطن - حتى ليخال الناظر اليه أن ذلك الرأس كان ينجذب الى الدوامة التى راحت الكرة تدور فيها ٠٠

« اذ ذاك فقط ، أدركت سر العنف الــذى كانت يــداه تتضاغطان به ٠٠ كان اشتباكهما واصطراعهما يحفظان التوازن لهذا الجسد الذى انتزع من مجال ارتكازه ! ٠٠ ومرة أخرى ، أجدنى مضطرة الى أن أكرر باستمرار أننى لم أر قط من قبـل وجها تنبثق منه المشاعر فى غزارة دافقة ، ووحشية سافرة ، عارية ، كذلك الوجه ٠٠ **ووجدتنى أتفرس فيه بكل جوارحي ، وأنا مشــدوهة ، مأخوذة بتلك النظرات المختبلة التى كانت تندلع من عينيه ، وهو يرقب الكرة في قفزها ، وحــركتها ، ودورانها !٠٠ منذ تلك اللحظة لم أعد ألتفت الى أى شىء آخر ، فقد بدا لى كل ما عداه باهتا ، صدئا ، لا قيمة له ٠٠ ولاح كل شىء مظلما الى جانب ذلك اللهب المنبثق من ذلك الوجه !**

«وبقيت لا ألتفت الى شخص آخر سواه نحو ساعة من الزمن، قضيتها فى تأمله وحــده ، وفى تأمل كل حركة من حركاته ٠٠ وفجأة ، انبعث من عينيه وميض وهاج ، وانشقت راحتا يديه المحتقنتين ، فانفصلت الأصابع بعضها عن بعض فى حركة عنيفة وهى تنتفض ٠٠ كان ذلك حين دفع مراقب اللعب الى اليدين عشرين قطعة ذهبية ، فأطبقتا عليهــا فى شراهة ونهم ٠٠ واذ ذاك أشرق الوجه فجــأة ، وارتدت اليه ميعة الصــبا كاملة ، وانبسطت أساريره فى رفق ، وأبرقت عيناه ٠٠ أما جســـده المنحنى الى الأمام ، فقد اعتدل فى رشاقة وخفــة ، وانتصب كجسم فارس على صهوة جواده ، وقد ازدهاه النصر ٠٠ وأخذ رنين القطع الذهبية يتردد بين أصابعه التى راحت تديرها فى شغف ووله ، فتسقط الواحدة منها على الأخرى ، وتتراقص ، وتبعث رنينا ٠٠

« وما لبث الشاب أن أدار رأسه الى المائدة من جديد - فى قلق - وأخذ يذرع الرقعة الخضراء بنظراته، ككلب صغير يتشمم الأرض بحثا عن فريسة ! ٠٠ وفجأة ، وضع القطع الذهبية جميعا على أحد المربعات ، بحركة عصبية سريعة ، وارتد لفوره الى الترصد والتربص ٠٠ ومن جديد ، انساب من بين شفتيه ذلك الأزيز المهتز ، وعادت اليدان الى توترهما ، وتوارى الوجه الصبيانى خلف الرغبة القلقة ٠٠ ودام هذا الى اللحظة التى بلغت فيها خيبة الأمل درجة الانفجار ، فتراخت تقلصات يديه، واذا الوجه - الذى كان منذ لحظة يشبه وجه الطفل - قد ذبل، وأظلم ، واكتهل ، وخمد بريق عينيه !

« حدث كل هذا خلال ثانية واحدة ، اذ استقرت الكرة على رقم غير الذى كان قد اختاره ٠٠ وخسر ! ٠٠ ومرت ثانيتان حملق الشاب خلالهما فى بلاهة وكأنه لا يفهم ، ولكن ٠٠ ما أن عادت صيحة مراقب اللعب ، حتى نبهته كما لو كانت سوطا ألهب ظهره ، فأنشب أصابعه فى قطع ذهبية أخرى ٠٠ ولم يكن قد استقر على رأى فى البداية ، فوضع القطع الذهبية على مربع ، ثم غير رأيه ووضعها على مربع آخر ٠٠ حتى اذا شرعت الكرة فى الدوران ، سارع - ويده ترتعش - فألقى بورقتين ماليتين مجعدتين على المربع ذاته ، كأنما هبط عليه الهام مفاجىء ٠٠

« وتعاقب عليه الربح والخسارة ، زهاء ساعة تقريبا ، كنت خلالها لا أحول بصرى عن ذلك الوجه المتغير - بتأثير تعاقب الانفعالات في مدها وجزرها - ولا عن تلكما اليدين الفاتنتين اللتين كانتا ترتفعان وتنخفضان كقذيفة على سطح الماء ، وقد تجلت على كل عضلة فيهما سلسلة متصلة من صور الأحاسيس التى كانت تخالج صاحبهما ! ٠٠ وما تطلعت فى حياتي الى وجه ممثل مسرحى بمثل هذا الاهتمام الذى رحت أرمق به ذلك الوجه الذي توالت عليه أفواج من كافة الأحاسيس ، كما تتعاقب

الأضواء والظلال على المنـاظر الطبيعية ٠٠ ولا استغرقت بكل جوارحي في تأمل شيء ، قدر استغراقي في التطلع الى هـذه الفـورة العارمة ، العجيبة ٠ ولو أن انسانا راقبني في تلك الفترة ، ورأى نظراتي المسددة - التي كانت ثابتة لا تتزحزح - لخيل اليه انه أمام امرأة منومة تنويما مغناطيسيا ٠٠ اذ كان استغراقي قد سلبني حسي كما يفعل التنويم المغناطيسي تماما !

« لم أكن أملك أن أكبح نفسي عن النظر الى هـذه التعبيرات المتعاقبة ٠٠ وكان كل ما يحيط بي من أضواء ، وضـحكات ، ومخلوقات متناثرة ، ونظرات ٠٠ كل هذه كانت تطفو حولي كما لو كانت خيالات ، أو كسحابة من دخان شاحب ، برز في وسطها ذلك الوجه ، تحيط به هالة من لهب ! ٠٠ لم أعد أسمع شيئا ، أو أحس بشيء ، أو أرى الناس حولي وهم يتدافعون ٠٠ لم أعد أبصر سوى تلكما اليدين تمتدان فجأة كالأسلاك لتقذفا بالنقود فوق رقعة اللعب ، أو لتجمعاها !٠٠ ولم أعد التفت الى الكرة ، أو أسمع صوت مراقب اللعب ٠٠ ومع ذلك كنت أرى كل ما يدور حولي ، مجسما ، ومضخما ، بتأثير الانفعالات والاختلاجات التي كانت تنتاب يدي الشاب ، كما لو كنت أحيا في حلم ، وليس في الواقع !

« وهكذا لم أكن بحاجة الى ان أتطلع الى مائدة « الروليت » ، لأتبين ما اذا كانت الكرة قد وقعت على اللون الأحمر أو على اللون الأخضر ، وما اذا كانت ماضية في الدوران أو انها توقفت ٠٠ اذ كانت كل مرحلة من مراحل اللعب - سواء أكانت خسارة أو ربحا ، انتظارا أو خيبة - تقرأ بحروف من نار على ذلك الوجه الذي استبدت شهوة المقامرة بأعصابه وحركاته !

* * *

◆ « **على انه** لم تلبث ان حلت لحظة رهيبة ٠٠ لحظة كنت أتهيب - في قرارة نفسي - من حلولها طيلة الوقت ٠٠ لحظة كانت مخيمة على أعصابي ، التي اشتد بها التوتر ، كما تخيم

العاصفة ، قبل انقضاضها فجأة٠٠ فقد بدأت الكرة تتثاقل ، محدثة تلك الارتطامات التى تشبه التصفيق الخافت ٠٠ ومرة أخرى تأرجحت تلك اللحظة الحاسمة التى انطبقت فيها مائتا شفة لتحبس الأنفاس ، الى ان علا صوت مراقب اللعب ، معلنا فى هذه المرة فوز رقم « الصفر » ، بينما كانت مجرفته السريعة الحركة تجمع القطع الذهبية الرنانة وأوراق النقد من جميع جوانب المائدة ٠٠ ففى تلك اللحظة ، صدرت من اليدين حركة مفعمة بالذعر ، اذ وثبتا على شىء ما ، لم يكن له وجود ٠٠ ثم تهالكتا فى اعياء ـ وكأنهما من الثقل بحيث شدتهما الجاذبية الأرضية الى المائدة ! ـ وراحتا تختلجان فى ألم ٠٠ على أن النشاط لم يلبث ان دب فيهما ثانية ، فانطلقتا تعدوان ـ محمومتين ـ من المائدة الى الجسم الذى تنتميان اليه ، تتسلقان جذعه كقطتين متوحشتين ، وتنقبان فى الجيوب العليا والسفلى ، واليمنى واليسرى ، بلهفة منفعلة ، لتستوثقا من انه لم تبق فى أى منها قطعة نقدية منسية ٠٠ ولكنهما كانتا ترتدان خاويتين دائما ، ثم لا تلبثان ان تعودا الى البحث والتنقيب فى لهفة ، ولكن ٠٠ دون جدوى ! ٠٠ وبدأ قرص « الروليت » الصغير يدور من جديد ـ فى تلك الأثناء ـ فاستأنف اللاعبون لعبهم ، وتجاوب رنين القطع النقدية ، وأخذت المقاعد تتزحزح ، وآلاف الهمسات الحائرة تملأ البهو بالاقاويل ٠٠ وارتجفت أنا ، وقد تولانى الجزع ، اذ اندمجت ـ على الرغم منى ـ فى تلك المشاعر جميعها ، كما لو كانت أصابعى هى التى راحت تبحث فى جنون ويأس عن أية قطعة من النقود قد تكون متوارية فى أحد الجيوب ، أو فى ثنايا السترة التى تهدلت !

« وما لبث الشاب ان قفز مستويا على قدميه فجأة ، وكأنه أحس بتعب مباغت ٠٠ وأخذ يشد قامته حتى لا يختنق ، بينما هوى المقعد خلفه ، مرتطما بالأرض فى صوت حاد ٠٠ ولكنه لم يعبأ بما حدث ، ولا التفت الى جيرانه الذين انكمشوا

فى دهشة وخوف من ذلك المترنح ، الذى لم يلبث أن ابتعد عن المائدة بخطى متثاقلة

« وسمرت فى مكانى حين رأيت ذلك المنظر ، **فقد أدركت لفورى الى أين كان يسعى ذلك الرجل ٠٠ الى الموت !٠٠ فالذى ينهض عن المائدة بهذا الشكل ، لا يمكن أن يكون ذاهبا الى فندق بالطبع ، ولا ساعيا الى ملهى ، ولا ذاهبا الى مخدع امرأة، أو الى مقعد محجوز له فى أحد القطارات ، ولا الى أى مكان آخر فى الدنيا ٠٠ وانما هو يولى وجهه شطر ٠٠ العدم ! ٠٠ كان فى وسع أبلد الناس ادراكا ـ فى تلك القاعة الجهنمية ـ أن يدرك أن هذا الرجل قد غدا معدما ، لا يملك موردا فى بيته ، أو فى أى مصرف ، أو لدى أسرته ٠٠ كان قد قامر بآخر درهم معه ٠٠ بل قامر بحياته ، ثم انطلق بتلك الخطى المتثاقلة ، المتعثرة ، الى مكان ما ، لا يهمه موقعه ، ولكن من المؤكد انه خارج نطاق الوجود !**

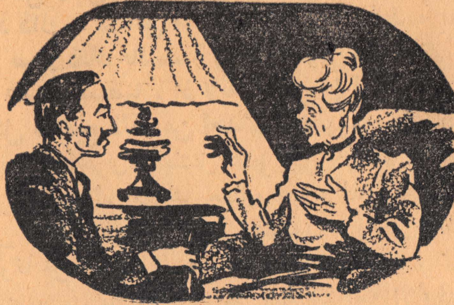
★ ★ ★

◆ « **وكنت** دائما أوجس ـ وقد ساورنى هذا الشعور منذ اللحظة الأولى ، بطريقة خفية ـ من ان اللعب هنا لا يقتصر على تنافس على الربح أو الخسارة٠٠ومن ثم وقع على وقوع الصاعقة أن أرى الحياة تغيض من عينى هذا الشاب فجأة ، والموت يبسط صبغته الشاحبة على ذلك الوجه الذى ما يزال فى نضارة الفتوة ٠٠ فلما نهض من مكانه فى عناء ، مترنحا ، ضممت قبضتى بشدة ، دون وعى منى ٠٠ اذ كنت قد تأثرت بحركاته المرنة الى أقصى حد ، فسرت فى جسدى مشيته المتعثرة ، كما سرت انفعالاته فى عروقى وأعصابى من قبل ٠٠ ولم يسعنى أن أقف مكتوفة اليدين ، بل وجدتنى مسوقة الى أن أتبعه ، وأخذت قدماى تتحركان من تلقاء نفسيهما ودون ما ارادة منى ٠٠ كان

ذلك دون وعى منى ٠٠ لم أكن أنا التى تتصرف ، ولكن الذى حـدث اننى اندفعت ـ دون ما انتباه الى نفسى ، ولا وعى الى حقيقة حركاتى ـ أجرى نحو الردهة المفضية الى الخارج ٠٠

« كان الشاب فى غرفة ايداع الثياب ، وقد حمـل له الخادم معطفه ، ولكن ذراعيه لم تعودا تطيعانه ، فأسرع الخادم يعاونه على ادخال يديه فى كمى المعطف ، كما لو كان يساعد عاجزا أو مشلولا !٠٠ ولمحته يدس أصابعه بطريقة آلية فى جيـوب صديريه بحثا عن مبلغ ينفح به الخادم ، ولكنها ارتدت خاوية بعد أن غاصت الى قاع كل جيب٠٠واذ ذاك ، بدا انه تذكر فجأة كل ما مر به منذ لحظات، فتمتم موجها للخادم بعض كلمات غير مفهومة ٠٠ وكما حدث منذ برهة ، وثب فجأة الى الامام ، وهبط سلم الكازينو متعثرا كالثمل ، بينما ظل الخادم لحظة يرمقـه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، نمت فى البـدايـة عن ازدراء ، ثم لم تلبث أن نمت عن ادراك للحقيقة ٠٠

« وكان هذا المنظر مثيرا الى درجة جعلتنى أخجل لوجودى فى ذلك المكان ٠٠ ووجدتنى أشيح بوجهى على الرغم منى ، لفرط ما انتابنى من ضيق ، اذ خيل الى انى أشاهد مسرحية عن مأساة من مآسى اليأس ، تحل بانسان لا أعـرفه ٠٠ **ودفعنى ذلك الألم ـ الذى استولى على كيانى كله ـ الى أن أمضى خلف الرجل فجأة ٠٠ فطلبت معطفى فى عجلة ٠ وبحركة آلية غريزية ، ودون ما تفكير ، اندفعت فى الظلام ، أقتفى خطوات الشاب ! »**



الفصل الثالث

• **أمسكت** مسز « س ٠ » عن الكلام برهة ٠٠ وكانت – طوال الوقت الذى مضى – جاثمة فى مقعدها أمامى ، لا تحير حراكا ، وهى تسرد حديثها دون ما توقف تقريبا ، بذلك الهدوء والوضوح اللذين امتازت بهما ، واللذين لا يتوفران الا لشخص أعد نفسه لموضوع الحديث ، ونسق ترتيب الحوادث بعناية ٠٠ وكانت هذه أول مرة تمسك فيها عن الاسترسال ٠٠ وبعد تردد قصير ، نحت موضوع قصتها جانبا ، واتجهت بالحديث الى مباشرة :

« لقد تعهدت أمامك وأمام نفسى بأن أروى لك كل ما حدث بصراحة خالصة من كل شائبة ، ولكنى – بدورى – أطالبك بأن تثق فى صدق أقوالى ثقة مطلقة ، وأن لا تعزو تصرفى هذا الى بواعث خفية أخجل اذا فكرت اليوم فيها ٠٠ لأنك ان فعلت ، فستسترسل فى احتمالات لم يكن لها قط أى ظل من الحقيقة !

٠٠ ومن ثم ، أرى أن أؤكد لك اننى عندما أسرعت فى الطريق وراء ذلك المقامر المتداعى ، المحطم ، لم أكن قد وقعت فى غرامه – مثلا – بأي حال من الأحوال ، لأننى لم أكن أفكر فيه كما قد

تفكر امرأة في رجل ! ٠٠ فالواقع أنني - وكنت قد جاوزت الأربعين اذ ذاك - لم ألق اعتبارا لأى رجل قط ، بعد وفاة زوجي، بل صار ذلك بالنسبة لى شيئا دفن مع الماضى !٠٠ انني أوضح لك هذا خصيصا ، اذ لابد لى من أن أبينه لك ، والا فلن يبدو لك كل ما تبع ذلك من أحداث ، مفهوما٠٠لفرط بشاعته!

« ومن ناحية أخرى ، يشق على فى الواقع أن أصف بدقة ذلك الشعور الذى لم أقو على مقاومته ، والذى دفعنى الى تعقب ذلك التعس ٠ كان فيه شيء من الفضول ، ولكن الحافز الأكبر عليه كان لونا من الخوف الرهيب ٠٠ أو بالاحرى ، التوجس من شيء رهيب شعرت به يستولى على منذ اللحظة الأولى التى وقع فيها بصرى على ذلك الشاب ! وليس فى الوسع تحليل تلك المشاعر ، ولا بحثها ومناقشتها ، لا سيما وأنها تأتى متشابكة بعضها ببعض ، فى قوة وسرعة ، ودون ما سابق تدبير أو تفكير ٠٠ بل لعل الباعث الذى دفعنى الى ذلك التصرف لا يختلف عن ذلك الحافز الغريزى المحض ، الذى يدفع المرء الى أن يخف الى انقاذ طفل يوشك أن يلقى بنفسه تحت عجلات سيارة فى الطريق !٠٠ والا ، فكيف نبرر تصرف أولئك الذين لايجيدون السباحة ، ومع ذلك يلقون بأنفسهم من فوق قنطرة ، اذا رأوا انسانا يغرق ، رغبة منهم فى انقاذه ؟! ٠٠ ان ثمة قوة خارقة ٠٠ ارادة خفية غامضة ، هى التى تدفع بهم الى القاء أنفسهم فى الماء ، قبل أن ينفسح لهم الوقت الكافى للتفكير فى ذلك العمل الجنونى الجرىء الذى يقدمون عليه !

« وهكذا كانت حالى تماما ٠٠ فقد انطلقت - دون ما تفكير أو تدبير ، بل دون ما وعى على الاطلاق - أتعقب ذلك التعس ، من قاعة اللعب حتى الباب الخارجى ٠٠ ومن الباب الخارجى ، الى فناء « الكازينو » ٠٠ وانى لأومن بأنك ٠٠ بل بأن أى امرىء أوتى عينين مبصرتين ، ما كان ليقوى على أن يكبح نفسه عن ذلك الفضول القلق ، المثير ٠٠ فليس أدعى للرثاء والأسى من تصور

ذلك الشاب ـ الذى كان فى الرابعة والعشرين من عمره ، على الأكثر ـ وقد أخذ يجر قدميه فى عناء ، هابطا السلم ، ومتجها الى فناء « الكازينو » الخارجى ، مترنحا وكأنه ثمل ، وقد التوت أطرافه وتخلخلت !

* * *

• « **وهناك** ـ فى الفناء الخارجى للكازينو ـ تهالك متثاقلا على أحد المقاعد ، وكأنه زكيبة !٠٠ ومن جديد ، ارتجفت حين عاودنى الاحساس بأن هذا الرجل قد استنفد كل حيويته ٠٠ فلا يمكن أن يتهالك بهذه الطريقة سوى ميت ، أو انسان لم تعد فيه جارحة حية ! ٠٠ كان رأسه مائلا الى الوراء ، ومرتكزا على مسند المقعد ، وذراعاه متدليتين نحو الأرض فى استرخاء ٠٠ ولو أن عابرا لمحه تحت الضوء الخافت الواهن ـ المنبعث من المصابيح ـ لما ارتاب فى أنه جثة فاقدة الحياة !

« وهكذا اعتبرته أنا فى تلك اللحظة ! وليس بوسعى أن أفسر كيف تبلورت هذه الصورة أمام ناظرى فجأة ٠٠ ولكن ، هكذا كنت أراه اذ ذاك ٠٠ كأنى كنت أرى حقيقة بشعة مروعة ٠٠ كأنى كنت أشهد جثة ! ٠٠ **وكنت واثقة تمام الثقة من انه يحمل مسدسا فى جيبه ، ومن ان جسمه هذا لن يلبث أن يكتشف فى اليوم التالى على هذا المقعد ، أو على سواه ، هامدا ، غارقا فى بركة من الدم** !٠٠ كان شكله ـ فى هذا الوضع ـ يشبه الحجر الذى تقذف به فى هاوية ، فيظل يتدحرج دون توقف حتى يصل الى قرارها ٠٠ أبدا لم يقدر لى أن أرى من قبل جسدا فى وضع ينم عن اليأس والاعياء ، مثل هذا !

« والآن ، تخيل موقفى ! ٠٠ لقد وجدت نفسى على بعد عشرين أو ثلاثين خطوة ، خلف مقعد استقر عليه رجل فاقد الحركة ، متداع ٠٠ واحترت ماذا أفعل !٠٠ كنت ـ من ناحية ـ مدفوعة بالرغبة فى اغاثته ٠٠ ومن ناحية أخرى ، كان يصدنى

الخوف من مخاطبة رجل غريب فى الطريق ٠٠ وهو خوف متولد عن التربية والوراثة ! ٠٠ وكانت مصابيح الغاز ترسل ضـوءها مستديرا ، شاحبا ، نحو السماء الملبدة بالغيوم ٠٠ والمارة القلائل يسرعون الخطى ، اذ كان الليل قد أوشك أن ينتصف ، ومن ثم كنت بمفردى — تقريبا — فى المتنزه ، مع ذلك الرجل الذى كان على شفا الانتحار !

« واستجمعت قـواى — خمس أو ست مـرات — وهممت بالاقتراب منه ، ولكننى كنت أتراجع بدافع الحياء ، أو بدافع من تلك الغريزة أو ذلك الاحساس العميق الذى يوحى الينا بأن أولئك الذين يهوون من حالق ، يجذبون معهم فى سقوطهم كل من يخف لنجدتهم ! ٠٠ وفى غمرة هذا الموقف ، تبينت بوضوح مدى حماقتى وطيشى وحرج مركزى ٠٠ لم أستطع أن أتكلم ، ولا أن أنصرف ، ولا أن أفعل شيئا ، ولا أن أترك الشاب وشأنه ! ٠٠ صدقنى اذا قلت اننى ظللت على هذه الحال — فى تلك البقعة — زهاء ساعة ٠٠ ساعة لم تشأ أن تنتهى ٠٠ بينما كانت أمواج البحر غير المنظورة تنبه الزمن بآلاف متعاقبة من خفقاتها الخفيفة ٠٠ وأنا ما زلت حائرة ، مضطربة ، ازاء هذه الصورة التى كانت تمثل النهاية الحزينة لمخلوق ٠٠ من البشر !

« أجل ، لم أجد من نفسى جرأة على أى قول ، أو أى عمل ٠٠ وكان من الممكن أن أقضى النصف الباقى من الليل فى الانتظار على هذا النحو ، أو أن أعود أدراجى ، فى نهاية الأمر ، بدافع من الأنانية ٠٠ نعم ، أعتقد اننى كنت قررت بالفعل أن أترك هذه الحزمة من التعاسة لمصيرها ، لولا ان تغلبت على ترددى قوة خارقة ٠٠ اذ بدأت السماء تمطر ! ٠٠ كانت الريح قـد ظلت الليل بطوله تجمع — من فوق البحر — سـحب الربيع المثقلة بالبخار ، حتى ان المرء كان يحس — برئتيه وقلبه — أن السماء تنوء بثقلها على الأرض ! ٠٠ وما لبثت أن سقطت قطرات من مطر ، أعقبها سيل منهمر من تلك السحب المليئة التى كانت

الريح تطاردها ٠٠ ووجـدتنى أحتمى ـ دون أن أفطن ـ بسقف احـدى مظلات المتنزه ٠٠ ومع اننى استبقيت مظلتى مفتوحة ، الا ان السيل الدافق نثر على ملابسى « كتلا » من الماء ٠٠ بل اننى شعرت بالرذاذ المنبعث من ارتطام القطرات الثقيلة بالأرض يصيب وجهى ويدى ٠٠ ولكن ٠٠ شدما كان المنظـر رهيبا ، حتى اننى ما زلت الى اليوم أشعر بغصة فى حلقى كلما تذكرته ٠٠ أقول : **ولكن التعس بقى ـ رغم كل هذا ـ جامدا فى مقعده ، لا تبدر منه أية حركة على الاطلاق !٠٠ وظل المـاء يتدفق ويجرى فى المسارب ، بينما كانت قعقعة عجلات العربات تتناهى الى سمعى من ناحية المدينة ٠٠ وكان الناس يجرون هنا وهناك وقد تسربلوا بالمعاطف الضافية ٠٠ كان كل مخلوق حى ينكمش على نفسه ، وينشد ملاذا وقد استبد به الفزع ٠٠ وبالاجمال ، سيطر الخوف ـ من الطبيعة الثائرة ـ على كل انسان وحيوان ٠٠ فيما عدا تلك الحزمة الآدمية السوداء ، التى ظلت فى مكانها على المقعد دون حراك !**

★ ★ ★

◆ « **ولقد** ذكرت لك من قبل ان هذا الرجل أوتى مقـدرة خارقة على التعبير ـ بمرونة ـ عن مشاعره ، بحركاته وايماءاته ٠ على انه لم يكن فى الوجود ما هو أقوى فى التعبير عن اليأس المطبق ، وعن التخلى الكامل عن النفس ، وعن « الموت الحى » ، من ذلك الجمود ٠٠ تلك الحال من فقدان الحركة وفقدان الشعور تحت وابل المطر ٠٠ وذلك التخاذل البالغ ، الذى حال بين الرجل وبين الوقوف ليخطو الخطوات القلائل اللازمة كى يبلغ أى ملجأ يحتمى به ! ٠٠ كان عدم اكتراثه بنفسه قد بلغ حدا لا تصدقه العين ٠٠ **أبدا لم يقدر لمثال أو لشاعر ـ ولو كان «ميكل انجلو» أو « دانتى » ـ أن يصور لى كيف يكون مظهر اليأس الطاغى ، والتعاسة المطلقة فى الدنيا ، ذلك التصوير القوى المثير الذى تجلى**

في مسلك ذلك المخلوق الذى ترك نفسه تغرق فى العاصفة ٠٠ فقد بلغ من الانحلال والتخاذل مبلغا عجز معه عن الاتيان بأية حركة !!

« ولم أستطع الى المقاومة سبيلا ، اذ لم يكن ثمة بد من عمل شيء٠٠ فما لبثت ان وثبت تحت المطر الغزير الذى كان يتساقط بعنف ، فهززت تلك الحزمة البشرية التى كانت على المقعد ، والتى أغرقها السيل المنهمر ٠٠ وقلت له وأنا أمسك بذراعيه : « تعال ! » ٠٠ وتطلع الى ـ فى عناء ـ وجه غامض المعالم ٠٠ وخيل الى ان دبيبا من الحركة يسرى فى أوصاله ، ولكنه لم يفقه ندائى ٠٠ فقلت وأنا أجره من كم معطفه المبتل ، وقد أوشكت لهجتى أن تنم عن غضب : « تعال ! » ٠٠ فنهض اذ ذاك فى بطء ، مسلوب الارادة ، مترنحا ٠٠ وسألنى : « ماذا تريدين ؟ »

« ولم أجد لسؤاله جوابا ، فقد كنت لا أدرى الى أين أذهب به **٠٠ لم يكن يعنينى سوى أن أنتزعه من ذلك المطر الغزير البارد، ومن ذلك التخاذل وعدم الاكتراث اللذين كانا بمثابة الانتحار ، واللذين أبقياه فى ذلك المكان فريسة ليأس قاتل !** ٠٠ وظللت ممسكة بذراعه ، ثم أخذت أجر تلك الحزمة البشرية ، حتى



وصلت بها الى « كشك » بائعة الزهور ، اذ كان لسقفه حافة منبسطة قليلا ، تستطيع أن تحمى الرجل من المياه التى كانت تنصب انصبابا ، فتدفعها الريح فى عنف . لم أكن قد فكرت فى شيء .. بل لم أكن أبغى سوى هذا ، اذ لم يكن يشغل فكرى سوى أمر واحد : هو أن أسلم ذلك الرجل الى ملجأ .. الى مكان آمن من البلل !

« وهكذا وجدنا نفسينا — جنبا الى جنب — فى ذلك الحيز الضيق الذى احتمينا به ، ومن خلفنا باب « الكشك » المغلق ، وفوق رأسينا حافة السقف التى كانت من الضيق بحيث ان مياه المطر الدافقة كانت تتسلل عبرها ، لتقذفنا برشاش تحمله لفحات الهواء الشديدة الى ملابسنا ووجهينا .. ولم يلبث الموقف أن أصبح لا يطاق ! .. فما كنت أملك — رغم كل الاعتبارات — أن أبقى أكثر مما بقيت الى جوار هذا الغريب المثقل بالبلل .. كما كان من المستحيل على أن أتخلى عنه بعد أن زحزحته عن مكانه ، لمجرد رغبتى فى تركه ، ودون أن أحدثه بشيء ! .. كانت الضرورة تحتم أن أفعل شيئا ! .. وما لبثت أن انتهيت رويدا الى فكرة صائبة ، واضحة .. فكرت فى ان خير ما أستطيع أن أفعله ، هو أن أرافقه فى عربة الى المكان الذى يقيم فيه ، ثم أعود الى حيث كنت أقيم .. ولسوف يعرف — فى غده — كيف يتصرف فى مصيره ..

« ومن ثم سألت الرجل الواقف بجوارى ، والذى كان يحملق فى الليل البهيم : « أين تقيم ؟ » .. فقال : « لا مأوى لى .. لقد حضرت الليلة بالذات من (نيس) ، ولا سبيل لأحد أن يرافقنى ! » .. ولم أدرك فى الحال ما كان الرجل يرمى اليه ، ولكننى فهمت فيما بعد أنه كان يظن اننى .. اننى .. اننى من أولئك النسوة اللاتى تحوم أفواجهن حول « الكازينو » فى

الليل ، أملا فى الظفر ببعض المال من اللاعبين المحظوظين، أو ممن لعبت الخمر برؤوسهم !

★ ★ ★

◆ « **ترى** ، كيف كان من الممكن أن يظن غير ذلك ؟ ٠٠ ان ظنونه لم تبعد كثيرا عن الحقيقة ، فأنا ما زلت أشعر - اذ أروى لك الآن قصتى - بغرابة موقفى فى ذلك الوقت !٠٠ والا ، فأية فكرة أخرى كان يمكن أن تراوده ، وقد انتزعته من مقعده ، وجررته معى دون ما حرج أو تردد ؟!٠٠ ماكان هذا فى الحق مسلك سيدة محترمة !٠٠ بيد ان هذا لم يخطر ببالى اذ ذاك ، ولم أفطن - الا فيما بعد ، وحين فات الأوان - الى مدى ازدرائه المقذع لى٠٠ ولو كنت أدركت لفورى مغزى كلامه ، ما انطلقت من فمى هذه الألفاظ التى كانت خليقة بأن تدعم ظنونه الخاطئة ، اذ وجدتنى أقول له :

- استأجر الآن حجرة فى فندق ، فليس بوسعك أن تبقى هنا ٠٠ يجب أن تعثر لك على مأوى فى الحال !

« واذ ذاك فقط ، أدركت ظنه الفظيع ، اذ قال فى شىء من السخرية ، ودون أن يلتفت نحوى : « **لا ، لست بحاجة الى غرفة ٠٠ لم أعد بحاجة الى شىء ، فلا تتعبى نفسك ٠٠ لا منفعة ترجى منى ٠٠ لقد أخطأت الاختيار ، فلست أملك نقودا !**»٠٠ قال هذه الكلمات فى لهجة بشعة ، وفى استهتار مثير ٠٠

« وكان يبدو - فى وقفته المسترخية وطريقته فى الاعتماد على سياج « الكشك » - مثيرا للاشمئزاز ، اذ كان خائر القوى ، مبتلا حتى عظامه ٠٠ وأثار مسلكه فى نفسى ألما شديدا لم يدع لى وقتا للاحساس بالاهانة التى وجهها الى فى قحة وحماقة ٠٠ كان الشعور الوحيد الذى تملكنى وظل يلازمنى ، هو نفس ذاك الشعور الذى داخلنى حين رأيته يغادر بهو «الكازينو» مترنحا ، والذى رافقنى طوال تلك الساعة التى لا تخطر ببال٠٠ الشعور

بأننى أرى انسانا ــ فى عنفوان الشباب ومقتبل الحياة ــ يسعى الى الموت ، فمن واجبى أن أنقــذه !٠٠ لذلك ما لبثت أن دنوت منه قائلة : « لا تحمل للمال هما ، وتعال ! ٠٠ انك لا تستطيع البقاء هنا طويلا ٠٠ سأبحث لك عن مأوى ٠٠ لا تقلق ، فمـــا عليك الا أن تتبعنى ! »

« وتحرك رأس الشاب فى ايماءة تدل على انه اقتنع بجوابى، اذ كان المطر ينهمر حولنا فى عنف محدثا خريرا عاليا ، وينساب تحت أقدامنا فى غزارة ٠٠ وأحسست خلال الظلام بأنه يجاهد كى يتأمل وجهى للمرة الأولى ٠٠ وبدا كأن جسمه قد أخــذ يستفيق من سباته ، ثم قال : « **ليكن ما تشائين ٠٠ كل الامور تستوى عندى ٠٠ لم لا ؟ ٠٠ لننصرف !** »

« وفتحت مظلتى ، فاقترب منى ، وأنفذ ذراعه تحت ذراعى ، فشعرت بالاشمئزاز من هذا التبسط المفاجىء٠٠أجل ، أزعجنى اقدامه هذا على رفع الكلفة ، فداخلنى ذعر نفذ الى أعماق قلبى، ولكننى لم أجد الجرأة على أن أصد الرجل عن هذه الألفة ، فان صدى كان كفيلا بأن يرده الى الهاوية ، فيضيع كل ما بذلت حتى الآن بددا !

« وسرنا بضع خطوات فى اتجاه «الكازينو» ٠٠واذ ذاك فقط، أدركت اننى تورطت معه ٠ ورأيت ــ بعـــد تفكير سريع ــ ان أفضل الحلول هو أن أصحبه الى فندق ، ثم أضع فى يده بعض النقود ، ليستطيع أن يدفع أجر غرفته ، وأن يسافر الى (نيس) ٠٠ لم يخطر ببالى قط أى شىء آخر ! ٠٠ واذ كانت العربات تمر تباعا وهى مسرعة ، أمام « الكازينو » ، فقد استدعيت احداها، وصعدنا اليها ٠٠ وعندما سألنى الحوذى عن مقصدنا ، لم أدر ــ فى البداية ــ بماذا أجيبه ٠٠ ثم خطر لى بغتة ان هذا الرجل الغارق فى البلل من رأسه الى قدميه ــ والذى كان آلى جوارى ــ لا يمكن أن يجد ترحيبا فى فندق محترم ٠٠ كذلك لم يدر بخلدى

قط ـ لقلة تجربتى ـ ان من المحتمل أن يرتاب أحد فى أمرى وأنا على ذاك الوضع مع شاب ، فاكتفيت بأن قلت للحوذى : « الى أى فندق صغير ! »

« وألهب الحوذى الغارق فى الماء ظهر جواده بقوة ٠٠ أما الأجنبى الذى كان يجلس الى جوارى ، فقد بقى صامتا ، بينما أخذت عجلات العربة تقرقع فى سيرها ، والماء يرتطم بنوافذ العربة فى عنف٠٠وخيل الى وأنا فى ذلك الحيز الضيق ، **المعتم ، اننى برفقة ميت فى تابوت ! ٠٠ وحاولت أن أفكر ٠٠ أن أوفق الى كلام أخفف به غرابة وقسوة هذه الزمالة الليلية ، ولكنى لم أهتد الى شىء !** ٠٠ وان هى الا دقائق ، حتى توقفت العربة عن المسير ، فهبطت ، ونقدت الحوذى أجره ، بينما كان الشاب قد هبط وأقفل باب العربة ، والنعاس يغالبه ٠٠ ووجدنا نفسينا أمام باب فندق لم أكن أعرفه ، وفوق رأسينا مظلة زجاجية تعلو الباب ، وتقينا المطر الذى كان يتساقط فى استرسال ممل ، فظيع ، فيشق انسياله الليل البهيم ٠٠

« واستند الشاب الى الحائط على الرغم منه ، والماء يقطر من قبعته ومن ثيابه المهدلة ، كما لو كان ينساب من ميزاب ٠٠ كان كغريق انتشل من اليم ، ولم يسترد بعد رشده تماما ! ٠٠ وأخذ الماء يتجمع حول البقعة الصغيرة التى وقف فيها ٠٠ على أنه لم يبذل أقل جهد كى يهز نفسه فيخرجها من هذا الخور ، أو ينفض عن قبعته الماء الذى كان يتقاطر باستمرار على جبهته ووجهه ، بل ظل جامدا فى وقفته٠٠اننى لأعجزعن أن أصف لك مدى تأثرى لمنظر هذا الانسان المهدم ٠٠ ولكن ، كان لابد من تصرف ينقذ الموقف ، ومن ثم وضعت يدى فى جيبى وقلت له :

ـ هاك مائة فرنك تدفع منها أجر الغرفة ثم تسافر غدا الى (نيس) ٠٠

« فتطلع الى بدهشة ، بينما استطردت قائلة ، اذ لاحظت

ترّدده : « لقـــد كنت أراقبك في قاعة اللعب ، وعرفت أنك خسرت كل ما معك ، فخشيت أن تقدم على حماقة ٠٠ ليس من العار فى شيء أن تقبل معونة ٠٠ هيا ، خذ ! »

« ولكنه دفع يدى بقوة لم أكن أتوقعها منه ، وقال : « **انك فتاة طيبة ، فلا تبعثرى نقودك ٠٠ لم يعد هناك ما يمكن عمله لى ، ولم يعد يهمنى اذا حظيت الليلة بمرقد أو لم أحظ ! ٠٠ فغدا ينتهى كل شيء !٠٠ لم يعد هنـــاك مجـــال لأمل !** » ٠٠ فهتفت فى اصرار : « لا ٠٠ يجب أن تقبل هذا المبلغ ، ولسوف يتغير رأيك غدا ٠٠ أما الآن ، فادخـــل الفندق ، وانعم بنوم هادىء ٠٠ ان الليل خير صديق تأتمنه على متاعبك ٠٠ حتى اذا أقبل النهار ، فسوف تجد الأمور على حال تناقض ما يبدو لك الآن ! »

« واذ حاولت أن أدس النقـــود فى يده مرة أخرى ، دفعنى ببعض العنف ، مرددا بصوت أجش : « **لا جدوى ! ٠٠ ليس لهذا من نفع ! ٠٠ من الخير أن أنفذ ما أنا مقدم عليه ، خارج الفندق ، حتى لا ألطخ حجرة أصحاب هذه الدار بالدم ! ٠٠ لن تنقذني مائة فرنك ، ولا ألف فرنك ٠٠ لن يكون لما يتبقى من هذه الفرنكات من أثر سوى أن تردنى مرة أخرى الى «الكازينو» غدا ، فلا أبرحه حتى أخسرها جميعا ٠٠ لماذا أبدأ من جديد ؟٠٠ لقد عانيت ما فيه الكفاية !** »

« ٠٠ ليس بوسعك أن تتصور ما أحدثه ذلك الصـــوت الأجش من أثر فى نفسى !٠٠ قدر موقفى !٠٠ تصور انسانا ، شابا ، ذكيا ، مليئا بالحياة والصحة ، يقف على بعد خطـوتين منك ، وما لم يستخدم المرء معه كل حيلة ، فان هذا الشباب المزدهر ، المفكر ، المتكلم ، المتهـــدج الانفاس ، لن يلبث أن يستحيل الى جثة هامدة ، فى خلال ساعتين !٠٠ لقد استبدت بى اذ ذاك رغبة جامحة فى أن أذلل اصراره الجنونى ، فأمسكت بذراعه قائلة : « كف عن هذا الهذيان الاخرق ! ٠٠ ســـتدخل

الفندق وتستأجر غرفة ، وسآتيك صباح غد فأصحبك الى المحطة ٠٠ اذ يجب أن تغادر هذا المكان ، وأن تعود الى بلدك غدا ٠٠ ولن يهدأ لى بال حتى أراك بنفسى وقد ابتعت تذكرة السفر ، واحتللت مكانك فى القطار ٠٠ ان الانسان لا يبدد شبابه بالانتحار لمجرد أنه خسر بضع مئات ، أو بضع آلاف من الفرنكات ٠٠ هذا جبن ٠٠ انها نزوة حمقاء من نزوات الغضب والسخط ٠٠ ولسوف تتبين بنفسك غدا أننى على حق ! »

« فقال فى لهجة أفعمت بالسخرية والمرارة الى درجة غريبة : « غدا ! ٠٠ غدا ! ٠٠ ليتك تعلمين أين سأكون غدا ! ٠٠ بل ليتنى أعلم ـ أنا نفسى ـ أين أكون غدا ! ٠٠ الواقع أننى جد مشوق الى معرفة هذا ٠٠ لا ، عودى الى دارك يا صغيرتى ، ولا تتعبى نفسك ، ولا تبددى مالك ! » ٠٠ غير أننى لم أشأ أن أتراجع ، فقد كدت أجن لفرط سخطى وحنقى ، ومن ثم أمسكت يده بعنف ، ودسست فيها الورقة المالية قسرا ، وأنا أقول : « خذ هذه ، وادخل فى الحال » ٠٠ وسرت الى الباب فى حزم ، فضغطت زر الجرس ، وأنا أقول : « ها قد ضغطت الجرس ، ولن يلبث حارس الباب أن يفد ، فتصعد لتنام ٠٠ ولسوف تجدنى فى انتظارك أمام الفندق فى الساعة التاسعة غدا ، لأصحبك فورا الى المحطة ٠٠ ولا تشغل بالك بما يعقب ذلك ، اذ سأدبر لك كل ما يمكنك من العودة الى بلدك ٠ أما الآن ، فاذهب ، ونم فى هدوء ، ولا تفكر فى أى شىء مطلقا ! »

★★★

◆ « **وانبعث** صرير المفتاح فى قفل الباب فى تلك اللحظة ، ثم ظهر الحارس ٠٠ **واذا بالشاب يقول لى فجأة ، وفى صوت حاد ، حازم ، آمر : « تعالى ! »**

« وأحسست بأصابعه الحديدية تطوق معصمى بقوة ، فجزعت ٠٠ بل بلغ من فزعى أن تيبست مفاصلى ، وكأنما مستنى

صاعقة، فلم أعد أحس بأنى فى كامل وعيى !٠٠ وأردت أن أذود عن نفسى ، وأن أتملص وأفلت ، غــير أن ارادتى تبددت ٠٠! ولعلك تفهم موقفى ٠٠ كنت ٠٠ لقــد خجلت ـ أمام حارس الباب ، الذى كان صبره قد أوشك أن ينفد ـ من أن أشتبك فى نضال مع شخص غريب ٠٠ وهكذا ٠٠ وهكذا وجدتنى فجأة فى بهو الفندق ٠٠ ووددت أن أتكلم ٠٠ أن أقول شيئا ٠٠ ولكن صوتى احتبس فى حلقى ٠٠ كانت يده تمسك بذراعى فى قوة وجبروت ٠٠ وأحسست ، وأنا فى شبه غيبوبة ، بأنه يجرنى ـ دون أن أفطن الى ما ينبغى أن أفعل ـ الى أعلى السلم ٠٠ ثم سمعت صرير مفتاح ٠٠

« وفجأة ، انتبهت الى أننى وحيدة مع ذلك الشاب الغريب ، فى حجرة غريبة ، فى فندق مجهول ، لم أعرف اسمه حتى اليوم!!



الفصل الرابع

◆ عادت مسز «س.» الى التوقف عن الحديث .. ونهضت عن مقعدها فجأة، وقد أحست بصوتها يعصاها ، فاتجهت الى النافذة ، وراحت تتطلع خلال زجاجها لبضع دقائق ، وهى صامتة .. أو لعلها لم تكن تتطلع ، وانما استراحت اذ ألصقت جبهتها بزجاج النافذة البارد ! .. الواقع أننى لم أجرؤ على أن أتثبت من هذا تماما ، اذ آلمنى أن أرقب السيدة العجوز وهى فريسة لانفعالاتها .. ولبثت فى مكانى صامتا ، لا أسأل ، ولا أحدث صوتا .. ومكثت أنتظر حتى عادت فى خطى هادئة ، وجلست أمامى ، قائلة :

« حسنا .. لقد فرغت من سرد أفظع ما فى القصة .. وأرجو أن تصدقنى اذا أكدت لك مرة أخرى ، وأقسمت بكل مقدس عندى - بشرفى وبحياة أولادى - أنه لم يكن قد خطر ببالى مطلقا ، حتى تلك اللحظة ، أى خاطر عن احتمال وقوع أية علاقة بدنية بينى وبين هذا الشاب الغريب ، وانما كنت - بحق - مسلوبة الارادة .. لقد انزلقت فجأة من حياتى المستقيمة الى هذا الموقف - دون ماوعى - كمن تعثرت فى شرك ! .. لقد أقسمت لك بأن ألتزم الصدق ازاءك وازاء نفسى .. ومع تمسكى بقسمى أؤكد لك للمرة الثانية أننى لم أكن مدفوعة بشىء - على الاطلاق - سوى الرغبة الجامحة فى أن أسدى عونا ، فلم يداخلنى أى شعور شخصى .. وأكرر لك مرة أخرى انى تورطت فى هذه المغامرة المخزية دون ما رغبة أو توقع !

« وأرجو أن تعفينى من أن أروى لك ما حدث فى تلك الغرفة .. أبدا لم أنس ، ولن أنسى دقيقة واحدة من دقائق تلك الليلة .. كنت فى صراع مع

انسان ، لكى أنقذ حياته !٠٠أجل ، وأكرر القول بأن الأمر ـ فى ذلك الصراع ـ كان متعلقا بحياة رجل أو موته ٠٠ كانت كل جارحة فى كيانى تشعر باحساس جازم ، لا يشوبه أدنى شك ، بأن ذلك الرجل ٠٠ ذلك الغريب ـ الذى كان اذ ذاك يقف واحدى قدميه فى العدم ـ كان أشبه بالغريق الذى يتشبث بآخر قشة ، فى لهفة الانسان وانفعاله حين يحس بقبضة الموت !٠٠ كان يتعلق بى فى تشبث المرء الذى يرى الهاوية تحت قدميه ٠٠ أما أنا ، فقد استجمعت كل قواى ، بل كل ما فى كيانى من طاقة ، لكى أنقذه !

« ان المرء لا يعيش ساعة كهذه الا مرة واحدة فى حياته ٠٠ وليس كل امرىء يعيشها ، ولكن واحدا من ملايين الناس هو الذى يقع له هذا ! ٠٠ وما كنت لأعرف، قبل هذا الحادث الفظيع ـ ولو على سبيل الحدس ـ مدى تلك القوة المستميتة، ولا ذلك السعار الجامح ، اللذين يستعين بهما رجل تخلت عنه الدنيا ٠٠ رجل ضائع ، كى يتشبث بأضأل قطرة حمراء من دم الحياة ، للمرة الأخيرة !٠٠ ولما كنت قد قضيت عشرين عاما بمنأى عن كل ما فى هذا الوجود من قوى الشر ، فقد شق على اذ ذاك أن أتبين الروعة العجيبة ، الخارقة ، التى تحشد الطبيعة بها ـ أحيانا ـ فى بضعة أنفاس لاهثة ، كل ما تملك من حرارة وبرودة ، ومن حياة وموت ، ومن هناءة وشقاء !

« كانت تلك الليلة مفعمة بالصراع ، والكلام ، والشهوة ، والغضب ، والحقد ، والدموع ، والضراعة ، والنشوة ، حتى خيل الى أن هذه الليلة الواحدة دامت ألف عام !٠٠ فهذان الآدميان ـ هو وأنا ـ اللذان ترديا ، وانحدرا معا الى قرار الهاوية ، يحمل أحدهما فى أعماقه ثورة الموت ، بينما تجرد الآخر من كل احساس ٠٠ هذان الآدميان اللذان خرجا من هذا الصراع وقد تغيرت معالم كل منهما تغيرا تاما ٠٠ خرج كل منهما مختلفا ، متباينا كل التباين عما كان ٠٠ خرج بروح جديدة ، ومشاعر جديدة !

« على اننى لن أتحدث عن تلك الليلة ، فلست أبغى ـ ولا أنا راغبة ـ فى أن أكشف عما جرى فيها ، ولو انه لابد من أن أذكر شيئا عن تلك الدقيقة الفذة التى استيقظت فيها ، فى صبيحة اليوم التالى ٠٠ فلقد صحوت من نوم عميق ثقيل ٠٠ من ظلمة حالكة لم يكن لى بها عهد من قبل ، مطلقا ٠٠ واستغرقت وقتا طويلا حتى استطعت أن أفتح عينى ، فاذا أول ما أرى سقف غرفة مجهولة يعلونى ٠٠ ثم تبينت ـ بعد مزيد من التأمل ـ أننى كنت فى مكان غريب ، مجهول منى ٠٠ مكان كئيب ، لم أدر أى ذنب رمانى فيه ٠٠ وجاهدت ـ فى البداية ـ كى أقنع نفسى بأننى فى حلم ٠٠ حلم جلى ، واضح ، ساقنى اليه ذلك النوم الثقيل ، الملىء بالرؤى المضطربة ٠٠ ولكن ضوء الصباح كان يتجلى خلال النوافذ ، وجلبة الطريق تتناهى الى سمعى : قرقعة العربات ، وأجراس

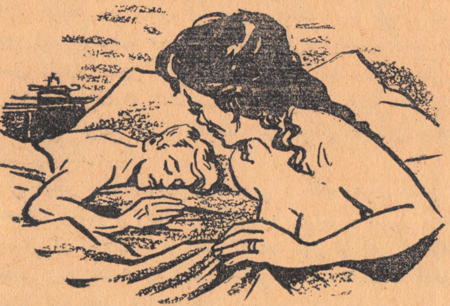
قاطرات الترام ، وأصوات الناس ٠٠ فادركت اننى لم أكن حالمة ، بل مستيقظة ٠٠ ورحت أناضل كى أستعيد شتات ذهنى ٠٠ وفيما كنت التفت جانبا ، رأيت – ولن أستطيع أن أصف لك الذعر الذى غشينى اذ ذاك – رأيت رجلا مجهولا ، ينام الى جوارى فى السرير الواسع ٠٠ كان غريبا ٠٠ غريبا ٠٠ غريبا تماما !٠٠ رجلا شبه عار ، لا أعرفه !

« لا ٠٠ اننى واثقة من أن لا سبيل الى وصف ذلك الذعر الذى استولى على فى عنف ، حتى جعلنى أتهالك فى الفراش مرة أخرى ، جامدة الحراك ٠٠ على أننى لم أصب باغماء حقيقى أفقدنى الرشد ، وانما – على النقيض – رأيت كل شىء ينجلى لادراكى بسرعة البرق ٠٠ تبينته ، ولكنى لم أدرك له كنها ٠٠ فاذا بى أتمنى الموت لفرط اشمئزازى واستحيائى من أن أجد نفسى بغتة ، وفى هذا الوضع ، مع مخلوق غريب عنى تماما ، وفى فراش غريب ، فى فندق وضيع ، وغرفة تثير الشبهات ! ٠٠ وما زلت الى اليوم أذكر أن قلبى كف عن الوجيب ، وأن أنفاسى احتبست ، وكأنما كنت أبغى بذلك أن أضع نهاية لحياتى ، ولوعيى بوجه خاص ٠٠ ذلك الوعى الذى انجلى بدرجة هائلة ، فأدرك كل شىء ٠٠ ولكنه مع ذلك لم يفقه لشىء معنى !

« ولست أدرى كم من الوقت قضيته فى هذا الوضع ، وقد تيبست أطرافى جميعا ، كما تتيبس أجساد الموتى فى أكفانها ٠٠ فأغمضت عينى ، وتضرعت الى كل ما فى السماء من قوى – أيا كانت – أن لا يكون كل هذا حقيقة ٠٠ ولكن حواسى المرهفة لم تدع لى مجالا للارتياب ٠٠ اذ كنت أسمع فى الحجرة المجاورة أشخاصا يتكلمون ، وماء يجرى ، وخطوات فى الردهة ٠٠ كلها علامات تؤكد يقظة حواسى ٠٠ وصحة ما وعته ٠٠ يا للقسوة !

« قلت انه ليس فى وسعى أن أحدد مدى الوقت الذى استغرقه هذا الموقف الفظيع ٠٠ فان الزمن – فى موقف كهذا – لا يقاس بثوانى الحياة العادية ٠٠ ولكن ٠٠ ما لبث أن استحوذ على خوف من نوع آخر ٠٠ الخوف الجبار ، البشع ، من أن يستيقظ ذلك الغريب – الذى لم أكن أعرف اسمه – فيخاطبنى ! ٠٠ وأدركت لفورى أن ليس أمامى سوى مخرج واحد ٠٠ ذلك هو أن أرتدى ثيابى وأفر قبل أن يستيقظ ذلك الغريب ، حتى لا يرانى ولا أتحدث اليه !٠٠ كان لابد من أن أنجو بنفسى فى الوقت المناسب ، وأن أنصرف ٠٠ أن أنصرف لأسترجع حياتى الأصلية – بأية طريقة – ولأعود الى الفندق الذى أقيم فيه ، ثم أبارح – فى الحال ، وفى أول قطار – هذه البقعة اللعينة ٠٠ أن أهجر هذه البلدة كى لا ألتقى بعد ذلك مطلقا بذلك الرجل ، فلا أرى عينيه ، ولا أرى فيه شاهدا ، وشريكا ، وقاضيا يديننى !

« وتغلبت هذه الفكرة على الجمود الشارد الذى اعترانى ، فتسللت من الفراش - فى حذر وبحركات اللص الحريص - وتناولت ملابسى بأطراف أناملى ، وأنا أتحرك فى احتراس تام حتى لا أحدث صوتا ٠٠ وارتديت ثيابى فى حذر بالغ ، وأنا أخشى أن يستيقظ بين لحظة وأخرى ٠ وما لبثت أن أصبحت على أهبة الخروج وتحقيق غايتى ٠٠ لم تبق سوى قبعتى التى كانت فى الجانب الآخر من الفراش ٠٠ وسرت على أطراف أصابع قدمى ، أسعى اليها ٠٠ وفى تلك اللحظة ، لم أتمالك من أن ألقى نظرة على وجه ذلك الرجل الذى هوى فى حياتى كحجر انفصل بغتة عن حافة بناء ٠٠ ولم أكن أبغى أن ألقى عليه سوى نظرة واحدة ، ولكن ٠٠ حدث اذ ذاك أمر عجيب ٠٠ تبينت أن الشاب الغريب النائم ، كان غريبا حقا بالنسبة لى ٠٠ فلم أتعرف فى معالمه لأول وهلة على ذلك الوجه الذى رأيته



بالأمس ، اذ تلاشت تلك الاسارير المتوترة ، المتشنجة التى كان الانفعال يمسخها ٠٠ واذا أمامى وجه آخر ٠٠ وجه صغير ٠٠ وجه صبى يتألق - والحق يقال - بالطهر والسذاجة ٠٠ وبدت الشفتان ، اللتان كانتا بالأمس متقلصتين بين النواجذ ، وقد انفرجتا عن ابتسامة حالمة ، عذبة ٠٠ وتهدلت على جبينه خصلات ناعمة من شعره الاشقر ، بينما تتابعت أنفاسه فى هدوء - وقد سرت الراحة فى جسده - فكأنها موجات وضاءة تنبعث من صدره ٠٠

« ولعلك تذكر ما سبق أن قلته من أننى لم أر أبدا فى حياتى علامات الجشع الضارى ، والانفعال العارم ، تتجلى بمثل تلك القوة وذلك العنف اللذين تجلت بهما على وجه ذلك الشاب الغريب ، حين كان جالسا الى مائدة الميسر ٠٠ أما الآن فأقول لك اننى لم أر قط على وجه ما - ولا وجوه الاطفال الرضع ، التى تحف بها هالات من الرقة الملائكية - مثل ذلك التعبير الذى نم عن طهر صاف ، وعن نعاس هادىء ٠٠ كانت كافة المشاعر ترتسم على ذلك الوجه فى روعة لا نظير لها ،

كما لو كان يحظى براحة فردوسية ٠٠ بتحرر من جميع الهموم النفسية ٠٠ بخلاص وتخفف من المتاعب وأسباب الشقاء !

« وما أن تراءى لى فى هذا المظهر الرائع ، حتى انجابت عنى كل رهبة ، وانزاح كل قلق ، كما ينزاح المعطف الاسود الثقيل عن المنكبين ٠٠ ولم أعد أشعر باستحياء ٠٠ بل اننى - على العكس - أحسست بالسعادة ! ٠٠ وفجأة ، بدأت أدرك مغزى هذا الحادث المروع ، غير المفهوم بالنسبة لى ٠٠ وشعرت بالزهو والغبطة حين تصورت أنه لولا رعايتى ، لكان هذا الشاب اللطيف الجميل - النائم فى وداعة الازهار - ملقى الى جوار صخرة ، محطما ، غارقا فى الدماء ، وقد تهشم وجهه ، وجحظت عيناه ، وفارقته الحياة ! ٠٠ لقد أنقذته ! ٠٠ لقد نجا ! ٠٠ وبعين الأم - ولست أجد تعبيرا آخر - أخذت أتأمل ذلك المراهق النائم ، الذى رددت اليه حياته ، وعانيت فى سبيل ذلك آلاما تفوق تلك التى عانيتها وأنا اضع ولدى عند مولدهما ٠٠ وفى تلك الغرفة القذرة ذات الاثاث القديم ، وفى ذاك الفندق الزرى الذى تباح فيه الخلوات الدنسة ، شعرت فجأة بنفس الشعور الذى يداخلنى وأنا فى الكنيسة ٠٠ وهو أمر خليق بأن يثير سخريتك ، ولكننى أحسست فى الواقع بتلك الغبطة التى يبعثها اكتمال معجزة خارقة ٠٠ أحسست بالطهر والقداسة !!

« وتولدت من أفظع لحظة عشتها فى حياتى ، لحظة أخرى صنو لها ٠٠ لحظة هى أعجب اللحظات وأشدها وقعا على نفسى ٠٠ ولست أدرى ، هل بدرت منى ضجة ما كان ينبغى أن أحدثها ، أو أننى تكلمت دون أن اعى أو أفطن ٠٠ اذ فتح النائم عينيه فجأة ، فجزعت ، وتراجعت مأخوذة ٠٠ أما هو ، فأخذ يتلفت حوله فى دهشة ، تماما كما فعلت أنا من قبل ، ولاح كمن يخرج بعناء من هوة عميقة هائلة ٠٠ وجاس ببصره فى الغرفة الغريبة - فى جهد غير بسيط - ثم استقرت نظراته على فى دهشة بالغة ٠٠ وقبل أن يتمكن من الكلام أو من استجماع شتات ذهنه ، كنت قد استعدت رباطة جأشى ٠٠ وما كان ينبغى أن أدع له فرصة لينطق بكلمة واحـــدة ، أو ليوجه أى ســؤال ، أو يبدى أية ألفة ٠٠ اذ يجب ان لا يستعاد شىء من أحداث الأمس ، أو يذكر شىء عن تلك الليلة ٠٠ لا ايضاح ، ولا مناقشة !

وقلت له : « يجب أن أنصرف ٠٠ أما أنت ، فلتبق هنا ٠٠ ارتد ثيابك ، وسأنتظرك عند الظهر أمام « الكازينو » ، حيث أدبر لك كل شىء ٠٠ »

« وقبل أن ينبس بكلمة واحدة ، كنت قد لذت بالفرار ، حتى لا أرى تلك الغرفة لحظة اخرى ، واندفعت الى الخارج - غير ملتفتة يمنة ولا يسرة - مغادرة ذلك النزل الذى لم أعرف اسمه ، ولا اسم الغريب الذى قضيت معه ليلة بين جدرانه !



الفصل الخامس

● **أمسكت** مدام « س٠ » عن متابعة قصتها هنيهة ، ريثما تسترد أنفاسها ٠ فلما عادت الى الحديث ، لم يكن ثمة أثر للألم أو الانفعال فى صوتها ٠٠ كانت كالعربة التى تصعد منحدرا ، فتبذل فى صعودها جهدا مضنيا ٠٠ ولكن ما أن تصل الى القمة حتى تأخذ فى هبوط الجانب الآخر من المنحدر ، وعجلاتها تدور مندفعة فى سهولة وسرعة ٠٠ الآن أصبح لها جناحان تحلق بهما فى آفاق قصتها ، ومن ثم استأنفت الرواية متخففة مما كانت تعانى من انفعال :

« هكذا عدوت الى فندقى ، مجتازة الشوارع التى غمرها نور الصباح بعد أن طردت العاصفة جميع الغيوم التى كانت متجمعة فى السماء ، كما انقشعت جميع بواعث الألم عن نفسى ٠٠ ولا تنس ما سبق أن قصصته عليك من أننى ــ منذ وفاة زوجى ــ أصبحت زاهدة فى الحيــاة كل الزهد ٠٠ فان ولدى لم يكونا بحاجة الى ، ولم يكن هناك ثمة ما يعنينى أو يثير اهتمامى ٠٠ وكل حياة لا ترمى الى هدف معين تصبح لغوا باطلا ! ٠٠ ومن ثم فقد وجدت نفسي ــ للمرة الاولى ، وعلى غير استعداد ــ منوطة

برسالة : لقد أنقذت رجلا وانتزعته من براثن الفناء ، باذلة فى سبيل ذلك كل قواى ٠٠ ولم يبق الا أن أتغلب على صعوبة هينة باقية ، كى تكتمل رسالتى ٠٠

« وحين بلغت فندقى ، حملق حارس الباب فى مشدوها ، وهو يرانى أعود الى الفندق فى الساعة التاسعة صباحا ٠٠ ولكن نظراته لم تثر فى نفسى حرجا ، اذ لم تكن قد تبقت فى أعماقى رواسب من الخزى والأسى اللذين خالجانى فى البداية ، وانما شعرت ببعث مفاجىء يحبب الى الحياة ٠٠ أحسست لوجودى بفائدة، فبعث هذا الاحساس الجديد الدم حارا متدفقا فى عروقى !

٠٠ وما أن بلغت غرفتى ، حتى بادرت الى تغيير ثوب الحداد ـ دون ما تعمد ـ واستبدلت به ثوبا أزهى ٠٠ وسعيت مسرعة الى المحطة لأستفسر عن مواعيد سفر القطارات ٠٠ فعلت ذلك فى حزم أدهشنى من نفسى ، ثم عمدت الى انجاز بعض الاعمال ، والى الوفاء ببعض مواعيد ، ولم يتبق لى سوى أن أستوثق من أن ذلك الرجل الذى ألقى به القدر الى ، قد نجا نهائيا من الخطر المحدق به وعاد الى بلاده !

« وكنت ـ والحق يقال ـ بحاجة الى شجاعة كى أستطيع الاقتراب منه ٠٠ فان كل ما وقع فى الليلة السابقة ، تم فى الظلام ٠٠ كنا كحجرين ألقى بهما فى دوامة ، فاصطدما معا أثناء سقوطهما !٠٠ لم يكن أحد منا ليعرف وجه الآخر تقريبا ٠٠ بل اننى لم أكن واثقة من أن ذلك الاجنبى سيتمكن من معرفتى، فان ما حدث أمس كان محض مصادفة ٠٠ نشوة عابرة ٠٠ نزوة شيطانية استبدت بمخلوقين مشردين ٠ أما اليوم ، فقد كنت مضطرة لأن أظهر أمامه فى مظهر أوضح ، اذ كنت مكرهة على الدنو منه ، ومن ثم فسوف يرى وجهى ـ كآدمية ـ فى ضوء النهار الذى لا يشفق ولا يستر !

* * *

« على أن الامر تم بسهولة تفوق ما كنت أظن ، فما أن

دنوت من « الكازينو » فى الساعة المتفق عليها ، حتى رأيت شابا ينهض عن مقعد ، ويعدو نحوى ٠٠ وكان الشعور الذى اعتراه اذ فوجىء برؤيتى ، والحركات التى صدرت عنه عفوا ، تصطبغ بصبغة صبيانية ، ساذجة ، سعيدة ، معبرة ! ٠٠ وأقبل نحوى وكأنه يوشك أن يطير ، وفى عينيه وميض ينم عن اغتباط ، وعرفان بالجميل ، واحترام ٠٠ فى آن واحد ! ٠٠ وما أن تطلع الى فرأى فى عينى ذلك الاضطراب الذى اعترانى اذ واجهته ، حتى أطرق الى الارض فى وداعة ٠٠ آه !٠٠ عرفان الصنيع !٠٠ ما أندر ما نراه فى الرجال !٠٠ ان أكثر الناس تقديرا للجميل لا يوفقون الى التعبير عنه كما ينبغى ٠٠ فهم يصمتون ، ويرتج عليهم القول ، ويحسون بالخجل ، ويتولاهم رد فعل ينتج عنه ذلك الارتباك الذى يدفعهم الى اخفـاء حقيقة مشاعرهم ٠٠ أما هنا ، ولدى هذا المخلوق الذى أضفى عليه الله ـ المثال الاعظم ـ جميع الحركات التى تعبر عن مشـاعره أدق وأجمـل وأرشق تعبير ، فان عرفانه بالصنيع كان ينبعث دافقا ، وضاء ، من كل ذرة فى كيانه !

« **ومال على يدى ، وانحنى خاشعا برأسه الصغير الذى يشبه رأس طفل ، وأخذ يلثم أصابع يدى ويلمسهابشفتيه لمسا رقيقا، لدقيقة كاملة** ٠٠ ثم تراجع وسألنى عن صحتى وهو ينظر الى فى حنان ، وقد تجلى الادب فى كل كلمة من كلماته ، فلم تنقض بضع دقائق حتى زال عنى كل احساس بالقلق أو الخوف ! ٠٠ وكأنما انعكست حالتى المعنوية المبتهجة على الطبيعة المحيطـة بنا ، فخلعت عليهـا اشراقا ، وسناء ، وهدوءا ٠٠ فاذا البحر ـ الذى كان فى الليلة الماضية ثائرا ـ قد غدا وادعا ، ساكنا ، صافيا ، حتى لقد كان بوسعنا أن نرى من مكاننا كل حجر تحت المياه الضحلة عند الشاطىء ٠٠ أما « الكازينو » ـ تلك البؤرة الجهنمية ـ فقد علا شاهقا نحو السماء الصـافية الزرقاء ٠٠ واستحال « الكشك » ـ الذى احتمينا بمظلته من المطر المتدفق ،

وكل منا ملتصق بالآخر - الى متجر زاخر بكميات كبيرة من الازهار البيضاء ، والحمراء ، وذات الالوان المتعددة .. تناثرت هنا وهناك دون ما ترتيب .. كما كان يضم طاقات كبيرة من الورد والاغصان الخضراء ، وقد تولت البيع فتاة صغيرة فى مرولة زاهية اللون ..

« ودعوت الشاب الغريب الى الغداء فى مطعم صغير .. وهناك، روى لى قصة مغامرته المفجعة ، فكانت بمثابة تأكيد لما ساورنى نحوه حين رأيته يجلس الى المائدة الخضراء ، ويداه ترتعشان وتضطربان فى انفعال قوى ..

« كان ينتمى الى أسرة عريقة المحتد ، فى بولندا النمسوية ، ويتأهب للانخراط فى السلك السياسى بعد أن أنهى دراسته فى (فيينا) بتفوق منقطع النظير ، اذ كان الاول فى امتحاناته التى اجتازها فى الشهر الماضى .. وكان يقيم عند عم له كان ضابطا من ضباط القيادة .. وقد رأى عمه أن يحتفل بنجاحه فاصطحبه فى عربة الى حديقة الملاهى ، وساحة سباق الخيل . وحالف الحظ عمه فى المراهنة على الجياد ، فكسب ثلاث مرات متوالية .. وتسلم الاثنان حزمة كبيرة من أوراق النقد التى ربحها العم ، ثم تناولا عشاءهما فى مطعم فخم ..

« وأرسل اليه أبوه - فى اليوم التالى - مكافأة جزاء نجاحه .. مبلغا من المال يوازى مرتب شهر للدبلوماسى المرتقب ! .. وكان هذا المبلغ يبدو له - منذ يومين فقط - ثروة ضخمة .. أما بعد السهولة التى رآها فى الربح عن طريق المقامرة ، فقد بدا المبلغ تافها ، ضئيلا .. لذلك لم يكد يفرغ من الغداء - فى اليوم التالى - حتى توجه الى ميدان السباق ، واندفع يراهن فى تهور .. وشاء له حسن الحظ - أو لعله سوء الحظ - أن يغادر ساحة السباق بعد الشوط الأخير ، وقد ربح ثلاثة أضعاف ما كان معه !

« ومنذ ذلك اليوم استبد به سعار المقامرة ، تارة في سباق

الخيل ، وأخرى فى المقاهى ، وأحيانا فى المنتديات ٠٠ واستولى على وقته ، ودراساته ، وأعصابه ، وموارده ٠٠ ففدا عاجزا عن التفكير المطمئن والنوم الهادىء ٠٠ كما أصبح أكثر عجزا عن كبح جماح نفسه ٠٠ حتى لقد حدث ان عاد ذات ليلة الى بيته بعد أن فقد كل ما كان يملك ، فى أحد المنتديات ٠٠وفيما كان يخلع ثيابه ، عثر على ورقة مالية مجعدة ، منسية فى أحد جيـوب صديريه ، فلم يقو على مقـاومة نزوته ، ومن ثم عاد يرتدى ثيابه من جديد ، وانطلق يجوس خلال الشوارع ، ذات اليمين وذات اليسار ، حتى عثر فى أحد المقاهى على لاعب عابر من لاعبى « الدومينو » ، ظل يلاعبه حتى مطلع الفجر !!

* * *

◆ « **وتطوعت** أخته ــ التى كانت متزوجة ــ بمساعدته يوما ، فدفعت عنه الديون التى تراكمت عليه للمرابين الذين كانوا قد تهافتوا على اقراضه ، اطمئنانا الى انه وارث اسم كبير ! ٠٠ وحالفه الحظ ردحا من الزمن ، ولكن النحس لم يلبث ان لازمه باستمرار ٠٠ وكان كلما ازدادت خسائره وعجز عن سدادها ، تورط فى تعهدات لا سبيل له الى الوفاء بها ، ووعود لا حيلة له فى البر بها ، فلم يزده هذا الا جريا وراء كسب كبير ينقذ به الموقف ٠٠ وكان قد رهن ساعته وملابسه منذ وقت طويل، فانتهى به الأمر الى الاقدام على عمل منكر ، اذ سرق من زوجة عمه زرين كبيرين مرصعين بالأحجار الكريمة ، كانت تحتفظ بهما فى خزانتها ، ولا تستخدمهما فى زينتها الا نادرا ٠٠ورهن أحدهما لقاء مبلغ ضخم لعب به ، فربح أربعة أمثاله فى نفس الليلة ٠٠ وبدلا من ان ينسحب من اللعب قانعا ، أقدم على المجازفة بكل ما ربح ٠٠ فخسر !

« ولم تكن السرقة قد اكتشفت بعد ، حين اعتزم الرحيل ، فرهن الزر الثانى ، ويمم لتوه شطر (مونت كارلو) ، أملا

فى أن يربح فى « الروليت » الثروة التى كان يحلم بهـا ! ولكن الامر انتهى به ـ هناك ، وفى نفس يوم وصوله ـ الى أن يبيع حقيبة ثيابه ، وثيابه ٠٠ وأخيرا مظلته ! ٠٠ **ولم يبق معه الا مسدسه الذى كان يحتوى على أربع رصاصات ، وصليب صغير مرصع بالأحجار الكريمة، كان هدية قدمتها له ـ عند تعميده ـ « اشبينته » ، وهى أميرة (٠٠٠) ٠ وكان يحرص على هذا الصليب ، لكنه ما لبث ان باعه بعد الظهر بخمسين فرنكا ، لا لغرض سوى ان يحاول ـ فى الليلة ذاتها ـ أن يتذوق للمرة الاخيرة تلك اللذة الجامحة التى يستشعرها وهو يقامر ٠٠وكان فى هذه المرة يقامر على حياة ٠٠ أو موت !**

« روى لى الشاب هذا وقد تركزت فى كيانه فتنة أخاذة كانت تبعث حيوية فى الكائنات !٠٠ وكنت أصغى اليه متأثرة، مضطربة ، مأخوذة بقصته المثيرة ٠ الا أنه لم يدر بخلدى لحظة واحدة ان وجودى على مائدة واحدة مع رجل ـ كان فى الواقع لصا رغم جميع الاعتبارات ـ يعتبر أمرا مخجلا ٠٠ ولو ان انسانا ذكر لى فى اليوم السابق ـ ولو عرضا ـ أننى ، وأنا السـيدة التى لا غبار على ماضـيها ، والتى تتلقى من المجتمع احتراما تقليديا كاملا ، قد أجلس يوما فى غير كلفة الى جوار شاب غريب عنى تماما ، يكاد يعادل ابنى فى العمر ، فضلا عن انه سرق أحجارا كريمة ٠٠ أقول ٠٠ لو حدث ان ذكر لى أحد ان هذا قد يصادفنى ، لاعتبرته مخبولا يهذى !

« ومع ذلك ، فلم أشعر نحو الشاب ـ ولو للحظة واحدة ـ بنفور أو استنكار ، وهو يروى لى قصته ٠ فقد كان يسردها ببساطة وتدفق ، حتى ليخيل لسامعه أن الفعلة التى ارتكبها انما جاءت نتيجة اصابته بالحمى أكثر مما هى جريمة فاضحة ٠٠ ثم ان شخصا مثلى ، واجه فى الليـلة السابقة أحداثا غير متوقعة تدفقت عليه كالشلال ، كانت كلمة « مستحيل » قد فقدت فى نظره ـ فجأة ـ معناها ٠٠ وقد كان ما اكتسبته خلال

الساعات العشرين الأخيرة من اختبارات ، فى صميم حقائق الحيـاة ، يفوق كثيرا كل ما اكتسبت فى الأربعـين عاما التى قضيتها فى حياة متحفظة !

« على ان شيئا ما فى اعترافاته أخافنى ٠٠ شيئا تمثل فى هذا البريق المحمـوم الذى كان ينبعث من عينيه ، فتنتفض له جميع عضلات وجهه ، كأن بها مسا كهربائيا ! ٠٠ وكان مجرد السرد كافيا لاستثارته ـ كلما تحدث عن تعلقه باللعب ـ فاذا ملامح وجهه تفصح، فى وضوح فظيع ، عن الفرح والألم اللذين كانا يتعاقبان فى اطواء نفسه ٠٠ وكانت يداه ـ اليدان البديعتان ، العصبيتان ، الرشيقتا الحركة ـ تتحولان خلال ذلك، وعلى الرغم منه ، الى مخلوقين وحشيين ، مجنونين ، جامحين ٠٠ تماما كما كانتا تبدوان على مائدة اللعب ٠ وكنت أرقبهمـا ـ خلال انهماكه فى رواية القصة ـ وهما ترتجفان فجأة ، وتلتويان ، وتتقلصان فى انقباض يعقبه انبساط ، ثم تنقض الواحـدة منهما على الاخـرى من جديد ٠٠ **وفى اللحظة التى اعترف فيها بسرقة الزرين ، أخـذت يداه تتحركان بشـكل جعلنى انتفض جزعا ، اذ راحتا تقلدان فى حركات وثابة ، سريعة، حركات اللصوص ، حتى لقد رأيت أمامى كيف اندفعت أصابعه فى جشع جنونى نحو الحليـة ـ الزر ـ وواراتهـا بقـوة فى قبضة اليد ! ٠٠ وعرفت ـ وقد استحوذ على فزع غامض ـ ان انفعالات ذلك الرجل كانت تسرى فى كل قطرة من دمه مسرى السم الزعاف ٠ وكان أشد ما استثارنى وأفزعنى ـ فى قصته ـ هو أن تكون لدى هذا الشاب الصافى النفس ، المرح، مثل هذه النزعة الجنونية !**

« وشعرت بأن أول واجب على، هو أن أقنع ـ فى ود وصداقة ـ ذلك الشاب الذى ألقته المصادفات فى حمايتى ، بأن يغادر (مونت كارلو) فى الحال ، لما فيها من اغراء شديد الخطورة ٠٠ كان لا بد من ان يسافر ـ فى نفس اليوم ـ عائدا الى أسرته ،

قبل ان تكتشف سرقة الزرين ويتهدم مستقبله الى الأبد ٠ ووعدته بأن أمده بالمال اللازم لرحلته ، ولتخليص الحليتين من الرهن ، على شريطة ان يغادر المدينة فى اليوم ذاته ، وان يقسم بشرفه أن لا يمس بعد اليوم ورقة من أوراق اللعب ، ولا ان يشترك بعد اليوم فى لعبة من ألعاب الميسر !

★ ★ ★

• « **ولن** أنسى – ما حييت – اعترافه بجميلى ٠٠ هذا الاعتراف الذى بدأ هادئا ، ثم أخذ يذكو شيئا فشيئا ، فى نفس ذلك الرجل المضيع ٠٠ لن أنسى قط الطريقة التى كان يتلقف بها كلامى وأنا أعده بالمساعدة ٠٠ **فقد مد يديه فجأة الى المائدة ليمسك بيدى ، فى حركة ستبقى دوما محفورة فى نفسى ٠٠ حركة تنم عن عبادة وتقديس لشخصى !٠٠ وترقرقت**



الدموع فى عينيه الصافيتين اللتين كانتا – حتى ذاك الوقت – شاردتين ٠٠ واستولت على جسده رعدة عصبية من الانفعال والسعادة ٠٠

« ولقد حاولت عدة مرات أن أصف لك التعبير المنقطع النظير الذى تجلى على وجهه وتصرفاته ٠٠ ولكن ليس فى مقدورى أن أرسم لك صورة حقيقية لتلك الحركة التى صدرت منه ، والتى

كانت تنم عن سعادة مومضة في بريق يخطف البصر ٠٠ سعادة لا يرى الانسان لها مثيلا ٠٠ سعادة لا تقارن الا بذلك الطيف الأبيض الذى يخيل للحالم انه لمحه فى نهاية حلم رأى نفسه فيه أمام وجه ملاك يتوارى ٠٠ ولكن ، لماذا أخفى الحقيقة ؟ ٠٠ اننى لم أستطع مقاومة ما فى ذلك المنظر من روعة ٠٠ ان العرفان بالجميل يبعث على السعادة ، فهو تعبير يندر رؤيته متجسما ! ٠٠ والرقة تملأ النفس اشراقا ٠٠ وقد كان مثل هذا الشعور ـ بالنسبة لى ، أنا الرزينة ، الرصينة ـ شيئا جديدا ، عذبا ، يبعث فى النفس راحة ٠٠ وتراءت لى الطبيعة ـ بعد مطر أمس الدافق ـ وكأن يدا سحرية قد فتحت أكمامها ، كما تفتحت لى نفس ذاك الشاب الذى كان فى اليوم السابق مرتجفا ، مهدما !

« وحين غادرنا المطعم ، كان البحر الهادىء يتألق فى روعة ، وقد صبغته زرقة اتصلت عند أطرافه الشاسعة بزرقة السماء ، لا يشوبها سوى نقط سوداء تمثل الطيور المحلقة فى عنان السماء ٠٠ ولعلك تعرف روعة مناظر الطبيعة فى (الريفيرا) ٠٠ انها دائما تملأ النفس شعورا بالجمـــال ، ولكنه شعور غير مستساغ ٠٠ انها كالبطاقة المصورة ، تبدو ألوانها الثقيـلة للعين ، دائما ، فى ميوعة الحسناء التى يغالبها النعاس ٠٠ فهى تستلقى خاملة ، تجتذب الأنظار دون ما قصد منها ، ويسودها ـ فى وحدتها المدللة ـ طابع شرقى مثير !

« على ان الحرارة قد تدب فى هذا الجمال ـ فى أحوال نادرة ـ فتكشف بجلاء وقوة عن ألوانه الزاهية ، الأخاذة ، البراقة ، فلا تشعر الا وهو يسكب فى أحاسيسك بهاءه المنمق !

* * *

« وكان ذلك اليوم من الأيام المفعمة بالأحاسيس المرهفة ، كما يحدث عادة عقب القلق الطاغى الذى يستولى على المرء فى ليلة عاصفة ! ٠٠ وكان الشارع الذى غسلته مياه الأمطار يلمع

فى بهاء ، وقد اصطبغت السماء بأرجوانية الشفق ٠٠ وحيثما قلبت الطرف فى الطبيعة الخضراء ، المنداة بالمطر ، رأيت طاقات من الورد الزاهى ذى الألوان المشرقة ٠٠ وتبدت الجبال أكثر وضوحا ، وقد زادها الجو الصافى السابح فى أشعة الشمس اقترابا ، فكأنها تجمعت وتقدمت قدر المستطاع من المدينة البهيجة ٠٠ كانت الطبيعة تفرض عليك ، مع كل نظرة ، مزيدا من اغرائها المثير ، فتستحوذ على قلبك ، رغما عنك !

« وقلت للشاب : « لنستقل عربة تنطلق بنا فى نزهة على الكورنيش ! »

« فأومأ الشاب برأسه ،وقد بدا أن جمال الطبيعة استغرقه ٠٠ فما كان قد رأى ـ منذ وصوله ـ سوى قاعة اللعب فى « الكازينو » ٠٠ تلك القاعة ذات الجو الثقيل ، المشحون ، الذى تخالطه رائحة العرق ، والتى تشيع فيها ضوضاء أولئك الآدميين ذوى الوجوه العابسة ، المكفهرة ٠٠ لم يكن قد رأى منذ وصوله سوى تلك القاعة ، وذلك البحر القاتم ، العكر ، الثائر ، الذى تراءى له بالأمس ٠٠ أما الآن ، فقد كان يترامى أمامنا الشاطىء الطويل المنبسط ، الغارق فى أشعة الشمس٠٠ وكانت العين تنتقل من أفق الى أفق ، فى ابتهاج وغبطة ٠٠

« وانطلقت بنا العربة البطيئة ـ اذ لم تكن السيارات قد ظهرت بعد ـ فى الطريق البديع ، مارة بعدد كبير من (الفيلات)، وبجماعات زاخرة من الناس ٠٠ وكلما مررنا ببيت ـ أو (فيلا) مستلقية فى أحضان الظلال الوارفة ـ شعرنا ، مائة مرة ، بتلك الرغبة الخفية التى توقظها هذه المناظر فى النفس ٠٠ ألا ما أجمل الحياة هناك ٠٠ فى دعة ، ورضى ، ونأى عن الناس !

« أفكانت هناك سعادة تفوق سعادتى فى تلك الساعة ؟٠٠ كان الى جوارى ـ فى العربة ـ شاب ، كانت مخالب القدر والموت مطبقة عليه بالأمس ، فأصبح اليوم محوطا بهالات من

أشعة الشمس الساطعة ، وبدا كأنه استرد من عمره بضع سنوات ، أو كأنه ارتد صبيا جميلا يلعب ، وتفيض عيناه بوميض متألق ، وباحترام مهذب في وقت واحد ! ٠٠ لم أشعر قط بمثل تلك السعادة التي داخلتني وهو يضفي على احترامه الفياض ، ويبدى مثل تلك اليقظة التي كانت تدفعه - اذا ما رأى الجواد عاجزا عن أن يصعد منحدرا - الى أن يقفز في خفة ، ويدفع العربة من خلف ٠٠ وكنت لا أكاد أنطق باسم زهرة ، أو أشير بيدى الى وردة - في الطريق - حتى يبادر باقتطافها وتقديمها لى ٠٠ ووقع بصره على ضفدع صغير ، طوحت به الأنواء في الليلة السالفة وسط الحشائش الخضراء ، فتناوله بحذر ، ونحاه عن طريق العربة حتى لا تسحقه ٠٠ وهو - في هذه الاثناء - يروى لى أقاصيص مسلية ، طريفة ، في لباقة بارعة ٠٠

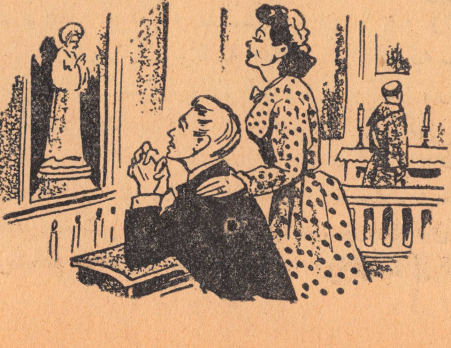
« وخيل الى أن ضحكته كانت وسيلة يشغل بها نفسه عن تصرفات أخرى ، اذ كان في بعض الأوقات لا يتمالك أن يغنى، أو أن يقفز ، أو أن يقدم على تصرف أحمق يثير الضحك٠٠ وكانت تصرفاته الفجائية هذه ، تطفح بالغبطة والحبور !

« وبينما كانت العربة تجتاز بنا - في تمهلها - مرتفعا صغيرا ، اذا به يرفع قبعته فجأة ، فدهشت ٠٠ ترى منذا الذى خصه بالتحية وهو غريب وسط أغراب ؟ ٠٠ واذ سألته ، تضرجت وجنتاه ، وقال - وكأنه يعتذر عن تصرفه - اننا قد مررنا في طريقنا بكنيسة ، وان القوم في بولندا درجوا - كما درجت كل البلاد المتمسكة بالمذهب الكاثوليكي - على رفع القبعات عن الرؤوس أمام الكنائس والمعابد ! ٠٠ وهزني هذا الاحترام التقى الذى أبداه ازاء الأماكن المقدسة ، وتذكرت ذلك الصليب الذى حدثني عنه ، فسألته عما اذا كان مؤمنا ٠٠ واذ ذاك سرت في وجهه حمرة خفيفة ، واعترف لى في شيء من

الخجل بانه يتمنى أن يتناول القربان المقــدس ، فصحت فى الحوذى : « قف ! » •• وأسرعت الى مغادرة العربة ، فتبعنى فى دهشة ، وهو يقــول : « الى أين سـنذهب ؟ » ، فأجبت فى اقتضاب : « تعال معى ! »

« واتجهت به صوب الكنيسة •• كانت من معـابد الريف الصغيرة ، وقد شيدت من الطوب ، وطليت جدرانها الداخلية بالجير ، فبدت قاتمة •• وكان الباب مفتوحا ، ينساب منه شعاع مخروطى الشكل ، أصفر اللون ، يشق الظلام ويحيط المذبح الصغير بهالة زرقاء •• وكانت ثمة شمعتان ترسلان نورا باهتا خلال تلك العتمة المشبعة بعبير البخور المحترق ••

« ودخلنا ، فرفع قبعته ، وغمس يده فى وعاء الماء المقدس ، ورسم اشارة الصليب ، وثنى ركبته •• وما أن انتصب معتدلا ، حتى أمسكت بذراعه ، وقلت له فى حزم : « تقدم الى المذبح ، أو الى أية صورة من هذه الصور المقدسة ، وردد خلفى هـذا القسم الذى سأتلوه عليك ! » •• فتطلع الى فى ذهول مشوب بشىء من الرهبة ! •• ولكنه لم يكد يدرك مقصدى حتى دنا من فجوة قام فيها تمثال ، فرسم اشارة الصليب ، وركع فى خشوع •• واذ ذاك قلت وأنا أرتجف لفرط التأثر : « ردد بعدى ما



سوف أقول ٠٠ أقسم » ، فقال : « أقســم ! » ٠٠ فمضيت : « انى لن أشترك مطلقا فى أية لعبة من ألعاب القمار ، أيا كان نوعها ، ولن أعرض حياتى وشرفى لأخطار هذه النزوة ٠٠ » !

فكرر أقوالى وهو ينتفض ٠٠ كررها بصــوت واضح دوى صداه فى الفراغ الواسع المحيط بنا ٠٠ وأعقبت ذلك لحظة خيم فيهـــا على المكان صمت شامل ، حتى لقـــد كنا نسمع حفيف الأشجار التى كان الهواء يداعب أوراقها فى الخارج ٠٠ وفجأة، انحنى خاشعا كأنه مذنب أثقلته الخطيئة ، وانطلق ـ فى نوبة من التقوى العميقة لم أعهدها منه ـ ينطق بكلمات سريعــة ، متماسكة ، باللغة البولندية التى لم أكن أعرفها ٠٠ ولعلها كانت صلاة حارة ٠٠ صلاة شكر وندم ، اذ كان أثناء التمتمة يحنى رأسه فى ورع على حاجز الهيكل ، وهو يردد الكلمات الغريبة بحرارة ٠٠ ولاحظت بينها كلمة معينة ، تتكرر باستمرار ، وفى حماسة غريبة ٠٠ ما سمعت يوما من قبل ـ ولا فيما بعــد ـ صلاة تتلى فى أية كنيسة من كنائس العالم بمثل هذا الورع !٠٠ كانت يداه تتشبثان بالحاجز الخشبى للهيكل فى قوة ، وجسده ينتفض ، كما لو كانت فى أعماقه عاصفة هوجاء ، أخذت تدفعه ـ فى بعض الأحيان ـ الى الوقوف فجأة ، ثم لا تلبث أن ترده الى ركوعه ، فى استغراق عميق ، لم يعد يرى أو يسمع شيئا خلاله ! ٠٠ كأنما كانت كل جارحة فى نفسه قد غابت فى عالم آخر ٠٠ في مطهر ٠٠ أو كأنما صعد كل حس فيــه الى ملكوت من القداسة ، بقفزة واحدة !!

« وما لبث أن نهض متباطئا ـ فى النهاية ـ فرسـم اشارة الصليب مرة أخرى ، وتلفت حوله بعناء ، وقد ارتجفت ركبتاه، وشحب وجهه كانسان استنزفت قواه عن آخرها ٠٠ ولكن ، ما أن وقع بصره على ، حتى أومضت عيناه ، وارتسمت على وجهه المنحنى ابتسامة صافيــة أضاءت أساريره ، ثم انحنى أمامى

انحناءة كبيرة ـ على الطريقة السلافية ـ وتناول يدى باحترام، فلثمها بأطراف شفتيه فى توقير ، وقال : « **لقد أرسلك الله لى ، ولهذا شكرته على صنيعه !** »

« ولم أدر ماذا أقول ، ولكنى تمنيت اذ ذاك لو ان الأرغن أرسل أنغامه فجأة من أعلى الشرفة الصغيرة ، اذ أيقنت بأننى أفلحت فى كل شىء ٠٠ وأنقذت هذا الرجل الى الأبد ! »

★★★

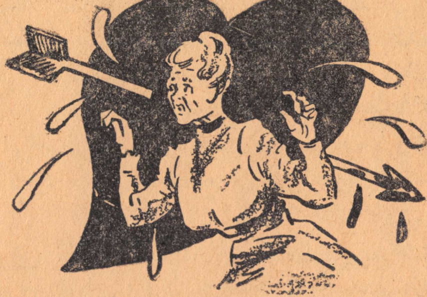
◆ « **وبارحنا** الكنيسة لنعود الى النور المشرق الزاهى ، الذى امتاز به ذلك اليوم من أيام شهر مايو ٠ ما رأيت العالم من قبل فى مثل هذا الجمال ! ٠٠ وظللنا ساعتين والعربة تخطر بنا على مهل ، حتى بلغنا قمة الجبل ، حيث كان الطريق الممهد يتيح لنا ـ فى كل منعطف ـ منظرا جديدا ٠ ولكنا لم ننبس ببنت شفة٠٠ فان كل قول كان خليقا بأن يبدو ركيكا وفارغا ، بعد ذلك الخشوع الذى ملك المشاعر ٠٠ وكنت أجدنى مضطرة الى أن أشيح بوجهى فى ارتباك ، اذا التقى بصره ببصرى ! ٠٠ كان شعورى ـ اذ رأيت أن معجزتى قد تمت ـ أقوى مما أحتمل!

« وعدنا الى (مونت كارلو) فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر ٠٠ وكنت على موعد ـ لا سبيل للتخلف عنه ـ مع بعض الأقارب٠٠ والحق انى كنت أصبو الى فترة من الهدوء ، أتخفف فيها من عواطفى التى طغت فى تلك اللحظات٠٠ فقد كانت سعادتى أكثر مما أحتمل ، ومن ثم أحسست بأننى فى حاجة الى أن أنفس بعض النشوة والانفعال البالغين اللذين استحوذا على كيانى بقوة لم أعرف لها فى حياتى كلها مثيلا ! ٠٠ لذلك طلبت من الشاب ـ الذى أحطته برعايتى ـ أن يصحبنى الى الفندق لبرهة وجيزة ٠٠ وفى حجرتى ، أعطيته المبلغ اللازم لنفقات رحلته ، ولتخليص الحلية المسروقة من الرهن ، واتفقنا على أن يتجه الى المحطة ، فيبتاع تذكرة السفر ، بينما أفى بالموعد الذى كنت مرتبطة به، ثم نعود فنلتقى فى الساعة السابعة مساء ، لنقضى فى المحطة

نصف الساعة السابق على موعد تحرك القطـار الذى يقله الى وطنه ، عن طريق (جنوا)٠ولكن حين أردت أن أقدم له الورقات المالية الخمس ، اكتست شفتاه بصفرة غريبة ، وهتف : « لا ٠٠ لا نقود ! » ٠٠ ونطق بهذه العبارة متلعثما ، بينما كانت أصابعه المرتعشة ، ترتد الى الوراء بانفعال واضطراب ، وهو يكرر : «لا نقود ٠٠ لا نقود ٠٠ لا أستطيع أن أرى نقودا ! »

« وأخذ يردد هذه العبارة وقد بدا كأن الخوف والاشمئزاز قد استوليا على كيانه ٠٠ غير اننى هدأت من روعه قائلة ان هذا لم يكن أكثر من قرض ، وان بوسعه أن يكتب لى ايصالا بالمبلغ، اذا كان يحس بأى حرج ، فقال : « نعم ٠٠ نعم ٠٠ ايصال ! » ٠٠ تمتم بهذه العبارة وهو يشيح ببصره عنى ، ثم فرك أوراق النقد كأنهاشيء لزج تتسخ أصابعه من لمسه ،ودسها فى جيبه دون أن ينظر اليها ٠٠ ثم كتب على قصاصة من الورق بضـع كلمات بخط متعجل ٠٠ وعندما رفع رأسه ، كان جبينه مندى بعرق كثيف،كما لو كانت نفسه مسرحا لشعور يكافح للانطلاق ٠٠ وما أن تناولت الورقة منه ، حتى استولت على كيانه رجفة، ثم جثا فجأة ـ واذ ذاك تراجعت مذعورة على الرغم منى ـ فقبل طرف ثوبى ٠٠ كانت حركة تجل عن الوصف ٠ وبعث انفعاله المنقطع النظير رعشة أخـذت تتنقل فى أوصالى ، ثم استبدت بجسمى قشعريرة غريبة ، وتملكنى الاضطراب ، فلم أملك سوى أن أتمتم بهذه الكلمات : « أشكر لك هذا العرفان البالغ بالجميل ٠٠ ولكن عفوا٠٠لنفترق الآن !٠٠ ولنلتق فى الساعة السابعة ـ مساء ـ فى فناء المحطة ، لنتبادل الوداع » ٠٠

ورمقنى وفى عينيه بريق حنون ، فظننت انه يريد أن يقول شيئا ٠٠ وخيل الى أنه يريد الاقتراب منى ، ولكنه انحنى فجأة انحناءة كبيرة ٠٠ كبيرة جدا ٠٠ وغادر المكان ! »



الفصل السادس

◆ توقفت مسز « س . » – مرة اخرى – عن متابعة قصتها ، ونهضت الى النافذة ، فسرحت نظرها خلالها الى الخارج .. وبقيت فى وقفتها فترة طويلة بلا حراك ، ثم لاحظت ان ثمة رجفة قد اعترتها وهى تولينى ظهرها .. وفجأة ، عادت فى رزانة..وصدرت من يديها – اللتين كانتا ساكنتين حتى تلك اللحظة – حركة عنيفة ، حاسمة ، وكأنهما تقطعان شيئا ما ، ثم نظرت الى بحدة – بل فى شىء من الجراة – وهى تعاود الحديث قائلة :

« لقد وعدتك بأن أكون غاية فى الصراحة .. ولكم تبينت الآن ان هذا الوعد كان ضروريا ، لأننى أدرك الآن – وأنا أكافح مع نفسى لأصف لك ، للمرة الأولى ، تلك الساعة بتسلسل منتظم .. وانا أبحث عن الكلمات الدقيقة التى اعبر بها عن شعور كان حتى ذاك الوقت منطويا ، ومضطربا ، فى نفسى – أدرك الآن بجلاء أمورا كثيرة لم أكن ادركها ، أو – بالأحرى – لم أكن أود أن أدركها من قبل .. لهذا كله احب ان أقول لك – ولنفسى أيضا – الحقيقة ، فى شجاعة وعزم ..

« وبعد ، ففى تلك الساعة التى غادر الشاب فيها غرفتى وتركنى وحدى ، شعرت ، وأنا فى شبه غيبوبة شاملة ، بضربة قوية تصيب قلبى .. كأنما طعننى شىء ما فخلف ألما قاتلا .. ولم أدر – أو لعلنى أبيت أن أدرى – كيف كانت التصرفات المشبعة بالود والاحترام – التى أبداها الشاب نحوى – طعنة أصابتنى فى الصميم .. على اننى اليوم ، وأنا أناضل لأنتزع أحداث الماضى من قرارة نفسى فى نظام وعزم ، كما لو كان هذا الماضى غريبا عنى .. اليوم ، وقد أصبح

من المتعذر - بعد حضورك الى هنا - ان أخفى الحقائق ، او أن التمس عذرا لتبرير عاطفة مخزية ٠٠ اليوم ، أراني أدرك باعث ذلك الالم ، فى وضوح تام ٠٠ كان مبعث ألمى اذ ذاك هو : خيبة الأمل ٠٠ الخيبة التى اعترتنى وأنا أرى ذلك الشاب ينصرف فى هدوء وانصياع ، دون أية محاولة للاحتفاظ بى ، أو البقاء معى ٠٠ أن أراه يطيع - فى استكانة وتوقير - أول طلب أناشده به أن يرحل ٠٠ بدلا من أن ٠٠ يحاول اجتذابى اليه بقوة ! ٠٠ أن أراه يجلنى ويوقرنى كقديسة ظهرت له فى طريقه ٠٠ وأن أتبين أنه ٠٠ أنه لم يشعر بوجودى كامرأة !!

« كان هذا مخيبا لآمالى ٠٠ خيبة لم أجهر بها لنفسى اذ ذاك ، ولا فيما بعد، ولكننى شعرت بها ٠٠ فان شعور المرأة يلم بكل شىء دون افصاح ، ودون وعى لحقيقته تماما ٠٠ أما الآن ، فلم أعد عاجزة عن فهم نفسى : لو ان ذلك الرجل تشبث بى وسألنى أن أتبعه ، لذهبت معه الى آخر أطراف العلم ، وللطخت اسمى ولقب ولدى دون ان أكترث بكلام الناس او أصغى الى ضميرى !٠٠ كنت أهرب معه كما هربت « هنرييت » هذه مع الشاب الفرنسى الذى لم تكن تعرفه حتى مساء الليلة السابقة على هربهما ٠٠ ما كنت اذ ذاك لأسأله الى أين أذهب، ولا الى متى ابقى ٠٠ ما كنت لألقى نظرة واحدة الى الوراء ٠٠الى حياتى الماضية، وانما كنت أضحى لهذا الرجل بمالى ، واسمى ، وثروتى ، وشرفى ٠٠ بل كنت أستجدى من أجله ، ولا اتعفف عن أخس دناءة فى العالم يدفعنى الى ارتكابها ٠٠ كنت أضرب عرض الحائط بكل ما يسميه الرجال عفافا ووقارا !!

« ٠٠ كنت على استعداد لأن أفعل كل هذا ، لو انه نطق بكلمة واحدة ، أو خطا خطوة واحدة ، او حاول أن يأخذنى معه ٠٠ فقد كنت فى تلك اللحظة فاقدة العقل ، متعلقة به بكل ما فى كيانى ! ٠٠ ولكن ، وكما قلت لك ، لم يلق هذا المخلوق العجيب نظرة واحدة على ٠٠ على المرأة الكامنة فى داخلى ! ٠٠ لكم كنت أتحرق شوقا الى ان أفرط فى نفسى ، وأن أفرط فى نفسى الى أقصى حد ! ٠٠ على انى لم أشعر بهذا الا حين خلوت الى نفسى ، بعد لحظة واحدة من ذلك الموقف الذى كان وجهه الملائكى يتألق خلاله بما كان يسرى فى نفسه من انفعالات ٠٠ واستولى هذا الشعور على نفسى ٠٠ بل انقض على كيانى ، وراح ينبض فى فضاء القلب المهجور !

« ونهضت بعناء ٠٠ وكنت على موعد بدا لى فى تلك اللحظة بغيضا ٠٠ وخيل الى ان خوذة حديدية ثقيلة قد هبطت على رأسى وراحت تضغط على جبينى بكل ثقلها ، حتى كدت أترنح ٠٠ كانت أفكارى مشتتة ، متخاذلة ٠٠ تماما كخطواتى حين يممت أخيرا صوب الفندق الذى ينزل فيه أقاربى !٠٠ وهناك جلست مكتئبة وسط أناس يتجاذبون أطراف الحديث فى مرح ٠٠ كنت أشعر بجزع كلما رفعت عينى عفوا الى تلك الوجوه الجامدة ، التى كانت تبدو امامى كما لو كانت ملفوفة

بالأقنعة ، اذا ما قورنت بوجه ذلك الشاب الموفور الحرارة ٠٠ كان طيفه ومرآى تلك الوجوه أضواء وظلالا تتناوب الظهور والاختفاء في تعاقب ، وقد اكتنفتها الغيوم ٠٠ لكم خيل الى أننى وسط أموات ، وأن تلك الجماعة من الناس كانت مجردة من الحياة !

« وفيما كنت أضع السكر فى القدح ، وأنطق ببضع كلمات بذهن شارد ، كان ذلك الوجه ـ الذى أصبح التأمل فيه مبعث فرح جامح لروحى ! ـ يطفو من أغوار نفسى ، كأنه مسوق بدفعة قوية من دمى المشتعل !٠٠ هذا الوجه الذى ـ ويا لهول الفكرة ! ـ سوف أراه للمرة الأخيرة بعد ساعة أو اثنتين !٠٠ ولابد ان زفرة واهنة ، او أنة خافتة ، انطلقت من صدرى على الرغم منى ، اذ اقتربت منى ابنة عم زوجى فجأة ، وسألتنى ان كنت مريضة أو أستشعر تعبا ، لا سيما وقد رأتنى شاحبة ، قلقة ، الى حد بعيد ٠٠ وبادرت أنا الى استغلال فرصة هذا السؤال ، لأزعم انى أعانى صداعا ، ومن ثم استأذنت فى الانصراف ، دون أن أشعر أحدا بما كان بى ٠٠ وما أن نهضت حتى أسرعت عائدة الى الفندق ولذت بحجرتى لأخلو الى نفسى ٠ وعلى الفور شعرت بالفـــراغ والوحدة ، وأحسست بالرغبة فى الوجود على مقربة من ذلك الشاب ـ الذى سأتركه اليوم الى الأبد ـ تطبق على بقسوة رهيبة ! وأخذت أذرع الحجرة ، وأفتح الأدراج بدون ما سبب لذلك ٠٠ وأغــير ثيابى ، وابدل الأشرطة التى تزينها ، كى أبرز وقوفى أمام المرآة ، وأنا أسائل نفسى ـ اذ أرقبها بعين فاحصة ـ عما اذا كنت أعجز حقا ، وأنا فى هذه الزينة ، عن أن أجتذب انتباه ذلك الشاب ؟!

★ ★ ★

« وفجأة ، فطنت الى حقيقة نفسى ٠٠ كنت مستعدة لأن أقدم على كل شىء حتى لا أحرم من ذلك الشاب ! ٠٠ وفى لحظة واحدة ، أفعمت بفورة عارمة ٠٠ واستحالت الرغبة التى كانت تعتمل فى نفسى الى عزم واصرار ٠٠ وعـــلى الفور ، أسرعت باحثة عن حارس الفندق ، وأعلنته بعزمى على السفر فى ذلك اليوم بقطار المساء ٠٠ أصبح لابد من عمل سريع ٠٠ ودققت الجرس لاســتدعى الخادم كى تساعدنى فى اعداد حقائبى ، اذ كان الوقت ضيقا ٠٠ وأسرعنا معا فى تكديس الحقائب بالملابس والحاجيات الصغيرة ، وأنا أتمثل فى خيالى المفاجأة المقبلة ، والصورة التى ستتم عليها ٠٠ أتصور أننى حضرت متظاهرة بالرغبة فى مرافقته الى داخل القطار ٠٠ وهو يمد الى يده بتحية الوداع الأخيرة ٠٠ ثم الدهشة التى ستتولاه بعد ذلك عندما يرانى وقد احتللت مكانى فى عربة القطار فجأة ، لأتبعه وأظل معه تلك الليلة ، والليلة التالية ، وأى عدد من الليالى يروق له أن أقضيها معه !

« وسرت فى دمائى غبطة نشوانة ، حتى لقد كنت انطلق أحيانا ، وعلى حين

غمرة ، فى قهقهة عالية ، وأنا ألقى بثيابى فى الحقائب ، الأمر الذى أدهش الخادم الى أقصى حد ٠٠ كنت أشعر بأن عقلى لم يكن مستقرا فى موضعه ! ٠٠ فلما جاء الحمال لينقل حقائبى ، نظرت اليه فى دهشة ، اذ كان من العسير على أن أفكر فى أشياء واقعية ، بينما كانت تطفح روحى بالغبطة الجامحة النشوانة !٠٠ وكان الوقت قد ازف ، اذ أشرفت الساعة على السابعة ، ولم يبق على موعد تحرك القطار أكثر من اربعين دقيقة ٠٠ وكان عزائى الوحيد - فى هذه الفورة - أننى لم أكن ذاهبة الى وداع يتلوه فراق ، ما دمت قد عقدت العزم على مرافقته فى سفره ، والبقاء معه ما سمح لى بالبقاء !

« واخذ الحمال ينقل حقائبى ، بينما أسرعت أنا الى ادارة الفندق لأدفع ما كان على من حساب ٠٠ وفى اللحظة التى اعاد الى الرجل باقى النقود وتاهبت للانصراف ، شعرت بيد تمس كتفى برفق ، فقفزت جزعا ٠٠ كانت ابنة عم زوجى قد شغلت بذلك التعب الذى زعمت انه ألم - حين كنت فى زيارتها - فجاءت تطمئن على ٠٠ واظلمت الدنيا فى عينى ٠٠ لم ادر ماذا أصنع ازاءها !٠٠ كانت كل ثانية امكثها معناها تاخير لا يمكن تداركه ٠ ولكن الأدب اقتضانى أن أصغى اليها ، ولو لدقيقة واحدة ٠

« اما هى ، فقد قالت فى اصرار : « يجب أن تلزمى الفراش ، فانت محمومة ، ما فى ذلك شك ! » ٠٠ وكان هذا جائزا ، اذ كنت أشعر بنبض عنيف ، قاس ، فى صدغى ٠٠ وكانت تطفو أمام عينى احيانا تلك الظلال الزرقاء المنذرة بقرب الاغماء ٠٠ واخذت اعترض ، وأتظاهر بالشكر والتقدير لنصحها ، بينما كانت كل كلمة تكوينى ٠٠ بل لقد وددت لو استطعت أن أركل بقدمى هذا النصح الذى جاء فى وقت من أبعد الأوقات ملاءمة٠٠ولكن قريبتى السخيفة بقيت وبقيت، وظلت امامى باستمرار ! ٠٠ وقدمت الى ماء « الكولونيا » ٠٠ بل انها حرصت



على أن تتولى بنفسها ترطيب صدغى بهذا الماء ، وأنا أعد الدقائق ، وقد اتجه فكرى كله الى ذلك الشاب .. وبينما كنت أبحث عن حجة أتهرب بها من هذه الرعاية المضنية ، أخذ قلقى يزداد ، فكان ارتيابها فى أمرى يتضاعف ، حتى لقد عنفت معى وهى تسعى لحملى على أن آوى الى غرفتى ، لألزم الفراش ..

« وكنت لا أكف ـ خلال نصائحها ـ عن التطلع الى عقربى الساعة .. كان عقرب الدقائق يسعى حثيثا الى منتصف القرص .. كانت الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين ، بينما القطار يبرح المحطة فى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين ! .. وبحركة مباغتة ، وفى عدم اكتراث لا يصدر الا عن يائسة ، مددت يدى الى ابنة عم زوجى قائلة دون ما ايضاح : « وداعا .. لابد لى من الرحيل ! »..واسرعت صوب الباب غير حافلة بالدهشة التى رمقتنى بها ، بل دون أن ألتفت اليها .. وبينما كان الخدم يحملقون فى استغراب ، انطلقت أعدو فى الشارع شطر المحطة !

« وأدركت من الاشارات التى كان يستحثنى بها الحمال ـ عن بعد ـ أن القطار على وشك التحرك ، ومن ثم اندفعت فى جنون أعمى نحو باب المحطة المفضى الى الرصيف .. واذا بمراقب الباب يستوقفنى .. كنت قد نسيت أن ابتاع تذكرة .. وفيما كنت احاول اقناعه ـ فى شىء من الحدة ـ بأن يخلى سبيلى لأتمكن من اللحاق بالقطار ، اذا بالقطار يتحرك .. وحملقت ـ وكل فرائصى ترتجف ـ آملة ان احظى من احدى النوافذ بنظرة ، أو ايماءة ، أو تحية .. على الأقل !.. ولكن القطار لم يلبث أن ازداد سرعة ، فأصبح من العسير أن ألمح الوجه المنشود! .. وتلاحقت عربات القطار فى سرعة ، وان هى الا دقيقة ، حتى كان ما بقى ظاهرا لعينى المعتمتين .. مجرد غمام داكن !

« وكان من الطبيعى أن أظل فى وقفتى هذه جامدة كالتمثال .. ولا يعلم الا الله كم بقيت على هذه الحال .. فقد حاول الحمال عبثا أن يخاطبنى ، حتى اضطر الى أن يمس ذراعى منبها ، فانتفضت مذعورة .. واذ ذاك ، سألنى : هل يعيد الحقائب الى الفندق .. واحتجت الى بضع لحظات كى أستعيد رباطة جأشى ، ورأيت انعودتى الى الفندق مستحيلة بعد أن بارحته على تلك الصورة المستهجنة، وفى مثل تلك العجلة .. لم يكن بوسعى أن أعود الى ذلك الفندق ، ولا كنت راغبة فى العودة اليه ! .. وفى غمرة الارتباك الشديد الذى اعترانى ، أمرته بأن يودع الحقائب « قسم الأمانات » ..

★ ★ ★

◆ « وظللت فترة فى فناء المحطة ، وسط أناس لا تنقطع ضوضاؤهم ، يروحون ويجيئون متدافعين .. ثم أخذ عددهم يقل رويدا ، واذ ذاك بدأت استجمع شتات ذهنى لأفكر بهدوء فى الوسائل التى اتخفف بها من هذا السخط

الجامح المؤلم ، والأسى ، واليأس ، التى اجتاحتنى فى الحاح ممض .. فقد كنت ـ ولست أرى داعيا لتجنب الحقيقة ـ أشعر بكيانى كله يتمزق فى قسوة أليمة لا ترحم ، كلما فكرت فى ان حرمانى من ذلك اللقاء الرائع كان نتيجة خطأ منى.. كان ذنبى ! .. ولقد أوشكت أن أصرخ لفرط الألم الذى أحدثه هذا النصل الحاد ، المشحوذ ، وهو ينفذ فى أعماقى !

« ولا يعرف الثورات العاطفية المفاجئة ـ التى تحدث فى لحظات استثنائية ، والتى تشبه انهيار جبال الثلج ، أو هبوب العواصف الهوجاء ـ قدر أولئك الذين لم يألفوا الانفعال..ذلك لأن القوى العاطفية تندفع فجأة ـ فى تلك اللحظات ـ متدفقة من أغوار النفس .. وما سبق لى أن شعرت من قبل بمثل هذه المفاجأة ، ولا بمثل هذا الغضب الجامح الذى استولى على فى تلك اللحظة ، اذ لمست عجزى .. فبينما كنت متأهبة للقيام بأشد الأفعال نزقا ورعونة .. بل بينما كنت متأهبة لأن أطوح بجميع ما ادخرت فى حياتى المنتظمة المستقيمة من رزانة ، ولأن أطلق العنان لجميع القوى التى كانت مكبوتة حتى ذاك الوقت ، اذا بى أجد نفسى فجأة أمام سياج جامد ، سخيف ، ذهبت محاولاتى لتسلقه أدراج الرياح !

« ولم يكن ما فعلته بعد ذلك سوى امعان فى السخف .. كان جنونا ، بل طيشا أخجل من أن أرويه لك ، ولكنى عاهدتك وعاهدت نفسى على أن لا أخفى شيئا .. لقد رحت أجد فى البحث عنه .. أو ـ بمعنى آخر ـ حاولت أن أستعيد كل لحظة قضيتها معه .. وشعرت بقوة قاهرة تجذبنى الى جميع الأماكن التى ارتدناها بالأمس معا ، فاتجهت الى المتنزه ، حيث المقعد الذى جررته منه .. والى غرفة المقامرة حيث رأيته للمرة الأولى .. بل لقد ذهبت الى ذاك الفندق الوضيع .. كل ذلك لكى أستعيد الماضى معه ، ولو لمرة واحدة أخرى .. وفى اليوم التالى ، راق لى أن أستقل عربة انطلق بها فى نفس الطريق الذى سلكناه معا ـ على « الكورنيش » ـ حتى تبعث فى نفسى كل كلمة ، وكل حركة ، مرة أخرى .. أجل ، لقد بلغ اضطراب عقلى حد الجنون .. بل حد العبث الصبيانى!

« ولكن ، ثق أن هذه الأحداث انقضت على انقضاض الصاعقة ، فلم أعد أشعر بغير ضربة قاسية .. ضربة فذة ، أذهلتنى .. على انه حين فارقنى هذا الذهول ، شعرت برغبة فى أن أعيش من جديد ، كى أستمتع بتلك المشاعر الضالة ، أرشفها قطرة قطرة ، بتلك الطريقة السحرية التى نلجأ اليها لخداع أنفسنا ، والتى نسميها : الذكرى ! .. والواقع ان ثمة أمورا لا تحتمل الجدل، فاما أن يفهمها المرء أو لا يفهمها .. وربما احتاج المرء الى قلب متأجج كى يدركها !

« لهذا سعيت أولا الى قاعة المقامرة باحثة عن المائدة التى كان يجلس اليها ، لأعيد النظر اليها ، ولأتصور يديه بين الأيدى المجتمعة عليها . ودخلت القاعة،

واخذت ابحث عن المائدة التى رأيته عندها للمرة الأولى ، حتى استطعت أن أهتدى اليها . كانت المائدة اليسرى فى الحجرة الثانية .. وكانت كل حركة من حركاته لا تزال واضحة المعالم فى ذاكرتى ، ومن ثم كان بوسعى أن أهتدى الى مكانه تماما وأنا مغمضة العينين ، مبسوطة اليدين ، وكأننى اسير أثناء نومى ! .. هكذا كنت حين دلفت الى الحجرة . وجست ببصرى خلال الجمع الصاخب ، واذ ذاك .. وقع أمر غريب ، فذ .. فهناك ، وفى نفس المكان ، وجدته .. جالسا ! .. وخيل الى انه وهم من وحى الحمى التى كانت تتملكنى .. ولكنه كان هو بلحمه ودمه .. هو .. هو ، بنفسه ! .. هو ، كما تمثلته منذ لحظة فى خيالى ، وكما كان بالأمس تماما ، وقد علقت نظراته بالكرة ، وجمد شاحبا كالموتى .. هو .. هو نفسه ، ما فى ذلك أدنى شك !

« وكدت أصرخ لفرط ما انتابنى من فزع ، ولكنى كبحت جماح أعصابى ازاء هذا المنظر الذى يودى بالعقل ، واغمضت عينى ، مرددة لنفسى : « انك لمجنونة .. انك تحلمين .. بل أنت محمومة .. مستحيل .. انك تهذين .. لقد رحل عن هنا بالقطار منذ نصف ساعة ! » .. ثم فتحت عينى من جديد ، فوقعتا على نفس المنظر الرهيب الذى ألمنا به منذ لحظة .. كان يجلس الى المائدة بلحمه وشحمه ، دون أدنى شك ! .. وكان فى وسعى أن أتعرف على يديه ، بين ملايين الأيدى .. لا ، ما كنت بحالمة .. انه هو نفسه ! .. اذن ، فهو لم يسافر كما وعدنى .. لقد مكث المعتوه ، وجاء الى هنا - الى المائدة الخضراء - بالنقود التى منحتها له كى يعود بها الى بلاده .. لقد أنساه سعار اللعب نفسه تماما ، فجاء يقامر بتلك النقود على مائدة اللعب ، فى الوقت الذى كان اليأس من العثور عليه يدمى قلبى !

« وبقفزة واحدة اندفعت الى الأمام ، وقد أعمى عينى غضب اهوج بعث فى نفسى ثورة جامحة ، فتملكتنى رغبة ضارية فى أن اهوى بقبضتى على وجه ذلك الخائن الذى بدد ما اودعته فيه من ثقة ، وخان شعورى واخلاصى فى خسة وضيعة ! .. ولكنى كظمت غيظى مرة أخرى ، ودنوت ببطء متعمد - لا أدرى أية قوة أتاحته لى ! - حتى بلغت المائدة ، فى مواجهته تماما . ووقفت فى مكان افسحه لى رجل مهذب .. ولم يعد يفصلنى عنه سوى مترين هما عرض الرقعة الخضراء ، ومن ثم كان بوسعى أن ارقب وجهه بسهولة ، كما لو كنت أجلس فى مقصورة عالية بأحد المسارح ! .. وتاملت وجهه ، فاذا هذا الوجه الذى رأيته منذ ساعتين يتألق بأضواء العرفان بالجميل ، وتحيط به هالة من بهاء قدسى ، قد غدا فريسة مرتعدة لنيران النزوة الجهنمية ! .. ويداه .. اليدان اللتان رأيتهما - بعد ظهر اليوم نفسه ! - تتشبثان بسياج المذبح ، وصاحبهما يقسم بأقدس الايمان .. لقد عادتا تتوتران وهما تنقضان على النقود المتناثرة حولهما ، كوحشين كاسرين .. فقد كان رابحا ، ولابد ان ربحه كان كبيرا ،

وكبيرا جدا ٠٠ اذ كانت الأضواء تنعكس على كومة غير منسقة ــ أمامه ــ من « الفيشات » ، والعملة الذهبية ، والأوراق المالية ٠٠ خليط تناثر أمامه فى غير انتظام ٠ وكانت اصابعه المتوترة ، المرتجفة ، تجوس خلال هذا الخليط ، وتغوص فى غبطة نشوانة ٠ ورايت يديه تمسكان باوراق النقد المختلفة تطويانها وترتبانها ، ثم تعودان فتتحسسان فى شغف قطع النقود المعدنية ٠ وما لبثتا ان امسكتا بحفنة منها ، فطوحتا بها الى احد مربعات « الروليت » ٠٠ وسرعان ما بدات طاقتا انفه تختلجان فى رجفة متقطعة ! ٠٠ واجتذب نداء مراقب اللعب عينيه ــ اللتين كانتا تومضان فى جشع ــ عن كومة النقود ، فتحولتا تراقبان الكرة فى حركتها الجنونية ٠ وخيل الى ان نفسه توشك أن تنطلق من كيانه ، وهو متكىء بمرفقيه على الرقعة الخضراء ، فكأنهما سمرا اليها ! ٠٠ كانت حاله ــ وجنون المقامرة يعصف به ــ ادعى فى رايى الى الجزع من حاله بالأمس ، اذ كانت كل حركة من حركاته تقتل فى نفسى الصورة الوضاءة التى كانت تتالق فى اعماق نفسى الساذجة ، وكأنها اقيمت على قاعدة من ذهب !

★ ★ ★

◆ « وهكذا كنا ، لا يفصل بين أحدنا والآخر سوى مترين ٠ ورحت انعم النظر فيه ، وهو لا يفطن الى وجودى ٠ فما كان ليرفع عينيه الى أو الى اى شخص آخر ٠٠ اذ كان بصره متعلقا بالنقود وحدها ، وهو يتململ قلقا ، وينظر بين الفينة والفينة الى دوران الكرة ٠ كانت الرقعة الخضراء المستديرة تستولى على جميع حواسه التى مضت تتعقب اللعب لاهثة ٠٠ كأنما ذاب العالم بأسره ، والانسانية جمعاء ، فى هذه الرقعة من القماش الأخضر ، المبسوطة أمامه ! ٠٠ وايقنت اننى قد أبقى فى مكانى ذاك ، ساعات وساعات ، دون أن يخامره أى شعور بوجودى ٠٠ ولكنى لم اعد أقوى على ضبط أعصابى ، فدرت حول المائدة ــ بعزم مباغت ــ ووقفت خلفه ، ثم مسست كتفه بيدى فى شدة ٠ وتذبذبت نظراته لحظة ، ثم اخذ يتفرس فى وجهى بحدقتيه اللتين لاحتا ككرتين من زجاج، كمن يحدق فى شخص لا يعرفه ! ٠٠ كان كالمخمور الذى يجد الانسان عناء فى هزه كى يفيق من غيبوبته ، فتظل أبخرة الخمر ترين على عينيه ! ٠٠ وأخيرا ، لاح انه عرفنى ، اذ انفرج فمه فى اختلاج عصبى ، وتأملنى بنظـــرة نمت عن السعادة ، ثم تمتم فى صوت واهن ، وفى ألفة جمعت بين شرود الذهن وغموض القصد : « ان الحال تسير كما ينبغى ٠٠ لقد شعرت بذلك ، بمجرد دخولك ، وبمجرد أن رايته هناك ٠٠ لقد أحسست بذلك فى الحال ! »

« ولم افقه لقوله معنى ٠٠ كل ما أدركته هو أن اللعب أثمله ، وانه نسى كل شىء ٠٠ نسى قسمه ، ووعده ، والعالم بأسره ٠٠ وأنا ! ٠٠ ولكن بريق الدهشة الذى فاض من عينيه حين رآنى ، كان مغريا ، رغم تعاسة حاله وتسلط الشيطان

على زمامه ، ومن ثم وجدتنى اهتم بقوله ـ على الرغم منى ـ واسأله فى جد عمن كان يعنيه بكلمة « رايته » ! ٠٠ فاجابنى وهو يميل نحوى ، حتى لا يسمع احد سره السحرى : « اقصد ذاك القائد الروسى المسن ، ذا الذراع الواحدة ٠٠ ذاك الذى يجلس هناك ، وخلفه تابع خاص ٠٠ انه يربح دائما ٠٠ لقد لاحظت ذلك أمس ، فادركت ان له ولابد طريقة خاصة ، ومن ثم رحت ألعب مثله تماما ٠٠ ولقد كان أمس ـ كما هو الليـــلة ـ دائم الربح ٠ بيد أننى اخطأت بالأمس ، حين ظللت ألعب بعد انصرافه ٠٠ كان هذا ذنبى ٠٠ انه ولابد قد ربح بالأمس عشرين ألفا من الفرنكات ٠٠ وها هوذا اليوم يربح فى كل مرة ٠٠ وانا الآن أضع النقود ، حيث يضع نقوده ٠٠ والآن ٠٠ »

« وقطـع حديثه فجاة ، حين صاح مراقب اللعب بصوته الجهورى : « ابدأوا اللعب » ٠٠ والتفت الشاب فى تؤدة الى جانبه ، وهو يثبت عينيه على مقعـد الرجل الروسى ذى اللحية البيضاء ، فاذا الرجل الهادىء ، الوقور ، يضع فى حذر قطعة ذهبية على المربع الرابع ، ويمكث لحظة مترددا ، ثم يضع قطعة أخرى٠ وفى الحال ، غاصت يدا الشاب المـــرتجفتان ـ اللتان كانتا أمامى ـ فى كومة النقود ، ووضعتا حفنة من القطع الذهبية على نفس المربع ٠ وعندما صاح المراقب بعد دقيقة ، قائلا : « صفر » ، وامتدت مجرفته تحصد كل ما كان على المـائدة بحركة واحدة ، حدق الشاب مذهولا ، كما لو كان ضياع كل هذه النقود معجزة من المعجزات ! ٠٠ وقد يخطر ببالك أنه التفت نحوى ٠٠ لا ، لقد نسينى تماما ٠٠ تلاشيت من اعتباره ، ولم يبق لى فى حياته وجود ، اذ تركزت كل حواسـه المتوترة على القائد الروسى الذى أمسك بقطعتين من النقود فى يده ، فى غـير تحمس ، وكأنه يفكر فى اختيار الرقم الذى يضعهما عليه ٠٠

« وليس بوسعى أن أصف لك ما انتابنى من مرارة ويأس ٠٠ ولكنك تستطيع أن تتصور ما أحسست به نحو رجل بذلت كل ما فى وسعى لأعيد اليه حياته كلها ، فاذا أثرى فى نفسه لا يزيد عن أثر ذبابة يطـــردها بيد متثاقلة ، وفى ضجر ! ٠٠ وعادت نوبة الغيظ المستعر تتملكنى ، فضغطت ذراعه بعنف شـديد جعله ينتصب فجاة واقفـا ٠٠ وقلت له فى صـــوت منخفض ، ولهجة آمرة : « انصرف لفورك عن اللعب ٠٠ تذكر القسم الذى أقسمته اليوم فى الكنيسة ، أيها الحانث التعس ! » ٠٠ فحدق فى وقد هزته كلماتى ٠ وامتقع وجهه ، وبدت فى عينيه ـ فجاة ـ ذلة الكلب المضروب ! ٠٠ وارتجفت شفتاه ، وكأنما تذكر الماضى كله ، على حين غرة ! ٠٠ وكان الناظر اليه يخاله مشمئزا من نفسه !٠٠ وما لبث أن قال متلعثما : « أجل ٠٠ نعم ٠٠ آه ! يا الهى ! ٠٠ يا الهى ٠٠ أجل ٠٠ سأنصرف ٠٠ الا أغفرى لى ! »

« وشرعت يداه تجمعان النقود بعجلة وتحمس فى البداية ، ولكن حركاتهما لم

تلبث أن تثاقلت شيئا فشيئا ، وكأنما جثمت عليهما قوة عاقتهما عن المضى . وعاد بصره يتجه الى القائد الروسى ، الذى اختار رقمه.وعلى الفور ، ألقى الشاب - فى عجلة - بخمس قطع ذهبية على نفس المربع ، وهو يقول : « لحظة أخرى .. لن ألعب سوى هذه المرة فقط .. أقسم لك انى سأنصرف بعدها .. لن ألعب سوى هذه المرة فقط .. لن ألعب سوى .. » .. وتلاشى صـــوته ، اذ بدأت الكرة تدور ، فحملته معها فى دورانها ! .. لقد افلت المعتوه منى ثانية ، وأفلت من نفسه ، منطلقا مع الكرة فى دورانها ، وهى تقفز وتثب حتى استقرت فى فجوة مصقولة ..

« وصاح مراقب اللعب معلنا رقما ، وامتدت مجرفته الى القطع الذهبية الخمس .. فقد خسر الشاب . بيد أنه لم يلتفت الى .. فقد نسينى كما نسى القسم الذى قطعه على نفسه ، وكما نسى الكلام الذى لم تنقض عليه سوى دقيقة واحدة .. وعادت يده تغوص - بانفعال - فى كومة النقود المتناقصة ، وبصره مسدد تماما الى الرجل المـــواجه له .. الرجل الذى كن يجلب له الحظ ، ويفعل فى ارادته فعل المغناطيس !

★ ★ ★

« وعيل صبرى ، فهززته مرة أخرى ، ولكن فى عنف أشد ، وقلت : « انهض لفورك .. وفى هذه اللحظة . لقد قلت ان هذا هو الدور الأخير » !.. وعندئذ ، وقع ما لم يكن فى الحسبان ، اذ التفت نحوى - ولم يكن الوجه المتطلع الى فى هذه المرة وجه الرجل الوديع ، المضطرب ، وانما كان وجها ثائرا .. وجه انسان استبد به الغضب ، فأخذت عيناه ترسلان الشرر ، وشفتاه ترتعشان لفرط الحنق - وصاح بى فى جحود : « دعينى وشأنى !.. اغربى عن وجهى ، فانك تجلبين لى النحس ! .. اننى أخسر دائما حين تكونين هنا .. هـــذا ما حدث بالأمس ، وها هو ذا يتكرر اليوم .. ألا انصرفى من هنا ! »

« واستولى على الذهول لحظة ، ولكنى أمام هذا النزق ، شعرت بغضبى يحتدم، فقلت أخاطبه : « أأنا التى أجلب لك النحس ؟ .. افلم تقسم أيها الكاذب ، اللص ؟! » .. ولم ازد على هذه العبارة ، اذ وثب كالمسعور من مكانه ، ودفعنى - غير مبال بالحاضرين ، الذين نهضوا واقفين - ثم صاح بصوت مرتفع فى قحة : « اغـــربى عن وجهى ! .. لست تحت وصايتك .. هاك .. هاك ! .. اليك نقودك ! .. والآن ، دعينى وشأنى ! » .. وقذفنى ببضع ورقات مالية من فئة المائة فرنك ، بينما كان ينطق بهذه العبارات بصوت مرتفع جدا ، وكأنه مجنون، غير حافل بمئات الناس الذين كانوا يحيطون به ! .. وأخذ الجميع يتطلعون اليه، متهامسين ، متغامزين ، متضاحكين .. بل ان كثيرين ممن كانوا فى الغـــرفة



المجاورة أقبلوا بدافع الفضول ، فخيل الى اننى قد جردت من ثيابى ، ووقفت عارية أمام هذا الحشد المتطفل !

« وصاح مراقب اللعب فى صوت جهورى ، آمر ، وهو يدق المائدة بمجرفته : « صمتا يا سيدتى ، من فضلك ! » ٠٠ كان يوجه هذه الكلمات المنكودة الى ٠٠ أنا ! ٠٠ فشعرت باستحياء مما أصابنى من هوان ، وجللنى الخزى من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، اذ رأيتنى نهبا لهمهمة الفضوليين وهمساتهم ، كما لو كنت فتاة من بائعات الهوى ، ألقى فى وجهها بالاجر !٠٠وراحت مائة عين ، بل مائتان، تتفرس فى وجهى ! ٠٠ و ٠٠ وانتحيت جانبا ، وقد انحنى ظهرى تحت طوفان الهوان والخزى ، حتى اذا أشحت بوجهى الى الناحية الأخرى ، تجنبا لنظرات الناس ، اذا بى أمام عينين زائغتين لفرط الذهول ٠٠ كانت ابنة عم زوجى أمامى تتطلع الى مشدوهة ، وقد فغرت فاها ، ورفعت يدها بتأثير الذعر الذى استولى عليها !

« وكأنما كان وجودها سوطا ألهبنى ، اذ أسرعت أغادر القاعة ، قبل أن تتحرك وتفيق من دهشتها ٠ كانت لدى بقية من قوة مكنتنى من ان امضى مباشرة الى المقعد الذى كان فى حديقة الفندق ٠٠ المقعد الذى كان يجلس عليه ذلك الأحمق مهدما بالأمس ! ٠٠ وتهالكت على خشبه اليابس ، القاسى ٠٠ خائرة ، مهينة ، محطمة ٠٠ تماما كما كان هو !

★ ★ ★

◆ « لقد حدث هذا منذ اربع وعشرين سنة ، ومع ذلك ، فان الدم لا يزال يجمد فى عروقى كلما تذكرت تلك اللحظة ، وقد ألهبتنى اهانته لى بمشهد من ألف غريب ! ٠٠ ان الحيرة لا تزال تتملكنى ، كلما عاودنى التفكير فى أمر تلك المادة الرخوة ، التعسة ، الهيابة ، التى يتألف منها ما نسميه بـ « النفس » ،

و « العقل » ، و « الشعور » ، و « الألم » .. اذ كيف تعجز هذه كلها ـ وهى فى أقصى درجات احتدامها ـ عن أن تحطم الجسد الذى يتألم ، واللحم الذى يتعذب ؟! .. كيف يستطيع الانسان أن يعيش ـ بعد مثل تلك الساعات ـ لمجرد ان الدم مستمر فى جريانه ، فلا يموت ويتحطم كما يحدث للشجرة خلال العاصفة ؟!

« ذلك لأننى لم أشعر بوطأة الألم سوى لحظة قصيرة .. اللحظة التى تلقيت فيها الصفعة .. وعندما تهالكت على المقعد ، مضعضعة الحس ، متهدجة الانفاس، أكاد أختنق ، شعرت بطعم الموت ينتشر فى فمى ! .. ولكن الألم ـ بجميع أنواعه ـ ضعيف هياب ، كما قلت .. فهو يتقهقر أمام الرغبة فى الحياة ، تلك الرغبة التى ترسخ فى أجسادنا بقوة تفوق ما يجتاح عقولنا من قوى راغبة فى الموت !

« وكان من الأمور التى لم أوفق الى تفسيرها لنفسى ، اننى ـ بعد تلك الصدمة التى ضعضعت مشاعرى ـ استطعت أن أرتد الى صوابى ، وان لم ادر فى الواقع ما الذى كان ينبغى أن أفعل .. وتذكرت فجأة ان حقائبى فى المحطة ، فاستبدت بى فكرة ملحة فى الرحيل .. الرحيل .. الرحيل من هنا .. الرحيل وحسب ، بعيدا عن هذا « الكازينو » اللعين .. عن هذه البؤرة الجهنمية ! .. وبادرت راكضة الى المحطة ، لا ألوى على شىء ، وسألت عن موعد أول قطار متجه الى باريس .. وما أن علمت ان موعده فى الساعة العاشرة ، حتى بادرت الى سحب متاعى ..

« الساعة العاشرة ! .. اى بعد أربع وعشرين ساعة ـ تماما ـ من ذلك اللقاء البغيض .. أربع وعشرون ساعة كانت زاخرة بالعواصف الهوجاء ، وبالعواطف التى بلغت من الغرابة حدا أحدث فى نفسى جرحا باقيا الى الأبد !

« على اننى ـ فى البداية ـ لم أشعر الا بكلمة واحدة راحت تتردد فى نفسى، فى تواتر مستمر : الرحيل ! الرحيل ! الرحيل ! .. كانت عروقى لا تفتأ تنبض بهذه الكلمة ، فترددها جنبات رأسى : الرحيل ! الرحيل ! الرحيل ! .. بعيدا عن هذه المدينة .. بعيدا عن نفسى .. الى وطنى ، والى اهلى ، والى حياتى السابقة .. حياتى الأصلية !

« وقضيت ليلتى فى قطار باريس . ومن العاصمة ، رحت أتنقل من محطة الى أخرى ، ثم يممت شطر (بولونى) ، ومن (بولونى) الى (دوفر) ، ومن (دوفر) الى (لندن) ، ومن (لندن) الى حيث كان ابنى يقيم فى الريف الانجليزى . كل ذلك فى سرعة الطير ، دون ما تفكير ـ اذ لم أفكر فى شىء ما على الاطلاق لثمان وأربعين ساعة ـ بل ودون نوم ، ودون كلام ، ودون طعام !..

وكانت عجلات القطار خلال هذه الساعات الثماني والأربعين ، لا تنفك تردد : الرحيل ! الرحيل ! الرحيل !

« وما أن دخلت بيت ابنى فى الريف - أخيرا ، وعلى غير انتظار - حتى انتاب الجميع جزع ، اذ كان فى كيانى ، ونظرات عينى ، شىء يفضح ما فى سريرتى ولابد ! ٠٠ وتقدم ابنى منى ليقبلنى ، فتراجعت مجفلة ! ٠٠ لم أطق أن أراه يقبل الشفتين اللتين اعتبرتهما مدنستين ! ٠٠ ورفضت الاجابة على أى سؤال ، وانما طلبت أن يعد لى الحمام ، اذ شعرت بحاجة الى أن أطهر جسمى ، لا من وعثاء السفر ، ولكن من كل ما بدا لى عالقـا به من نزوة ذلك الشاب المعتـوه ٠٠ الخسيس ! ٠٠ ثم تحاملت على نفسى حتى بلغت مخدعى ، فاستغرقت فى النوم اثنتى عشرة ، او اربع عشرة ساعة ٠ وكان نوما عميقا ، لم أشعر خلاله بشىء على الاطلاق ، وكاننى كنت من حجر ٠٠ ابدا لم انم مثله من قبل ، ولا فيما بعد! ٠٠ لقد ادركت منه معنى الرقدة فى التابوت ٠٠ معنى الموت للانسان !

« وانتاب القلق أهلى ، اذ حسبونى مريضة ٠ على ان عطفهم لم يفلح الا فى ايقاظ الألم ، اذ شعرت بخزى ، وبأننى غير أهل لاحترامهم ، ولا لاكبارهم لى ! ٠٠وكنت مضطرة الى أن أشدد الرقابة على نفسى ، حتى لا أصيح فجأة ، أكاشفهم بمدى خيانتى لعهدهم جميعا ، وكيف نسيتهم ، وكدت أتخلى عنهم ، بدافع نزوة مجنونة ، جامحة !

* * *

◆ « **ورحلت** بعـد فترة الى قرية فرنسية صـغيرة ، وقع اختيارى عليها بمحض المصادفة ، دون أن أعرف فيها انسانا ٠ فقـد كانت تلاحقنى فكرة ملحة ، ملحفة ، بأن فى وسع الناس جميعا أن يلمحوا على مظهرى - لأول وهلة - ذلك العار الذى أصابنى ، وذلك التغير الذى طرأ عـلى ، اذ تغلغل فى أعماقى الشعور بخيانتى وقـذارتى ! ٠٠ وكنت اذا ما استيقظت فى الصباح ، شعرت بخـوف طاغ من أن أفتح عينى ، وأنا فى سريرى ٠٠ فقد كانت ذكرى تلك الليلة تدهمنى ، فأتذكر كيف استيقظت ذات يوم فوجدت نفسى الى جوار رجل غريب عنى ، ونصف عار ! ٠٠ وكان الاحساس الذى داخلنى فى المرة الأولى

لا يلبث أن يعاودنى .. الاحساس بالرغبة فى الموت ، فى التو واللحظة !

« على ان للوقت سلطانا كبيرا ، رغم كل شىء . والعمر يستهلك كافة المشاعر ، بشكل عجيب ! .. فكلما تقدمت الأعوام بالمرء،أحس بأنه يزداد اقترابا من الموت الذى يلقى على الطريق ظله القاتم ، ومن ثم تفقد الاشياء بهجتها فى نظر المرء ، على مر السنين ، فلا تحدث عين التأثير الذى كانت تحدثه فى أعماق النفس فى مقتبل العمر .. بل انها تفقد قوتها وبأسها ! **.. وهكذا أخذت أفيق رويدا من الصدمة التى أصابتنى ، حتى اذا قدر لى - بعد سنوات - أن ألتقى بالملحق التجارى بالمفوضية النمسوية - وكان شابا بولندى الأصل - وجدتنى أسأله عن أسرة ذلك الشاب الذى شاطرته الفراش ذات ليلة ، فأجابنى بأن أحد أفراد الأسرة انتحر منذ عشر سنوات ، فى (مونت كارلو) !!**

«وتلقيت النبأ دون مادهشة،ودون أن يثير فى نفسى أى ألم، بل لعلنى أحسست براحة لسماعه .. فليس من داع لانكار الأنانية ! .. اذ أن موت ذاك الشاب قضى على كل احتمال للقائه مرة أخرى ، وبذلك لم يعد ثمة شاهد على ذنبى سوى ذكرياتى الخاصة ! .. **وهكذا أصبحت منذ ذلك الحين أكثر طمأنينة .. فليست الشيخوخة فى حقيقة أمرها سوى المرحلة التى يجب أن نحيا فيها بلا خوف من الماضى !**

« لعلك تفهم الآن سر رغبتى المفاجئة فى أن أقص عليك حياتى الماضية .. فعندما سمعتك تدافع عن مدام « هنرييت »

وتصر فى ثبات على أن أربعا وعشرين ساعة تستطيع أن تغير حياة أية امرأة ، تغييرا كاملا ، شاملا ، أحسست بأننى المعنية بهذا الكلام ! .. وشعرت بأننى مدينة لك بالشكر ، اذ رأيت نفسى لأول مرة - فى الواقع - أقف خلف رجل يدافع عنى . لهذا فكرت فى أننى قد أفضفض عن نفسى بالاعتراف ، فينزاح عنى الحمل الثقيل الذى يرزح ماضى حياتى تحته ! .. أجل ، ينزاح الذنب الذى يلاحق حياتى دون ما هوادة .. وبذلك ، قد يغدو فى وسعى أن أعود غدا الى قاعة اللعب - التى التقيت فيها يوما بالنصيب الذى أراده لى القدر - دون أن أشعر بحقد على ذلك الشاب ، ولا على نفسى !

« أجل ، خطر لى ان الاعتراف كفيل بأن يزحزح الصخرة الجاثمة على صدرى ، فتسقط بكل ثقلها على الماضى وتدفع به الى ما يشبه الجب .. وهناك ، تظل قابعة فوقه ، تحول بينه وبين اليقظة ، على الدوام !

« كانت سعادة - بالنسبة لى - ان تمكنت من أن أروى لك كل هذا .. لقد نفست الكرب عن نفسى ، وأوشكت أن أهنأ .. وانى لأشكرك ! »

* * *

• **ونهضت** واقفا اذ ذاك ، وقد أدركت انها فرغت من قصتها . وحاولت فى حرج أن أسرى عنها . وبدا كأنها قرأت ما جال بخاطرى ، فبادرت قائلة : « لا ، أرجو أن لا تتكلم .. لا أريد أن تجاملنى ، أو تعقب بقول .. ألا شكرا لك اذ أصغيت لى .. وفى رعاية الله ! »

وكانت واقفة أمامى ، وقد بسطت راحتهــا لتودعنى ٠٠ وتطلعت دون ماتعمد الى وجهها ،فاذا أسارير هذه المرأة العجوز - التى كانت تقف أمامى فى استحياء يمازجه بعض الحرج - تثير العطف فى قلبى ٠٠ ولست أدرى ما الذى بعث فجأة حمــرة منفعلة ، كست ذلك الوجه حتى منابت الشعر الأبيض ٠٠ أهو صدى العاطفة الخابية ، أم هو الارتباك ؟ ٠٠ ما كان أشبهها اذ ذاك بفتاة تضطرب فى خفر من ذكرياتها ، وتشعر باستحياء من اعترافها !

وأحسست بانفعال ساورنى - على الرغم منى - وبرغبــة طاغية فى أن أصارحها بما أكنه لها من اجلال ٠٠ ولكن الكلمات احتبست فى حلقى الجاف ، فلم أملك سوى أن أنحنى أمامها فى احترام بالغ ، وأن أقبل فى توقير يدها المتغضنة ، التى سرت فيها رجفة خفيفة ، فبدت كأوراق الشجر ٠٠ فى الخريف !

تمت

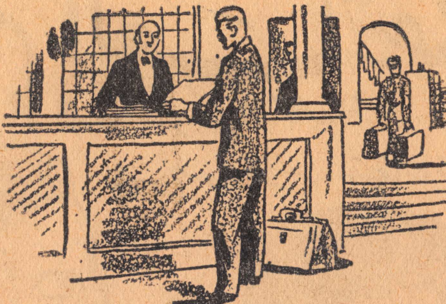
الأم العاشقة!

قصة طويلة كاملة

للكاتب النمسوي الأشهر ستيفان زفايج



LE BRULANT SECRET



الفصل الأول

• **انبعث** من القطـــار صـــفير أجش عندما وصل الى محطة (سيمرنج) (١) ولم تمض دقيقة حتى كانت عربات القطـــار السوداء واقفة تحت ضوء السماء المائل الى لون الفضـــة .. ولفظت العربات خليطا من الأشخاص ، وابتلعت خليطا آخر . وتصاعدت أصوات منفعلة هنا وهناك ، ثم أرسلت القـــاطرة صفيرها مرة أخرى ، وجذبت العربات الداكنة تباعا فى جلبة ، وما لبثت أن غابت بها فى مدخل النفق . ثم عاد الهدوء يسيطر على المكان المترامى الأطراف ، وقد انجلى مرآه بعد أن خلصت الريح جوه من الدخان .

وكان بين المسافرين الذين هبطوا من القطـــار ، شاب لفت الأنظار اليه بلباسه الذى كان ينم عن ذوق سليم ، وبرشاقة مشيته غير المتكلفة . وأسرع هذا الشاب ـ مستبقا غـــيره ـ فاستقل عربة الى الفندق . وانطلق الجوادان يصعدان الطـــريق الجبلى فى غير عجلة .. وكان الهواء مشبعا بنسائم الربيـــع ،

---

(١) (سيمرنج) : المصيف الجبلى لمدينة (فيينا) عاصمة النمسا

بينما سبحت فى السماء سحب بيضاء ـ لا يرى لها مثيل الا فى شهرى مايو ويونيه ـ وقد راحت تتسابق وتتلاحق ، كأنها رهط من الرفاق تراه أبدا فتيا طائرا ٠٠ فهى تركض لاعبة فى القبة الزرقاء ، ثم تختفى فجأة خلف الجبال الشامخة ، وهى تتعانق ثم تفترق ، وهى حينا مطوية كالمناديل وحينا منشورة كالعصائب ، ثم لا تلبث ـ فى النهاية ـ أن تلوذ بقمم التلال ، فتتوجها بقبعات بيضاء ! ٠٠ وسرت فى الريح العالية حركة مضطربة عنيفة ، ارتجفت لها الأشجار التى كانت لا تزال مبللة بالمطر ، فنفضت ـ فى ارتجافها ـ عن نفسها قطرات لا حصر لها ، راحت تتناثر كالشرر اللامع ٠ وكان يبدو فى بعض الأحيان ان عبير الجليد يجتذب من أعالى الجبال لفحات رطبة ، فكان المرء يستشعر فى الهواء الذى يتنفسه نسيما عليلا، وان كان لاذعا فى الوقت نفسه ٠٠ كان كل شىء فى الهواء وفوق الأرض فى حركة ، وفى غليان ولهفة ! ٠٠ واذ فرغ الجوادان من الطريق الصاعد ، انطلقا فى جرى سهل خفيف ، ووقع سنابكهما يسمع على بعد ٠

* * *

◆ **وكان** أول ما فعله الشاب اذ بلغ الفندق ، أن اطلع على قائمة أسماء النزلاء ٠ وما أن فرغ من قراءتها حتى شعر بخيبة أمل ، وتساءل لتوه فى قلق : « فيم اذن أنا هنا ؟ ٠٠ ان وجودى فى الجبل وحيدا ، دون صحبة ، لأسوأ من وجودى فى المكتب ٠٠ لابد أنى حضرت قبل الوقت الملائم أو بعده ٠٠ ان الحظ دائما يجانبنى فى اجازاتى ٠٠ لست أعرف اسما واحدا بين هؤلاء النزلاء ٠٠ لو كانت هناك بعض النساء ـ على الأقل ـ لكان ثمة احتمال فى الاستمتاع بشىء من اللهو ٠٠ ولو كان لهوا بريئا ! ٠٠ حتى لا ينقضى هذا الأسبوع فى كآبة مريرة ! »

كان ذلك الشاب «بارونا» من أولئك النبلاء النمسويين الذين

أصابوا بعض الجاه فى المنـــاصب الحكومية ، اذ كان موظفا فى احدى الوزارات ٠٠ وما كان ثمة داع يدعوه الى هذه الاجازة ، سوى ان جميع زملائه كانوا قد حصلوا فى هذا الفصل الربيعى على عطلات لمدة أسبوع ، فلم يشأ أن ينزل للحكومة عن حقه فى عطلة مشابهة ! ٠٠ ومع ان النزعة الفردية لم تكن تعوزه ، الى حد ما ، الا انه كان اجتماعيا بفطرته ، وكان لهـــذا مرغوبا ، ومرموقا فى كافة الأوساط ، كما كان يشعر تماما بأنه عاجـز عن احتمال العزلة، والبقاء وحيدا مع نفسه ، فكان يتجنب ـ ما استطاع ـ مثل هذه اللحظات ، لأنه لم يكن راغبا بحال فى أن يستزيد معرفة بذاته ! ٠٠ كان يعرف أنه فى حاجة الى الاتصال بالناس ، لكى يصقل مداركه ، ولكى يذكى فى قلبـــه الدفء والنزوات ٠٠ وكان يؤمن بأنه لو ترك لنفسه ـ وحيدا ـ لفقد قيمته وحيويته ، كعود الثقاب اذا أقصى عن علبته !

ومضى يذرع الردهة الخالية من الناس فى ضيق واستياء ، وهو يقلب الصحف بين يديه حينا دون ما غاية ، أو يعزف على « بيانو » قاعة الجلوس لحنا من ألحان « الفالس » ، دون أن توفق أصابعه الى اخراج النغم الصحيح ٠٠ وما لبث ـ أخـيرا ـ أن جلس فى أحد الأركان ، وقد استولى عليه الضـجر ، وراح يتأمل الظلمة وهى تهبط وئيدة ، والضباب وهو يتصاعد من أشجار الصنوبر فى شكل بخار سنجابى ٠٠ وهكذا قضى ساعة ملولا ، متوتر الأعصاب ٠٠ ثم دلف الى قاعة الطعام ٠

ولم يكن قد شغل من موائد قاعة الطعام سوى عدد قليل ، فألقى عليها نظرة عاجلة ، ولكن ، لا جدوى ٠٠ لم يكن يعرف أحدا البتة ، اللهم الا ٠٠ آه ، هذا الشخص الجالس هناك (و رد اذ ذاك تحيته فى غير اكتراث) ٠٠ انه رجل ممن يعيشون لمزاجهم ! ٠٠ وهذا أيضا وجه من الوجوه التى عرفها بالمصادفة العابرة ! ٠٠ وفيما عدا ذلك لم تكن ثمة امرأة يمكن أن يؤمل

فى أن تكون له معها ٠٠ ولو مغـــامرة عابرة ! ٠٠ ومن ثم بدأ صبره ينفد !

وكان البارون من الرجال الذين يدينون بالكثيرمن التوفيق لوسامة وجوههم،والذين هم فى كل لحظة على أهبة لقاء جديد ، وتجربة غرامية جـديدة ٠٠ **أولئك الذين أوتوا استعدادا لأن يغوصوا ـ فى كل وقت ـ فى مجاهل أية مغامرة ، والذين لا يفاجأون بشىء ما ، لأنهم يحسبون لكل شىء حســابا ، وهم يمضون فى الحياة ملتمسين الصيد فى كل آن ٠٠ أولئك الذين لا تفلت منهم فرصة واحدة،لأن نظرتهم الأولى تنفذ فاحصة الى أعماق الاحساس الجنسى فى قلب كل امرأة ، دون أن يفرقوا بين زوجة صديقهم والخادم التى تفتح لهم الباب !**

وعندما يطلقون ـ فى النمسا ـ اسم « صيادى النساء » على هذا الصنف من الرجال ، فى ازدراء مصـطنع ، فانهم يفعلون ذلك دون ادراك لما ينطوى عليه هذا التعبير من حقائق ايجابية٠ اذ أن كل غرائز الصيد من تشمم ، واهتياج ، وجبروت عقلى ، تتفاعل فى أسلوب هــؤلاء الرجال المتربصين دوما لاقتنــاص الفرص !٠٠ ان الشهوة تتملكهم فى كل وقت ٠٠ شهوة ليست من شهوة المحب فى شىء ، وانما هى شهوة المقامر ٠٠ الشهوة الهادئة ، الرزينة ، التى تزن الأمور وتدفع فى الوقت ذاته الى الخطر ! ومن هؤلاء الرجال من أوتوا صلابة غير مألوفة ، تظل تلازمهم حتى بعد أن يتجاوزوا سن الشباب ٠٠ **فهم يقضون كل حياتهم فى ارتقاب المغامرة الأبدية ، ويتجزأ يومهم الى عديد من الحوادث الحسية التافهة٠٠نظرة عابرة ، أو ابتسامة خفية ، أو لمسة بالركبة أثناء الجلوس وجها لوجه٠٠كما تنقسم سنتهم الى عديد من أمثال هذا اليوم ٠٠ فالحـادث الحسى ـ عندهم ـ هو النبع الخالد الذى لا ينضب معينه ٠٠ ينهلون منـه وتلتهب به حياتهم !**

***

• **هكذا** تبين البارون لفوره أن لم تكن هناك امرأة !٠٠ ولا حتى زميلة ٠٠ فتناول صحيفة ، وترك بصره يتسلل فى ضيق بين سطورها ، ولكن أفكاره كانت مشلولة ، تتخبط مع الكلمات كالرجل الثمل ٠ وفجأة سمع خلفه حفيف ثوب ، وصوتا يشوبه شىء من الغضب ، يقول بالفرنسية فى لهجة واهنة : « كفى يا ادجار ٠٠ صه ! » ٠ وحف ثوب من الحرير بطرف المائدة التى كان يجلس اليها ٠٠ ولمح امرأة بديعة القوام ، وفى أعقابها طفل صغير شاحب ، فى لباس من المخمل الأسود ، تطلع اليه بفضول ٠ وجلس القادمان متقابلين الى مائدة كانت محجوزة لهما ٠٠ وكان الطفل يحاول أن يلتزم هدوءا يتعارض مع القلق الذى كان يتبدى فى عينيه السوداوين ٠٠ أما السيدة ـ وما كان البارون ليهتم بسواها ! ـ فكانت ترتدى ثيابا يتجلى فيها الحرص على الأناقة ٠ وكانت ـ فوق هذا ـ من طراز يحبه كثيرا ٠٠ من اولئك اليهوديات الممتلئات الأجسام فى غير بدانة ، وقد أوشكت أن تتجاوز مرحلة النضج ٠ وكانت تبدو مرهفة الأعصاب ، ولكنها تحاول اخفاء انفعالها وراء مظهر آس مثير !

ولم يستطع البارون ـ فى البداية ـ أن يرى عينيها ، ولكنه أعجب بتقوس حاجبيها اللذين استدارا فى رفق ، وتماسا مسا خفيفا فوق أنف صغير ، مما نم فى صراحة عن عنصرها اليهودى ، وان أضفى ـ بجلال مظهره ـ على المنظر الجانبى لوجهها (البروفيل) رواء يجتذب النظر !٠٠ أما شعرها فكان ـ ككل ما فى هذا الجسم من مفاتن الأنوثة ـ ذا بهاء ملحوظ ٠ وكان احساسها بأنها موضع الاعجاب البالغ يثير فى نفسها زهوا يضفى على جمالها كبرياء ضافية !

وطلبت المرأة الطعام بصوت خافت ، ثم نبهت الطفل ـ مرة أخرى ـ الى التزام الهدوء ، اذ كان يعبث بشوكته محدثا بعض

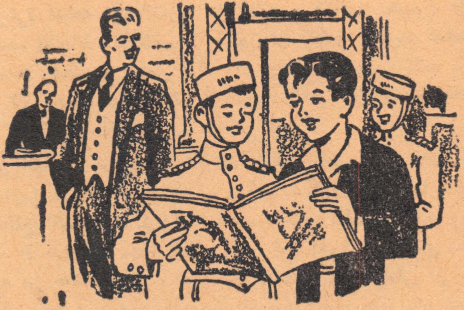
الجلبة ٠٠ حدث كل هذا فى غير اكتراث ظاهر منهـا بنظرات البازون الفاحصة والحذرة ٠٠ بل لقد تظاهرت بأنها لم تفطن الى وجوده ، وان كان انتباهها الى نظراته اليقظة هو الذى حملهـا - فى الواقع - على هذا التحفظ الذى نم عن اهتمام !

وفجأة ، أشرق وجه البارون بعـد طول عبـوس وتجهم ، فنشطت أعصابه الهاجعة ، وتبـددت عن جبينه التجاعيد التى رسمها التبرم ، واستقامت عضلاته ، فاعتدل قوامه ، وشـع الضوء فى عينيه ٠ والواقع أنه كان يشبه الى حـد ما اولئك النساء اللائى يحتجن الى وجود رجل بجانبهن ، ليبرزن كل ما فى كيانهن من قـدرة وسلطان ! ٠٠ كان يفتقر الى حافز حسى لكى يبدى كل ما أوتى من طاقة ونشاط ٠٠ لقد تشمم الصائد رائحة الصيد ، فتحفزت عيناه وراحتا تتصديان لنظرات المرأة ٠٠ وقدر لهذه النظرات أن تلتقى - بين حين وآخر - بنظراته ، فى لقاءات كطرفة العين ، وهى تومض فى اضطراب وتردد ، دون أن توحى اليه قط بجواب واضح ! ٠٠ وخيل اليه انه لمح على شفتيها وميض ابتسامة توشك أن تشرق ٠٠ بيد ان هـذا كله لم يكن سوى حدس غير مؤكد ٠ وكانت الحيرة التى يخلقها هذا الابهام هى التى تستفزه وتستحثه ٠٠ وما كان ثمـة ما يوحى بالأمل ، اللهم الا تلك الطريقة التى كانت المرأة لا تفتأ توجه بها نظراتها نحوه ، اذ كانت تنم عن مقاومة وعن حـيرة فى آن واحد ! ٠٠ كذلك التمس الأمل فى الطابع الذى كان يطبع حديثها المصطنع مع الطفل ٠ وكان هـذا الحديث خليقاً بأن يسمع دون ما ريب ، فلقد لاح له ان التحفظ المتكلف الذى استدعاه اصطناع الهدوء ، كان يكشف عن بداية قلق وضيق ٠٠ وكان هو الآخر منفعلا ٠٠ لقد بدأ الصيد !٠٠ ومن ثم تلكأ فى عشائه ليطيل بقاءه ، وظل طوال نصف ساعة لا يحول نظره عن المرأة ، حتى لكأنه يرسم فى مخيلته كل قسمة من قسمات

وجهها ، ويلمس خفية كل جزء من جسمها المتفتح للحياة !

وكانت الظلمة الكثيفة قد هبطت فى الخارج ، وأخذت الأشجار ترتجف - كأنها أطفال استولى عليهم الوجل - كلما مدت نحوها السحب المثقلة بالمطر أيديها القاتمة ٠٠ وما لبثت الظلمة أن أخذت تغزو القاعة شيئا فشيئا ٠٠ وبدا على الرجال ضيق متزايد من جراء الصمت ٠ ٠وغدا حديث الأم مع طفلها أكثر تكلفا ، حتى أدرك البارون أنه يوشك أن ينتهى٠٠وحينئذ قرر القيام بمحاولة ، فنهض - وكان أول من نهض من القوم - واتجه فى خطوات وئيدة نحو الباب ٠ وفى اللحظة التى حاذى فيها السيدة ، تعمد أن يوجه بصره الى الردهة ٠٠ وفجأة التفت خلفه كما لو كان قد نسى شيئا ٠٠ واذ ذاك لمحها تتأمله بعينين مفعمتين بالاهتمام !

وانتظر فى الردهة ، فما لبثت أن أقبلت ممسكة بيد طفلها ٠٠ وقلبت - فى طريقها - بعض المجلات التى كانت على منضدة فى صدر القاعة ، وعرضت على الطفل بعض الصور ، واتجه البارون صوب المنضدة ، وكأنه يريد أن يتناول احدى المجلات، وهو - فى الحقيقة - يبغى أن ينفذ الى أعماق عينيها ، ولعله طمع فى أن يجاذبها الحديث ٠٠ ولكنها أدارت ظهرها - اذ رأته مقبلا - وربتت كتف ابنها قائلة له بالفرنسية : « هيا ، يا ادجار ، الى الفراش ! » ٠٠ ومضت غير عابئة بشىء ، فشعر البارون بشىء من خيبة الأمل وهو يراها تنصرف٠٠فقد حسب انه لن يلبث أن يتعرف بها فى ليلته تلك ، ولكن هذه الطريقة المباغتة - التى سلكتها فى الانصراف - أيقظته من أحلامه وأوهامه ، ومع كل ذلك فان هذا التمنع كان ينطوى على لذة ، كما أن الحيرة والغموض اللذين أحاطا بالبارون ، أذكيا شوقه ٠٠ فقد أحس بأنه عثر - أخيرا - على « زميل » ينازله ، وان بوسعه الآن أن يبدأ المغامرة !



الفصل الثانى

◆ ما أن ولج البارون القاعة ، فى اليوم التالى ، حتى رأى ابن الحسناء المجهولة يتحدث بصوت مرتفع مع الغلامين المنوط بهما خدمة المصعد ، ويريهما صورا فى كتاب من كتب « كارل ماى » .. ولم تكن أمه هناك ، ولعلها كانت لا تزال مشغولة بزينتها ! .. واذ ذاك فقط ، أخذ البارون يتأمل الطفل للمرة الأولى .. كان حدثا خجولا ، عصبيا ، ناقص النمو ، يناهز الاثنى عشر عاما ، بليد الحركة ، ذا عينين سوداوين غائرتين .. وكان - ككثير من الاحداث فى هذه السن - يبدو كمن مسه شىء أفزعه .. وكأنه اختطف فجأة اثناء نومه ليوضع فى وسط غريب عنه ! .. ولم يخل وجهه من جمال ، وان لم يكن قد استكمل قسمات محددة بعد ، ولا ارتسمت عليه من آثار النضال بين الطفولة والرجولة سوى الطلائع الأولى .. كان كل شىء فيه أشبه بالعجينة التى دفعت الى الفرن دون أن تتخذ أى شكل معين واضح ، ولا أية خطوط تميزها .. فضلا عن أنه كان فى تلك السن المتقلبة ، التى لا ينعم فيها الأحداث بملابس تلائمهم تماما ، فالأكمام والسراويل فضفاضة ، تزيد سعتها عما يلزم للأطراف الهزيلة كى تتحرك .. وهى أيضا السن التى لا يكون فيها لدى الصبية من الغرور ما يحفزهم على العناية بمظهرهم الخارجى !

وكان سلوك الغلام فى تنقله هنا وهناك - دون أن يدرى ماذا يصنع - يثير الاشفاق .. كان الجميع يضيقون به فى الواقع .. فهو حينا يضايق البواب بأسئلته فيبعده عنه ، وحينا آخر يضايق القادمين والخارجين ، عند باب الفندق .. ومن الجلى أنه كان يفتقد وجود صديق معه ! .. ومن ثم كانت حاجته

الصبيانية للثرثرة تدفعه الى التقرب من الخدم ، فكانوا يجيبون على أسئلته ، كلما اتسع وقتهم للاجابة ، ولكنهم لا يلبثون أن يقطعوا الحديث عندما يظهر أحد الكبار ، أو عندما يقتضيهم العمل تركه •• وأخذ البارون يراقب ـ فى ابتسام واهتمام ـ ما كان يحدث لهذا الغلام البائس ، الذى كان يدفعه الفضول الى كل شىء ، والذى كان كل انسان يتهرب منه فى عداء !

والتقى بصر البارون بنظرة من نظرات الغلام الفضولية ، ذات لحظة ، ولكن العينين السوداوين ارتدتا فى خـوف ووجل ـ فور شعورهما بانهما ضبطتا متلبستين بالتطلع المتسكع ـ وتوارتا تحت الجفنين المغمضين •• وراق للبارون ذلك الأمر •• اذ بدا يهتم بهذا الغلام الذى كان الخوف هو الذى أحاله بلا شك الى ما هو عليه من حياء وخجل ، ثم ساءل نفسه : « ألا يمكن أن يكون هـذا الصبى وسيطا سريعا بينه وبين السيدة الغريبة ؟ •• مهما يكن من أمر ، فعلى المرء دائما أن يحاول ! » •• ومن ثم لجأ ـ وهو يتظاهر بأنه غير متعمد ـ الى تعقب الغلام الذى اندفع نحو الباب وأخذ يداعب جوادا أبيض ، ويتحسس أنفه الوردى ، فى تعطشه الصبيانى الى الحنان •• الى أن أبعده الحوذى ـ بدوره ـ فى غلظة ، دون أن يدع له فى الواقع فرصة •• وأخذ الصغير يتسكع هنا وهناك ـ فى ضيق وارتباك ـ وقد غاض البشر من عينيه ، وبدا عليه شىء من الكآبة ••

وسأله البارون فى لهجة اصطنع فيها المرح قدر ما اسـتطاع : « هل أنت مسرور هنا يا فتى ؟ »

واحمر وجه الغلام حتى غدا فى لون الجمر ، وحدق فيه بقلق ، وقد بدا عليه الخوف ، ثم ضم يديه الى جسمه ، وأدار رأسه يمنة ويسرة فى ارتباك • كانت هذه أول مرة يحادثه فيها شخص غريب •• وأخيرا قال : « نعم •• أشكرك » •• وكان هذا جل ما استطاع أن يحمل نفسه عـلى قوله •• بل ان الكلمة الأخيرة لم تنطلق من فمه الا بعناء !

وقال البارون ضاحكا : « يدهشنى قولك ، فان هذا المكان كئيب ، لا سيما بالنسبة لرجل صغير مثلك •• فماذا تفعل طوال نهارك ؟ »

وكان الغلام لا يزال مضطربا ، حتى لقد عجز عن أن يجد جوابا حاضرا •• أمن الممكن حقا أن يكون هذا السيد الأنيق ـ الذى لا يعرفه ـ راغبا فى أن يتحدث اليه ، وهو الذى لا يهتم به أحد ؟ •• وبعثت هذه الفكرة فى نفسه خجلا وزهوا فى آن واحد •• وتمالك نفسه فى عناء ، لكى يجيب قائلا : « اننى أقرأ •• كما اننا كثيرا ما نتمشى متريضين •• وأحيانا أخرج وأمى فى عربة للتنزهة •• اننى هنا لأسترد قواى ، فقد كنت مريضا ، وقال الطبيب أن لابد لى من أن أبقى طويلا جالسا تحت أشعة الشمس ! »

قال الغلام هـذه الكلمـات الأخـيرة وقد بدأ يشعر بثقة فى نفسه •• فان

الصغار يعتزون دائما بالمرض ، اذ يدركون ان الخطر يرفع من قيمتهم فى أنظار اهلهم ٠٠ وقال البارون معلقا على عبارة الصبى :

ـ نعم ٠٠ ان الشمس مفيدة لك ، ولن تلبث أن تكسبك سمرة عما قريب ٠٠على انك لايجب أن تظل جالسا تحتها طوال النهار ٠٠ فان فتى مثلك يجب ان يجرى ، وأن يفيض بالنشاط ، وأن يرتكب بعض السخافات ايضا ! ٠٠ يبدو لى انك أكثر رزانة مما يجب ٠٠ انك بكتابك الكبير ، السميك ـ الذى تتأبطه ـ تشبه المومياء ٠ واننى لاذكر كيف كنت شيطانا فى مثل سنك ! ٠٠ وكنت أعود الى المنزل فى كل مساء ممزق السراويل ٠٠ لا يجب أن يغلو الانسان فى التعقل !

واضطر الصبى الى الابتسام رغما عنه ، وسرعان ما تلاشى خوفه ٠٠ وود ان يجيب بشىء ، ولكن هذا بدا ـ فى نظره ـ مجانبة للأدب ، واندفاعا لا يليق فى حضرة هذا السيد الجميل ، الغريب عنه ، الذى يحادثه بمثل هذه اللهجة الودية ٠٠ ما سبق له قط ان تبسط مع غريب بهذا القدر ٠٠ واحس بالحيرة تداخله ، فان السعادة والخجل أفعما نفسه باضطراب بالغ ٠٠ وود لو طال الحديث ، ولكنه لم يجد شيئا يقوله ٠٠ ولحسن الحظ اقبل فى ذلك الوقت كلب الفندق الأصفر الكبير ـ وهو كلب من نوع « سان برنارد » ـ وأخذ يتشمم الشاب والطفل ، مستسلما لمداعبتهما ، راضيا بها ٠٠ فقال البارون : « أتحب الكلاب ؟ »

ـ آه ! ٠٠ نعم ، كثيرا ٠٠ ان لدى جدتى كلبا فى دارها ببادن ـ على مقربة من فيينا ـ وعندما نقيم فى هذه « الفيلا » يلازمنى الكلب طوال النهار ٠٠ ولكن هذا لا يكون الا فى الصيف فقط ٠٠

ـ ونحن أيضا عندنا فى ضيعتنا أكثر من أربعة وعشرين كلبا على ما أذكر ٠٠ سأعطيك واحدا منها ٠٠ كلبا أشقر ذا أذنين بيضاوين ، صغير السن جدا ٠٠ فهل تحب هذا ؟

فاحمر وجه الصبى من الفرح ، وقال على الفور ، فى لهجة من يتحرق شوقا : « بلا شك ! » ٠٠ ثم طرأت على باله فكرة أضفت على ملامحه جوا من الفضول وشبه الخوف ، فأردف قائلا : « ولكن « ماما » لن تسمح بهذا ، فهى تقول انها لا تريد كلابا فى البيت ، لأنها تسبب كثيرا من المضايقات ! »

وابتسم البارون ، اذ تحول الحديث ـ أخيرا ـ الى الأم ، وقال : « وهل امك قاسية الى هذا الحد ؟ »

فتريث الصبى لحظة مفكرا ، وتطلع الى السيد وكأنه يتساءل عما اذا كان له أن يثق فى هذا الشخص الغريب ، ثم أجاب فى حـذر : « لا ٠٠ ليست أمى قاسية ، بل انها تسمح لى بكل شىء الآن ، لأنى مريض ٠٠ ولعلها تسمح لى كذلك بأن يكون لى كلب »

ـ هل ترى أن أطلب منها أن تاذن لك ؟

فهتف الصبي وقد استخفه الفرح : « آه ، نعم ·· أرجوك ·· لسوف توافق امي فى هذه الحال بلا شك ·· وما شكله ؟ ·· انه ابيض الأذنين ·· اليس كذلك ؟ ·· هل يعرف كيف يلتقط الاشياء ويحضرها اذا قذفت بها امامه ؟ »

ـ نعم · انه يستطيع أن يفعل كل شيء !

وابتسم البارون على الرغم منه ، اذ رأى الجذوة التى أذكاها تتالق فى عينى الغلام ·· لقد تم الآن قهر الخجل الذى كان يستولى عليه فى البداية ، فتفجر الانفعال الذى كان يكتمه الخوف ·· واذا الطفل الخجول ، المضطرب ، ينقلب فى لحظات الى غلام يطفح بالحيوية الدافقة ، فلم يتمالك البارون ان قال لنفسه : « آه ! ·· ليت أمه على شاكلته ! ·· ليتها تخفى وراء تحفظها مشاعر مشبوبة كهذه ! »

وانطلق الغلام يمطره بأسئلته : « ما اسم الكلب ؟ » ·· قال البارون : « كارو » ·· فهتف الطفل مغتبطا : « كارو ! »

وأخذ يضحك طربا على الرغم من نفسه ، وقد تملكته النشوة لهذا الحادث الذى لم يكن يرتقبه ·· فها هو ذا يشهد شخصا يوليه الاهتمام ويتودد اليه··ودهش البارون ـ من ناحيته ـ لنجاحه السريع ، فقرر أن «يطرق الحديد وهو ساخن!»·· ودعا الصبى الى نزهة قصيرة فى صحبته ، فكاد المسكين يجن بهذه الدعوة ، اذ كان قد قضى الأسابيع يتحرق شوقا الى أن يكون له صاحب ·· وراح يبوح لصديقه الجديد ـ فى سذاجة ـ بكل ما كان هذا يسعى الى معرفته ، عن طريق الاسئلة الصغيرة التى حرص على أن يلقيها عرضا ، وكأنها بنت ساعتها · ومن ثم لم يمض وقت طويل ، حتى كان « البارون » قد عرف كل شيء عن اسرة « ادجار » ·· عرف أن الصبى هو الابن الوحيد لمحام فى (فيينا) ينتمى الى الطبقة الموسرة من يهود النمسا ·· وعرف كذلك ان الأم ليست مغتبطة باقامتها فى (سيمرنج) ، وانها كانت تشكو افتقارها الى صحبة محببة حولها ·· وعندئذ سأله عما اذا كانت أمه تحب أباه كثيرا ؟·· فأجابه الغلام بأن ليس كل شيء بينهما على وفاق تام !

وخجل من نفسه ، أو كاد يخجل ، لانتزاعه كل هذه الاسرار العائلية من الغلام ، بتلك السهولة ·· والواقع ان « ادجار » كان مزهوا للغاية ، اذ رأى حديثه جديرا باهتمام أحد الكبار ، فلم يكتم عن صديقه الجديد شيئا ·· كان قلبه الصغير يخفق كبرياء وتيها ، كلما فكر فى أن الملأ يرونه فى صحبة حميمة مع أحد الكبار ، اذ كان البارون يضع ذراعه على كتفه ، وهما يسيران معا ·· وشيئا فشيئا نسى « ادجار » انه لم يكن سوى غلام ، فانطلق فى الكلام بدون تحفظ ، كما لو كان يتحدث الى صبى فى مثل سنه !

ولقد أثبت الحديث أن « ادجار » كان على جانب كبير من الذكاء ·· بل ان

عقله كان يسبق سنه - بعض الشيء - كاكثر الصبية الذين تتنابهم الامراض والعلل ، والذين يعاشرون الكبار ويقتصرون على مجتمعهم زمنا طويلا .. وكانت عواطفه - حبا كانت أو بغضا - تستعر الى درجة غير عادية .. اذ لم يبد عليه قط اى ميل للقصد او الاعتدال ، بل كان اذا تكلم عن شخص ، أو عن شيء ، اندفع فى اظهار حبه له بتحمس عارم ، أو فى اظهار كراهيته بشكل عنيف ، فيتجهم وجهه ويتجلى على اساريره الشر .. كان ثمة شيء من الضراوة والتهور يصبغ حديثه بصبغة من التطرف والتعصب ، لعلها كانت من آثار المرض الذى شفى منه اخيرا .. وما كان نزقه وتطرفه سوى انزعاج مكبوت ازاء عواطفه الجامحة التى كان يلاقى فى كبحها عناء ، أى عناء !

★ ★ ★

◆ ولم ينقض نصف ساعة ، حتى كان البارون قد سيطر تماما على هذا القلب المتأجج ، المضطرب .. فليس أسهل من خداع طفل من أولئك السذج الذين قلما يسعى احد الى التودد اليهم .. لم يكن على البارون سوى أن يذكر ماضيه هو ، ليتبين انه كان من الطبيعى جدا أن لا يرى الصبى فيه سوى رفيق .. فلم يلبث الغلام ، بعد دقائق ، أن فقد الاحساس بالفارق الذى كان يفصل بين عمريهما ، وغدا سعيدا اذ عثر - فجأة ، وفى هذا المكان المنعزل - على صديق ، وأى صديق !.. لقد نسى الى جواره صبية « فيينا » جميعا ، بأصواتهم الرفيعة الحادة ، وثرثرتهم الجوفاء .. كانت هذه الساعة الفريدة كافية لكى تنسيه حتى صورتهم وذكراهم ! .. واتجه بكل عواطفه الدافقة نحو هذا الصديق الجديد .. صديقه الكبير .. وانتشى قلبه زهوا عندما الصديق الجديد .. صديقه الكبير .. وانتشى قلبه زهوا عندما دعاه هذا دعاه هذا الصديق - وهما يهمان بالافتراق - الى العودة فى صباح اليوم التالى ، ثم وهو يلوح له بيده من بعيد ، تماما كما يفعل الأخ حين يودع أخاه .. ولعل هذه اللحظة كانت أسعد اللحظات فى حياة « ادجار » !

وابتسم البارون وهو يرقب الغلام يعدو ذاهبا .. فقد اطمأن الى انه وجد الوسيط المنشود .. كان يوقن من أن الصبى سيقص كل شيء على امه ، وانه سوف يعيد على سمعها كل كلمة .. وحينئذ تذكر البارون فى غبطة انه تحدث كثيرا مع ادجار عن « امه الحسناء » ، وانه اطرى فى لباقة تلك السيدة !.. وبدا له جليا أن الوسيط الصغير لن يقعد عن أن يربط بين صديقه وامه ، ومن ثم لم يعد البارون بحاجة الى أن يسعى الى الحسناء المجهولة .. انه يستطيع الآن أن يخلد الى الاحلام ، وأن يتسلى بتأمل المناظر الطبيعية ، وهو مطمئن الى أن يدى الصبى بدأتا تبنيان - فى حمية وحماس - معبرا يقوده الى قلب .. الأم !



الفصل الثالث

• **كانت** الخطة ـ كما تبين « البارون » بعد ساعة واحدة ـ رائعة ، اذ نجحت حتى فى أدق تفصيلاتها • فقد تعمد أن يدخل قاعة الطعام ـ عند العشاء ـ متأخرا ، فبادر ادجار قافزا عن مقعده ، وحياه بحرارة والسعادة تشع من عينيه •• ثم شد كم ثوب أمه ، وتحدث اليها فى حماس ، وهو يشير الى « البارون » بحركات لاحظها الجميع ! •• **وارتبكت السيدة ، واحمر وجهها ، ووبخت طفلها على هذا النزق •• ولكنها ـ رغم كل هذا ـ لم تستطع ان تمنع نفسها من النظر صوب الجهة التى أشار اليها الصبى ، ارضاء له • وانتهز البارون الفرصة على الفور ، فأحنى رأسه باحترام •• وهكذا تم التعارف ، اذ اضطرت السيدة الى رد التحية ، وان حرصت بعد هذا على أن تستبقى وجهها مائلا نحو صفحة الطعام ، متجنبة فى حرص ـ طوال العشاء ـ الالتفات نحو البارون** • أما « ادجار » فكان على النقيض منها ، اذ كانت عيناه تتجهان بلا انقطاع نحو صديقه ! •• بل لقد حاول مرة أن يخاطبه ، رغم ما كان يفصل بينهما من مسافة • بيد

أن أمه لم ترض عن هذا التصرف المعيب ، فلامته عليه بشدة • وما أن انتهى العشاء حتى طلبت اليه أن يذهب الى فراشه ، ولكن همسا ملحا دار بينهما ، انتهى الى السماح له بالذهاب لتحية صديقه • واذ ذاك لاطفه البارون لبضع دقائق بكلمات لمعت لها عينا الصبى مرة أخرى ••

واستدار البارون - على حين غرة - نحو المائدة الاخرى بحركة بارعة ، فهنأ جارته - التى تولاها شىء من الارتباك - بأن أوتيت ابنا على جانب كبير من الذكاء واليقظة ، مطريا الصباح الجميل الذى قضاه معه • وكان « ادجار » واقفا يستمع ، وقد احمر وجهه غبطة وفخرا • وأخذ البارون يستفسر عن صحة الصبى بعدد من الأسئلة ، اضطرت الأم الى أن تجيب عليها • وهكذا انتهيا الى حديث طويل ، انصت اليه الغلام فى اغتباط ، وان التزم نوعا من الاحترام !

وحين قدم البارون نفسه الى السيدة ، خيل اليه أن رنين لقبه أحدث صدى فى نفسها ، اذ عاملته بلباقة بالغة ، رغم تحفظها !•• وما لبثت أن استأذنت فى الانصراف مبكرة ، متعللة بصحة الصبى السيئة • ولكن «ادجار» عارض ملحا ،وقال انه ليس متعبا !•• كان على استعداد للبقاء طوال الليل ، ولكن الأم كانت قد مدت يدها للبارون الذى قبلها باحترام !

ولم ينعم « ادجار » فى تلك الليلة بنوم طيب • فقد عصف بنفسه خليط مضطرب من السعادة واليأس الصبيانيين ، اذ اعترض حياته حدث جديد كل الجدة • فلقد ساهم - للمرة الأولى - فى مصير الاشخاص الكبار ، ومن ثم خيل اليه انه كبر دفعة واحدة !•• ولم يكن قد حظى بصديق فى أى وقت من الاوقات ، اذ نشأ فى عزلة ، وتناوبته الامراض •• كما لم يكن هناك من يشبع حاجته الى العطف والحنان ، اللهم الا أبويه - اللذين قلما كانا يحفلان به - والخدم !•• على أن الناس دائما يسيئون تقدير قوة الحب ، اذ يقيسونه بموضوعه ، وليس

بالحالة النفسية التى تسبقه ، والتى تتمثل فى تلك الفترة الموحشة المظلمة ، التى تخلقها العزلة وخيبة الأمل ، والتى تلاحظ فى كافة ما يعرض للقلب من أحداث كبار !٠٠ فقد كان لدى الصبى فيض من الاحساس المعطل ، والمتحفز ـ فى الوقت ذاته ـ للانطلاق ، فلما ظهر أول مخلوق شعر بأنه جدير به ، انطلق دافقا ٠٠

وأحس « ادجار » ـ فى ظلام المخدع ـ بنشوة من السعادة تمازجها حيرة ٠٠ كان يريد أن يضحك ، ولكنه كان مضطرا الى البكاء ٠ فقد أحب البارون كما لم يحب صديقا من قبل ٠٠ بل كما لم يحب أباه أو أمه ٠٠ أو حتى الله ! ٠٠ كانت كل العواطف التى استشعرها فى سنيه الخاليات ، قد تركزت فى صورة هذا الرجل الذى كان يجهل اسمه منذ ساعات قلائل ! ٠٠ على أنه كان ـ رغم هذا ـ على جانب من الذكاء يجنبه تهيب المجهول ، ويقيه الاستهانة بهذه الصداقة الجديدة ٠٠ لم يكن يثير اضطرابه سوى شعوره بتفاهة قدره وخمول ذكره ، فكان يسائل نفسه : « **أجدير أنا بصداقته ، وأنا بعد غلام لم يجاوز الاثنى عشر عاما ٠٠ ولم أبدأ بعد تعليمى ، وما زلت مضطرا الى أن أذهب للنوم قبل الآخرين ، فى كل مساء ؟!** » ٠٠ هكذا كان يفكر فى ألم : « ماذا يمكن أن أكون عنده ٠٠ وماذا يمكننى أن أعطيه ؟! »

وكان يشقيه عجزه المؤلم عن أن يعبر بطريقة ما عن تعلقه بصديقه ٠ فقد كان أول ما يفعله عادة اذا ما اكتسب صديقا أن يقتسم معه كنوز قمطره ، من طوابع بريد وأحجار التلوين ٠٠ تلك الممتلكات البسيطة التى تعرفها الطفولة ٠ ولكن هذه الأشياء ـ التى كان يعتز بها حتى الأمس ـ أصبحت تبدو له مجردة من كل قيمة ، بل تافهة ومضحكة ! ٠٠ ثم كيف يمكنه تقديم مثل هذه التوافه الى صديقه الجديد ، الذى لا يسمح لنفسه بأن يخاطبه بضمير المفرد اقتداء به ؟ ٠٠ أية وسيلة

لديه يعبر له بها عن مشاعره ؟! .. وأخذ يزداد شعورا بالألم لكونه صغيرا ، لكونه شيئا لما يكتمل بعد .. غلاما فى الثانية عشرة ! .. انه ناقم - كما لم ينقم فى أى وقت - على حداثة سنه ، ويود ، كما لم يود من قبل ، لو أنه صحا فى الصباح التالى كامل الرجولة ، قويا ، كما كان يرى نفسه فى أحلامه !

على أن هذه الافكار القلقة سرعان ما اقترنت بأولى الأحلام الملونة التى يتميز بها عالم النضج الجديد . ونام « ادجار » أخيرا ، وعلى شفتيه ابتسامة . بيد أن ذكر موعد الغد أقض مضجعه ، فاستيقظ فى السابعة من الصباح التالى ، وهو يخشى أن يصل متأخرا . وارتدى ملابسه على عجل ، ثم ذهب ليعانق أمه المندهشة ، التى لم تكن فى العادة تستطيع حمله على مغادرة فراشه الا بمشقه ! .. وقبل أن تتمكن من سؤاله ، كان قد أسرع الى السلم .. وظل يروح ويجىء - نافد الصبر - حتى الساعة التاسعة ، ناسيا فطوره ، غير حافل الا بأن يجنب صديقه مشقة الانتظار .

* * *

◆ وقدم البارون - أخيرا - فى التاسعة والنصف ، فى خطى وئيدة ، غير مكترث بشىء . كان قد نسى الموعد منذ وقت طويل ، ولكنه اذ رأى الصبى يعدو نحوه ، ابتسم - رغما عنه - لهذه اللهفة الزائدة ، وأبدى استعداده للوفاء بما وعد ، فأمسك بذراع الغلام وأخذ يتمشى معه ، وان أبى فى حزم مترفق ان ينطلقا على الفور الى النزهة الموعودة ! .. كان يبدو أنه ينتظر شيئا ما ، أو هذا هو - فى القليل - ما نمت عنه نظراته التى كانت ترقب الباب فى شىء من القلق . وفجأة ، مال بجسمه الى الأمام .. كانت أم «ادجار» قد أقبلت ، فردت تحية البارون ، واتجهت نحو الصديقين .

وابتسمت فى رضى حين علمت بأمر النزهة التى كان الغلام قد أخفى نبأها عنها ، وكأنها سر ثمين جدا ٠٠ وقبلت ـ بعد تردد قليل ـ دعوة البارون لمصاحبتهما فيها !

وسرعان ما عبس وجه « ادجار » ، وعض شفتيه ٠٠ لكم ضايقه أن تصل أمه فى هذه اللحظة بالذات ! ٠٠ انه وحده الذى كان موعودا بهذه النزهة ٠٠ واذا كان قد عرف أمه بصديقه ، فلم يكن هذا سوى نوع من المجاملة لها ،لا رغبة فى اشراك أمه فى صداقته ! ٠٠ واستيقظ فى نفسه شعور يشبه الغيرة ، حين لاحظ تلطف البارون مع أمه !٠٠ وأخذ ثلاثتهم طريقهم الى النزهة ٠ وما لبث اعتداد الغلام بقيمته وبنفوذه المفاجىء ان تضاعف عندما رأى الاهتمام البادى نحوه من البارون ومن أمه ٠٠ فقد كان « ادجار » موضوع حديثهما ، طيلة الوقت تقريبا ٠٠ وكانت أمه تتكلم فى شىء من الحبث عن شحوب الصغير وعصبيته ، بينما كان البارون يعارض مبتسما ، ويسرف فى الثناء على « صديقه » كما كان يدعوه ٠ وكان « ادجار » مغتبطا أشد الاغتباط ، اذ أصبحت له حقوق لم يكن معترفا بها ـ من قبل ـ خلال طفولته ٠٠ أصبح من المباح له أن يتكلم ، فلم يعد السكوت مفروضا عليه ، وانما صار فى استطاعته أن يعبر عن رغبات كانت حتى الآن تقابل أسوأ مقابلة ٠٠ فلا غرابة اذا نما فى نفسه الشعور الوهمى بأنه من الكبار ٠٠ لم تعد الطفولة عنده ـ فى احلام يقظته ـ سوى شىء مضى ٠٠ شىء أشبه بثوب يتخلص منه الانسان ، اذا ما أضحى ضيقا جدا !

وعند تناول الغداء ، لبى البارون دعوة أم « ادجار » ـ التى ازداد تلطفها ـ فجلس الى مائدتها ٠٠ لم تعد صلتهما مجرد تجاور فى الموائد ، بل أصبحا يجلسان وجها لوجه ٠٠ واستحال التعارف صداقة ٠ واكتمل الثالوث ، وأخذت أصوات المرأة والرجل والصبى تمتزج فى انسجام تام !



الفصل الرابع

◆ **بدا** للصائد المتعجل أن الوقت قد حان للانقضاض على صيده ٠٠ فما كان ليقنع بتلاشى الكلفة بين أفراد هذا الثالوث ٠٠ حقيقة أن الحديث على هذا النحو بين ثلاثتهم كان أمرا محببا لديه ، ولكنه لم يكن يرمى الى الحديث فحسب !٠٠ كان يعرف أن الأمور الدنيوية اذا اقترنت بالحيل والمناورات الغرامية تؤخر تفتح أكمام الهوى بين الرجل والمرأة ، وتجرد الكلمات من حرارتها ، والهجوم من لهيبه ٠٠ كان لابد من تفادى أن يشغل الحديث هذه المرأة عن حقيقة مقصد البارون ٠٠ المقصد الذى أيقن من أنها فهمته !

وكان الراجح تماما ، عنده ، أن لهفته اليها لن تبقى طويلا بغير ثمرة ٠ **وكانت هى تجتاز تلك الفترة الحاسمة من الحياة ، التى يساور فيها الندم قلب المرأة ، لبقائها وفية لزوجها الذى لم تحبه – فى الحقيقة – مطلقا ! ٠٠ تلك الفترة التى تبدأ فيها شمس جمالها فى الجنوح الى المغيب ، منذرة بأنه لم يعد لها سوى فرصة أخيرة للاختيار ٠٠ فترة الصراع بين الأمومة والأنوثة ٠٠ هذه الفترة التى تواتى المرأة بعد أن**

تكون قد خالت أن الحياة استقرت نهائيا ومنذ زمن طويل ، فاذا التفكير فى متعها يعاودها من جديد . وللمرة الاخيرة ، تتردد الارادة بين الشهوة وبين الرضى والاستكانة الى الابد ! .. وتضطر المرأة فى هذه الحقبة من حياتها الى ان تتخذ أخطر قرار .. فاما أن تحيا حياتها الخاصة كامرأة ، واما أن تحيا فى أبنائها كأم !

وكان البارون خبيرا بهذه الأمور ، ومن ثم خيل اليه أنه يلحظ عند صاحبته هذا التردد الخطر بين حب الحياة وبين التضحية . كانت دائما تغفل ـ أثناء الحديث ـ الكلام عن زوجها ، الذى كان ، على ما يبدو ، غارقا فى مشاغله الخارجية .. ولم تكن فى أعماق كيانها شديدة التعلق بابنها ! .. كانت عيناه السوداوان تخفيان ضيقا ، تفصح عنه كآبة تكدر صفو شعورها ! .. وقرر البارون أن يشرع فى العمل على الفور ، ولكن مع تجنب كل مظهر ينم عن التسرع .. وكما يلقى الصائد بالطعم الى صيده ليستثير شهيته ويستدرجه ، شاء البارون ان يقابل هذه الصداقة الجديدة بفتور ظاهرى .. ود أن يكون هو المطلوب ، فى حين انه الطالب ! .. فقد عقد العزم على اذلال هذه الكبرياء ، وعلى ابراز الفارق بين مركزه الاجتماعى ومركزها .. كانت تسيطر عليه فكرة غزو هذا الجسم الجميل ، الممتلىء ، المتفتح كالزهرة ، بوسيلة واحدة هى : ابداء كبريائه ، مستعينا على ذلك بما لاسمه من مكانة ارستقراطية مرموقة ، وبفتور واضح فى مظهره !

وما لبثت حمية اللعبة ان استولت على رأسه ، ففرض على نفسه التزام الحذر . ومن ثم لزم غرفته بعد الغداء ، وقد استمرأ الشعور بأن هناك من كان ينتظره ويأسف لغيابه . **ولكن هذا الغياب المتعمد لم يثر اهتمام الشخص المقصود بالذات ، اذ أن السيدة لم تكن لتفطن اليه ! .. ولكنه كان مبعث ألم**

قاس للصبى البائس ·· فقد احس « ادجار » طوال الأمسية بأنه منبوذ ، أو مهمل تماما ·· وقضى ساعات طويلة ينتظر صديقه فى وفاء الأطفال · وكان يخال أن الانصراف ، أو الانشغال بأى عمل ، لا يتفق وواجب الصداقة ، ومن ثم أخذ يسير متثاقلا فى الردهات على غير هدى ، وكلما مضى الوقت ازداد ضيقه ! ·· وكان القلق يحمله على التفكير فى كل احتمال ·· فتصور أن صديقه ربما تعرض لحادث ، أو ان هفوة غير مقصودة بدرت منه فأغضبت الصديق ·· بل انه أوشك على البكاء لنفاد صبره ، وشدة حزنه !

* * *

• **وعندما** قدم البارون فى المساء ـ لتناول العشاء ـ ظفر باستقبال رائع · فقد جرى « ادجار » نحوه ، غير عابىء بأوامر أمه ـ التى نهته ، بصوت مرتفع ـ ولا بدهشة النزلاء الآخرين · وطوق الصبى صدر صديقه بذراعيه الواهنتين فى لهفة ، وهو يصيح فى انفعال : « أين أنت ؟ ·· أين كنت ؟ ·· لقد بحثنا عنك فى كل مكان ؟! » ·· واحمر وجه أمه ، اذ أقحمها فى الأمر بهذا الشكل المعيب ، فقالت له فى غلظة ، بالفرنسية : « كن عاقلا يا ادجار ·· اجلس ! » ·· وكانت تخاطبه بالفرنسية دائما رغم أنها لم تكن تملك ناصية هذه اللغة تماما ، ورغم أنها كانت سريعة الارتباك ، اذا اضطرت الى الحديث عن تفصيلات على شىء من الدقة ! ·· وانصاع « ادجار » للأمر ، ولكنه لم يكف عن توجيه الاسئلة للبارون ، فقالت الأم لصغيرها معاتبة : « لا تنس أن للسيد أن يفعل ما يشاء ·· وربما كانت صحبتنا تضايقه ! »

وهكذا كشفت ـ فى غير حذر ـ عما فى صدرها · وأحس البارون باغتباط ، اذ سلكت نفسها ـ بهذا العتاب ـ فى صحبته ، ومن ثم انقلب العتاب الموجه للطفل الى مجاملة

موجهة للرجل . وعلى الفور ، استيقظت غريزة الصائد الكامنة فى نفسه ، وتملكته نشوة وتحفز لما أصاب من توفيق سريع فى رسم الخطة الصحيحة ، ولشعوره بأن الصيد غدا قريبا جدا من مرمى بندقيته ! .. فأبرقت عيناه ، وجرى الدم خفيفا فى عروقه ، وتدفقت الكلمات من شفتيه دون أن يعرف كيف كانت تتدفق ! .. كان – ككل رجل مشغوف بالعلاقات الغرامية – لا يدرك أنه ما يكاد يروق فى عينى امرأة ، حتى تتأجج مشاعره .. فهو – فى هذا – يشبه الممثل : لا يلتهب الا عندما يرى جمهور النظارة خاضعا لسحره ، منصاعا لسيطرته ! .. وكان يجيد سرد القصص المليئة بالصور الخلابة .. فأخذ ، فى ذلك المساء ، يروى قصصا عن رحلات قام بها للصيد والقنص فى الهند ، بدعوة من صديق له من الطبقة الارستقراطية الانجليزية . وكان يقبل خلال الحديث على احتساء كؤوس الشمبانيا التى راح يطلبها – بين آن وآخر – احتفاء بالصداقة الجديدة ، مما جعله يتجاوز فى الحديث كل ما كان يرتقب من امتاع ! .. والواقع انه كان بارعا فى انتقاء هذا الموضوع مادة لحديثه ، اذ كان المجال فيه واسعا للخيال ، كما انه كان – بما فيه من تجارب خارقة ، وصور نادرة – مثيرا بطبيعته للمرأة . ومع ذلك ، فقد كان « ادجار » أكثر من أمه تأثرا وانبهارا بهذه القصص ، وقد تجلى اغتباطه بها فى بريق عينيه .. اذ نسى الطعام والشراب ، وأخذ يحدق فى وجه الراوية ، وكأنه يقتنص الكلمات من شفتيه ! .. فما كان يحلم يوما بأنه سيرى رجلا عاش فى تلك الاحداث الجسام التى اعتاد أن يقرأ عنها فى الكتب : صيد النمور ، وقصص الرجال ذوى الوجوه البرونزية ، وعجلات « جيدجرنو » – مركبات الحرب لدى الهنود – الرهيبة ، التى تسحق تحتها آلافا من الآدميين ! .. لم يكن يصدق – قبل الآن – أن لمثل هؤلاء الأبطال وجودا حقيقيا ، ولا كان يؤمن

أيضا بوجود تلك البلاد التى يرد ذكرها فى القصص . لذلك أثارت هذه المناسبة فى نفسه اهتماما شديدا ، فلم يكن فى وسعه أن يحول عينيه عن صديقه ، بل علقت نظـراته ÷ وكل ادراكه وحسه ــ بوجه صديقه ويديه .. هذا الرجل الذى قتل نمرا ! .. ولم يكن يجرؤ على توجيه أى سؤال.. وحتى حين استطاع السؤال ، انبعث صوته متهدجا كالمحموم ! وكان خياله السريع يصور له كل مشهد من القصة السحرية .. كان يتمثل صديقه ممتطيا ظهر الفيل فى هودج أرجوانى ، والى يمينه ويساره وجوه برونزية ، فوقها عمائم ضخمة ! .. ويرى النمر وقد لمعت أنيابه بغتة ، وهو يقفز خارج الغابة ، ويثب منشبا مخالبه فى خرطوم الفيل ! .. ثم قص البارون شيئا ادعى الى الاهتمام ، فتحدث عن الحيلة التى يقتنصون بها الفيلة ، اذ يستدرجون صغارها المـرحة الى حفر ، مستخدمين فى التغرير بها حيوانات مسنة مدربة . وكانت عينا الصـبى تتألقان انفعالا ، وهو يتخيل أمامه مدية تلمع وتغوص فى الفريسة !

* * *

• **وما لبثت** الأم أن قالت : « لقد بلغت الساعة التاسعة .. هيا الى النـوم ! » .. فشحب وجه « ادجار » لهذا الانذار الذى بدد سحر المناسبة ! .. **وكم يجد الاطفال فى ارسالهم الى الفراش عقابا قاسيا ، اذ يرون فيه اهانة بالغة توجه اليهم أمام الأشخاص الكبار ، كما يرون فيه دليلا على انهم أضعف وأحط مقاما من أولئك الكبار ! .. ولكم كان أليما أن تعمد أمه ــ فى أكثر اللحظات استثارة لمشـاعره ــ الى حرمانه من معرفة الخاتمة التى انتهت اليها تلك الحوادث الفريدة المشوقة** .. ومن ثم قال لها : « دعينى أستمع لهذه فقط يا ماما .. هذه فقط .. قصة الفيلة .. هذه القصة فقط ! » .. وهم بأن يلحف

فى التوسل ، ولكنه سرعان ما تذكر كرامته كشخص من « الكبار » ، فلم يزد على المحاولة ، مقلعا عن الالحاح ! على أن أمه أبدت فى ذلك المساء صرامة لم يعهدها الصبى من قبل ، اذ قالت : « قلت لا ٠٠ لقد تأخر الوقت ٠٠ اصعد الى غرفتك ، وكن عاقلا يا ادجار ٠٠ سأقص عليك كل القصص التى سأسمعها بحذافيرها » ٠٠ وتردد ادجار ٠ كان من عادة أمه أن تصحبه دائما الى الفراش ٠٠ ولكنه أراد ان يتفادى الحط من قدر نفسه أمام صديقه اذا هو بدا فى مظهر المتوسل ٠٠ وأوعزت اليه كبرياؤه الناشئة بأن يضفى على هذا الرحيل المحزن شكل الطاعة الاختيارية ، فقال : « أصحيح يا ماما انك ستقصين على كل شىء ؟ ٠٠ كل شىء ؟ ٠٠ قصة الفيلة والقصص الأخرى ؟ »

ـ أجل يا بنى ٠٠ بعد قليل ٠٠

ـ فى هذه الليلة بالذات ؟

ـ نعم ، نعم ٠٠ أما الآن ، فاذهب الى فراشك !

وعجب « ادجار » من نفسه ، اذ استطاع أن يمد يده ـ دون أن يحمر وجهه ـ ليحيى البارون وأمه ، وهو يخنق تنهداته فى صدره ، حتى لا ينفجر بالبكاء ٠ ووضع البارون أصابعه فى شعر الصبى ملاطفا ٠ وارتسمت ابتسامة مغتصبة على وجه الصغير المغيظ ٠٠ ولكنه ما لبث ان هرول نحو الباب ٠٠ ولو لم يفعل لشوهدت عبرات سخينة تنساب على خديه !

* * *

◆ **بقيت** الأم بعض الوقت فى قاعة الطعام مع البارون ، بعد انصراف ابنها ٠ على ان الرجل لم يعد يتكلم عن الفيلة ، ولا عن الصيد ٠٠ وساد حديثهما ـ منذ مغادرة الغلام القاعة ـ بعض الاضطراب والضيق ٠٠ وأخيرا ، انتقلا الى الردهة ، وجلسا فى أحد الأركان ٠ وهناك ، لم يلبث

البارون ان استعاد ثباته وبدا متزايد الحمية ، كما كانت هى أيضا منتشية بفعل الشمبانيا ، فلم يلبث الحديث ان جنح بهما الى اتجاه خطر ..

ولم يكن البارون - فى الواقع - بالرجل الذى يوصف بالجمال .. ولكنه كان فى فتوة الشباب ، تبدو عليه سمة الرجولة الكاملة ، ينم عنها وجهه القمحى وشعره القصير .. وأعجبت المرأة - أيما اعجاب - بما كان يستبيحه لنفسه من حركات مرحة ، متحررة ، وشعرت بارتياح لوجوده بقربها ، فلم تعد تتهيب عينيه ! .. **وشيئا فشيئا ، اتسم حديث البارون بجرأة اضطربت لها ، كأنما كان فى عباراته شيء يمسك بجسمها ويتحسسه ثم يتركه ! .. وداخلها شعور جامح كان يدفع الدم الى وجنتيها .. ولكنها سرعان ما أخذت تضحك ، غير عابئة بشيء ، وفى مرح كمرح الأطفال . وما كانت تعلم انها كانت تفصح ، بهذا المرح ، عن ميلها الى البارون بصورة صبيانية !** .. وكانت احيانا تهم بصد ما يتجاوز حد اللياقة من الحديث فى صرامة .. ولكن طبيعتها المرحة كانت تغلبها على أمرها ، فتتطلع الى المزيد منه ! .. ثم انتهى بها الأمر الى محاولة تقليد البارون والنسج على منواله ! .. ومن ثم أخذت ترد على عباراته بوعود غامضة ، وعيناها تحدقان فيه . وما لبثت ان بدأت تستسلم بكلماتها وحركاتها ، فأخذت تبيح لنفسها الاقتراب منه .. وازداد دنو صوته من سمعها ،وأحست بحرارة أنفاسه تلفح منكبيها . وككل العابثين ، لم يحسا بالوقت ، اذ استغرقتهما حرارة الحديث ، حتى فوجئا ببعض مصابيح الردهة تطفأ ، ايذانا بانتصاف الليل !

ونهضت اذ ذاك ، مذعورة مما اندفعت اليه ، وأوغلت فيه ، بهذه السهولة ! .. حقيقة ان اللعب بالنار لم يكن شيئا جديدا عليها ، ولكن عقلها الباطن أخذ يوحى اليها بأنها - فى

هذه المرة ـ قد ذهبت فى الشوط بعيدا . واكتشفت فى جزع ، انها لم تعد تسيطر على نفسها سيطرة تامة ، وأن شيئا ينساب فى كيانها ، فينذر بانسياقها نحو صراع عنيف ! .. وأحست بدوار ، وكأنها تعيش فى دوامة من الخوف والثمل وحرارة الحديث ، واستولى عليها وجل مبهم ، لم تفقه له معنى .. وجل عرفته من قبل فى لحظات مماثلة ، ولو أنها لم تعهده بهذه الشدة وذلك العنف !

وقالت وهى تهم بالانصراف : « طابت ليلتك ! .. طابت ليلتك ! .. الى صباح غد ! » .. ولم تكن تبغى الهرب من البارون بقدر ما كانت تبغى الهرب من خطر هذه اللحظة ، وخطر ذلك الاضطراب الطارىء الغريب الذى ساور نفسها !.. بيد أن البارون استبقى ـ فى اصرار رقيق ـ اليد التى مدتها له ، وقبلها .. لا مرة واحدة ، كما يقضى بذلك عرف المجاملة ، بل أربع أو خمس مرات ، وشفتاه المرتعشتان توزعان القبلات على أطراف أناملها وعلى رسغها . وتولتها انتفاضة حين لامس شاربه ظهر يدها . وسرت فى جسمها نفحة من دفء ، فخفق قلبها فى عنف ، وأحست كأن رأسها يتقد .. كان ثمة ألم ممض .. ألم لا مبرر له ، يملك عليها مشاعرها ، فجذبت يدها بغتة من قبضته !

وقال البارون متوسلا : « ألا أمكثى قليلا ! » .. ولكنها بادرت بالابتعاد فى سرعة كشفت ما كانت تعانيه من اضطراب .. فقد أحست بأنها بلغت درجة الانتشاء التى كان الطرف الآخر يبتغيها ! .. وأدركت حقيقة كل ماكان يساورها من انفعال .. كانت نهب الخوف الملتهب من أن يحتويها الرجل الذى خلفته وراءها بين ذراعيه ، بيد أنها لم تكد تبتعد عنه ، حتى أحست بحسرة لأنه لم يضمها فعلا ! .. كان من المحتمل أن يحدث فى هذه اللحظة ماكانت تبتغيه ـ وان لم تفطن ـ منذ سنوات .. كان من الممكن أن تقع المغامرة التى كانت

جوارحها تهفو اليها .. المغامرة التى تمتزج فيها الأنفاس ، والتى كانت تكبح نفسها عن خوضها حتى الآن .. المغامرة الكبرى ، الخطرة ، لا مجرد التودد العارض والانفعال الوقتى !

.. ولكن البارون كان من الاعتزاز بنفسه بحيث لم يشأ أن يتهافت على طلب هذه اللحظة .. فقد كان على ثقة من أنه لن يلبث أن يظفر بهذه المرأة ، فلماذا يتصرف كاللص ،فيقتنصها فى لحظة من لحظات الضعف ، مستعينا بنشوة الخمر ؟! .. كان صيادا أمينا ، يستمرىء النضال الذى ينتهى باستسلام الفريسة طواعية ، وهى فى كامل وعيها ومشاعرها ! .. محال أن تفلت منه . كان يعرف أن السم الملتهب أخذ يسرى فى عروقها !

★ ★ ★

◆ ووقفت لحظة فى أعلى السلم ، ويدها تضغط قلبها اللاهث .. كانت أعصابها منهارة . وندت منها زفرة نمت عن ارتياحها - الى حد ما - لافلاتها من خطر داهم ، كما نمت فى الوقت نفسه عن بعض الندم ! .. ولكن هذا الندم وذاك الخطر ، كانا يساورانها فى غموض مبهم . وأحست بشبه دوار خفيف، فتحسست طريقها عبر الممر ،وعيناها مغمضتان، وجسمها يترنح كما لو كانت ثملة ، واتجهت نحو باب غرفتها .. ولم تتمالك أنفاسها المتهدجة ، الا عندما أمسكت بمزلاجه البارد .. فقد شعرت اذ ذاك بأنها فى أمان !

ودفعت الباب أمامها فى رفق ، ثم تراجعت مجفلة ، اذ كان فى الغرفة شىء ما أخذ يتحرك فى الظلام . واهتزت أعصابها المهتاجة بشدة ، وهمت بالاستغاثة ، غير أنها سمعت صوتا مثقلا بالنعاس ، ينبعث واهنا من أعماق الغرفة قائلا : « أهذه أنت ياماما ؟ »

– بربك قل لى : ماذا تصنع هنا ؟

وأسرعت نحو السرير الذى كان « ادجار » نائما فيه ، ثم نهض عنه ، عندما أيقظه مقدمها . وظنت الأم – أول الأمر – أنه مريض ، وأنه لجأ الى مخدعها ينشد اسعافا لديها .. ولكن « ادجار » قال فى عتب هين ، وهو يغالب النوم : « لقد انتظرتك طويلا ، ثم غلبنى النوم ! »

– ولماذا انتظرتنى ؟

– لأجل الفيلة !

– أية فيلة ؟

وفجأة ، أدركت ماكان يعنى .. تذكرت أنها وعدت الصبى بأن تقص له – عندما تعود – كل شىء عن الصيد والمغامرات .. ولهذا تسلل الغلام الساذج الأبله الى مخدعها وانتظرها ، فى ثقة تامة ، فلما طال غيابها ، غلبه النعاس فنام .. واستشاطت غضبا لهذا التصرف الاحمق ، ولكنها – فى قرارتها – أحست بشىء من السخط على نفسها ، وبشىء من الخجل الذى يساور من يشعر بذنبه . وحاولت أن تتخفف من هذا الشعور ، فصاحت فى الصبى : « اذهب فورا الى الفراش ، أيها الصغير الوقح ! »

ونظر اليها «ادجار» دهشا .. ترىما الذى أغضبها منه ؟ .. لم يكن قد أتى ذنبا معيبا .. على أن هذه الدهشة ، وما صاحبها من تلكؤ ، ضاعفا من غضب الأم ، فنهرته صائحة : « اذهب حالا الى غرفتك ! » .. وكانت غاضبة – فى الواقع – لأنها كانت تعرف أنها المخطئة !

وانصرف « ادجار » دون أن ينبس ببنت شفة . والحق أنه كان متعبا غاية التعب .. وكان فى غفوة النوم ، لايشعر بغير احساس غامض أوحى اليه بأن أمه لم تف بوعدها ، وأن سلوكها معه كان جائرا . بيد أنه لم يثر ، اذ تغلب الاعياء

على كل شىء فيه ، وان أبقى على شىء من الاستياء ، جعله يلوم نفسه على انصياعه للنـوم ، فى وقت كان ينبغى فيه أن يظل مستيقظا ، فكان بذلك « كالطفـــل الرضيع ! » ٠٠ وأخـذ يردد فى نفسه هذه العبارة مغيظا ٠٠حتى غشيه النوم من جديد٠ فقد تولته منذ أمس كراهية نحو ٠٠ طفولته !



الفصل الخامس

◆ **كان** نوم البارون فى تلك الليـلة مضطربا ٠٠ فان النوم لا يواتى المرء ـ عادة ـ بعد مغامرة غرامية لم تكتمل !٠٠ كانت ليلته قلقة ، حافلة بالرؤى المزعجة ، مما جعله يأسف سريعـا لانه لم يفد ـ فى جرأة ـ من الفرصة التى سنحت له !٠٠ فلما هبط من غرفته فى الصباح التالى ، لم يكن قد تخلص بعد من آثار السهر والقلق ، فبدا متبرما من نفسه ٠ وخرج الصبى من ركن كان يختبىء فيه ، وقفز نحوه فأحاطه بذراعيه مغتبطا ، وأخذ يمطره وابلا من الاسئلة ٠٠ كان سعيدا بأن ينفرد مرة أخرى بصديقه الكبير ، لحظة لا تشاركه فيهـا أمه !٠٠ وأخذ يردد القـــول بأن البارون كان خليقـا بأن يروى كل شىء له وحـده ، لا لأمه ٠٠ فان أمه قد حنثت بوعدها ، ولم تنقل له شيئا من تلك القصص العجيبة !٠٠ وراح يوجه الى البـارون سيلا من سفاسف الاطفال وثرثرتهم ، حتى ضـاق به الرجل الذى لم يقو تماما على اخفاء ما كان عليه مزاجه من توعك !

وهكذا كان البـــارون يجيب على أسئلة الصبى عابسا ، مقطب الجبين ٠٠ كانت ملاحقة الصبي له ، هـذه الملاحقة التى

لا تنتهى والتى تنطوى على ايحاء برقابة دائمة ٠٠ وهذه الاسئلة الخالية من المعنى ٠٠ وهذه اللهفة الثقيلة ، الممضة ٠٠ كل هذه الامور بدأت تضايقه !٠٠ كان قد مل التجوال ـ هنا وهناك ـ طوال النهار ، مع غلام فى الثانية عشرة ، وسئم التكلم معه فى سخافات تافهة ، وأصبح يصبو الى أن يكون وحده مع الأم ٠٠ فبدأ يستشعر الضيق ، ويبديه فى وجه هذا الغلام الغض !٠٠ ولكن لما كان قد أيقظ فضول هذا الصغير وعواطفه ، دون انتباه منه أو حذر ، فقد أضحى من الصعب عليه التماس الوسيلة ليتخلص من ملازمته له !

على انه لم ير بدا من تحمله ، ريثما تحين الساعة العاشرة ٠٠ فقد كان على موعد مع الأم ، فى تلك الساعة ، لينطلقا فى نزهة !٠٠ ومن ثم ترك الصبى سادرا فى ثرثرته دون أن يلقى اليه بالا ، متشاغلا بقراءة احدى الصحف ، وان حرص على أن يوجه اليه بعض كلمات بين آن وآخر ، حتى لا يجرح شعوره ٠ حتى اذا حانت الساعة العاشرة أخيرا ، تظاهر بأنه تذكر فجأة أمرا ما ، ورجا « ادجار » أن يذهب الى الفندق المجاور ، فيسأل ـ بالنيابة عنه ـ عما اذا كان ابن عمه الكونت « جريندهم » قد وصل !

وهرع الصبى الساذج نحو الفندق ، سعيدا بأن يكون فى مقدوره ـ أخيرا ـ أن يؤدى خدمة لصديقه ، فخورا بأن يرتفع الى مرتبة رسول شخصى له !٠٠ وأخذ يعدو فى جنون ، حتى لقد كان الناس ينظرون اليه دهشين !٠٠ بيد أنه كان حريصا على أن يثبت للبارون مدى نشاطه وسرعته ، عندما يعهد اليه بمهمة ! ٠٠ وقيل له فى الفندق ان الكونت لم يصل بعد ، ولم يعلن الادارة عن موعد قدومه ٠ وعاد بهذه الاجابة وهو أكثر اسراعا فى جريه من ذى قبل ٠ ولكن البارون كان قد غادر الردهة ٠ فطرق الصبى باب غرفته ، دون جدوى ٠٠ وما لبث أن جرى فى قلق نحو قاعة الجلوس والمقهى ، ثم أسرع الى غرفة

أمه ليسألها عما ينبغى أن يفعل ، ولكنها لم تكن هنـاك ، هى الاخرى ! وأخيرا ، سأل البواب ، فى محاولة يائسة ، فعلم منه أنهما خرجا معا منذ دقائق ٠ وأثار هذا الجواب دهشة الصبى !

★ ★ ★

• **وانتظر** « ادجار » عودتهمـا نافد الصبر ٠ ولم يساوره — لسذاجته — أى ريب ، بل كان موقنا من أنهما لن يغيبا سوى بضع لحظات ، اذ قدر أن يكون البارون فى حاجة الى الجـواب الذى يحمله له ٠ بيد أن الساعات تتابعت ، دون أن يعودا ، فأخذ القلق يتسرب اليه ٠ والواقع ان الصغير عرف القلق منذ الصباح الذى ظهر فيه ذلك الرجل الغريب الفاتن فى سماء حياته الصغيرة !٠٠ والانفعال ، مهما يكن تافهـا ، يترك فى النفس الغضة — نفس الطفل — أثرا يشبه الحفر على الشمع !٠٠ اذ ما لبثت أن عاودت الصبى تلك الرعشة العصبية التى كانت تهز جفنيه ، وأخذ وجهه يزداد شحوبا

وظل ينتظر طويلا ٠٠ صـابرا فى أول الامر ، ثم مضطربا أشد الاضطراب ، حتى أوشك فى النهاية أن يجهش بالبكاء !٠٠ على انه لم يكن حتى ذلك الوقت قد أساء الظن بشىء ، اذ كان — فى ثقته العمياء بصديقه الرائع — لا يرى أكثر من انه ربمـا قد أساء السمع ، فراح يتعذب خوفا من أن يكون قد أخطأ فهم المهمة التى عهد اليه البارون بها !

ولكن شد ما كان عجبه حينما رآهما — وقد عادا فى النهاية — يواصلان حديثهما فى مرح ، دون أن يبديا أية دهشة !٠٠ كان يبدو أنهما لم يأسفا قط لغيابه !٠٠ بل ان البارون لم يسأله قط عن المهمة التى كان قد عهد اليه بها ، وانما قال له : « لقد سبقناك يا « ادى » — (اسم التدليل لادجار) — وكنا نحسب أننا سنلقاك فى الطريق ! » ٠٠ واذ خشى الصبى أن يكونا قد بحثا عنه ولم يجداه ، راح يؤكد أنه انما سار فى الشـارع

الرئيسى مباشرة ، وأراد أن يعرف فى أى اتجاه ذهبا ، فأسكتته أمه بغتة قائلة له : « كفى ٠٠ ليس للاولاد أن يثرثروا هكذا » ٠٠ واحمر وجه الصبى غضبا ٠ وكانت هذه هى المرة الثانية التى تحاول فيها أمه أن تجرح شعوره أمام صديقه !٠٠ ترى لم تفعل هذا ؟٠٠ لماذا تحاول دائما أن تظهره بمظهر الاطفال ، مع انه ـ كما كان موقنا ! ـ لم يعد منهم ؟٠٠ لاشك أنها كانت تغار منه على صديقه ، وتحاول أن تحرمه منه !٠٠ أجل ، ومن المؤكد كذلك أنها هى التى قادته فى طريق غير الشارع الرئيسى لكى لا يلتقى به ٠٠ ولكنه لن يدعها تسىء اليه ، وسوف ترى ذلك ٠٠ سيقاومها ! وعقد ادجار العزم على ألا يبادل أمه كلمة أثناء تناول الطعام ، وأن يوجه الخطاب الى صديقه وحده !

* * *

◆ بيد أن الصبى وجد مشقة فى ذلك ، اذ حدث ما لم يكن يتوقعه ٠٠ لم ينتبه أحد منهما الى تحديه الصامت ٠ أجل ، كانا لا يكادان يشعران بوجوده ، هو الذى كان بالامس محور حديثهما !٠٠ كانا يتحادثان فى منأى عنه ، ويضحكان ، ويتداعبان ، وكأنه تلاشى من وجودهما !٠٠ فتصاعد الدم الى وجهه ،وأحس بغصة فى حلقه كادت تخنقه ٠٠ وأخذ يرتجف فرقا وهو يذكر عجزه الأليم ٠٠ أفحتم عليه اذن أن يبقى أمامهما ، جالسا فى هدوء ، ينظر الى أمه وهى تنتزع منه صديقه ٠٠ هذا الشخص الوحيد الذى أحبه ؟٠٠ أو ليس فى وسعه أن يدافع عن نفسه بغير الصمت ؟

وشعر فجأة بحافز يدفعه الى النهوض ، والى أن يدق المائدة بقبضتيه ، لا لشىء الا لكى ينتبها الى وجوده !٠٠ بيد أنه كظم غيظه ، وضبط نفسه ، واكتفى بأن ترك شوكته وسكينه جانبا وتوقف عن الأكل ٠ ومضى وقت طويل دون أن يعير أحدهما هذا

الصغير العنيد أى التفات ٠ ولم تفطن الأم لامره الا عندما قدم اليهم آخر ألوان الطعام ، فسألته عما اذا كان يشكو من شيء ٠٠ فقال الصبى لنفسه : « هذا فظيع ٠٠ انها لا تفكر دائما الا فى أن تطمئن الى أننى لست مريضا ٠٠ وكل ما عدا هذا يستوى عندها ! »

وأجاب فى جفاء بأنه لا يحس ميلا للأكل ، فلم تسأله ايضاحا !٠٠ لم يقو شيء ما على اجتذاب انتباههما اليه ٠٠ لا شيء ، على الاطلاق !٠٠ ولاح أن البارون قد نسى وجوده ، اذ لم يوجه اليه الكلام مرة واحدة !٠٠ وازداد « ادجار » شعورا بالرغبة فى البكاء ، فلم يجد بدا ــ فى النهاية ــ من أن يركن الى هذه الحيلة من حيل الصغار للتنفيس عن كربهم ٠٠ وتناول المنشفة بسرعة يجفف بها الدموع التى انسابت على خديه ورطبت شفتيه ، قبل أن يفطن أحد اليها ٠٠

ولم يتنفس الصعداء ارتياحا ، الا بعد أن انتهى الغداء ٠ وكانت أمه قد اقترحت ــ أثناء الاكل ــ أن يقوموا بنزهة ، فى عربة ، الى (ماريا شوتز) ، فعض « ادجار » شفتيه ، اذ سمعها تعلن هذا الاقتراح ٠٠ انها بهذا الاسلوب لم تعد تريد أن تتركه يخلو الى صديقه لحظة واحدة ٠٠ ولكن غضبه اشتد استعارا فجأة ، حين قالت أمه أثناء مبارحة المائدة : « انك توشك يا ادجار أن تنسى كل ما تعلمت فى المدرسة ٠٠ انك تحسن صنعا اذا مكثت ــ ولو مرة ــ فى المنزل ، لتراجع دروسك ! »

وضم قبضتيه الصغيرتين ، مرة أخرى ، فى غيظ ٠٠ انها لاتزال تحاول الحط من قدره أمام البارون ، وتذكير الناس بأنه مازال طفلا ، وبأن عليه أن يذهب الى المدرسة ، وأن لا مكان له بين الكبار ، الا أن يكون ذلك على سبيل التسامح ٠ ولكن تعمدها هذا كان أكثر اساءة فى هذه المرة ، فلم يجب ، وانما استدار الى الناحية الاخرى ٠٠ فقالت أمه وهي تبتسم : « هل

يسووك هذا أيضا ؟ » ، ثم أضافت مخاطبة البارون : « هل يسوؤه حقا أن ينصرف ساعة للدرس ؟ » ٠٠ واذ سمع الصبى هذا ، أحس كأن شيئا تجمد وتحجر فى قلبه ، بينما قال البارون ـ البارون الذى كان يزعم انه صديقه ! ـ « لا ٠٠ ان ساعة أو ساعتين من الدرس لا يضيرانه فى شىء ! »

« أهما متفقان فيما بينهما ؟٠٠ أهما حقا قد تحالفا ضده ؟! » ٠٠ واتقد الغضب فى عينى الصبى ، فاندفع يقول بكل ما يتيحه له دلال الطفل المريض من قوة : « لقد أمر أبى بأن لا أؤدى أى عمل هنا ٠٠ أبى يريدنى أن أستريح ! » ٠٠ وتشبث ـ فى يأسه ـ بسلطة أبيه ٠ وكان فى جوابه ما يشبه التهديد !٠٠ ومما هو أدعى للدهشة أن لفظ « أبى » أحدث لدى الأم والبارون معا شعورا بالاستياء ، فأشاحت الأم ببصرها ، وأخذت تطرق المائدة بأصابعها فى حركة عصبية ، وقد ساد بينهم صمت أليم ٠ وقال البارون آخر الأمر مصطنعا الابتسام : « فليكن ما تريد يا ادى ! » ٠٠ ثم أردف قائلا : « أنا لست مضطرا الى أداء امتحان ، فقد رسبت فى جميع المواد منذ زمن بعيد ! »

ولكن « ادجار » لم يبتسم لهذه الفكاهة ، وانما ألقى على البارون نظرة ثاقبة ، فاحصة ، وكأنه يريد أن ينفذ الى قرارة نفسه ٠٠ ترى ماذا حدث ؟٠٠ **لقد تغير بينهما شىء ما لم يفهمه الصبى ٠ وشردت عيناه فى قلق ، وتسارعت نبضات قلبه الصغير ٠٠ فقد بدأ الشك يساوره !!**

★ ★ ★

◆ « **ما الذى غيرهما الى هذا الحد ؟!** » ٠٠ هكذا أخذ الغلام يفكر فى الأمر طوال الطريق ، وهو جالس فى مواجهتهما داخل العربة ٠٠ « لماذا لم يعودا ـ بالنسبة لى ـ كما كانا من قبل ؟! ٠٠ لماذا أصبحت أمى تتفادى نظراتى عندما أوجهها اليها ؟!٠٠

لماذا يحاولان دائما أن يبدوا أمامى مرحين ، لطيفين ؟! ٠٠ انهما لم يعودا يخاطباننى كما كان شأنهما معى أمس ، وأول من أمس ٠ بل اننى أكاد أقول ان وجهيهما لم يعودا نفس الوجهين اللذين عهدتهما لهما ٠٠ فشفتا أمى ـ اليوم ـ شديدتا الاحمرار ، ولابد انها استعملت طلاء لتكسبهما هذا اللون ٠٠ وهو ما لم أرها تفعله قط !٠٠ أما هو ـ البارون ـ فقد أضحى عابسا باستمرار ، وكأننى جرحت شعوره ، فى حين اننى لم أرتكب ما يسؤوهما ، بل لم أنبس بكلمة واحدة يمكن أن تمسهما ! ٠٠ لا ، لا يمكن أن أكون أنا السبب فى تغيرهما ٠ **هما اللذان تغيرا ٠٠ تغير كل منهما بالنسبة للآخر ، حتى ليخيل للمرء انهما يدبران أمرا لا يجرؤان على البوح به ، ولو فيما بينهما ! ٠٠ لقد أصبحا لا يتكلمان كما كانا يتكلمان أمس ، ولم يعودا يضحكان ، وانما تملكهما ضيق ووجوم ! ٠٠ لابد انهما يخفيان سرا لا يريدان أن أعرفه ٠٠ ولكن ، لابد لى من أن أعرفه ٠٠ بل لعلنى أعرفه ٠٠ لعله ذلك السر الذى تغلق الأبواب فى وجهى دونه دائما ٠٠** هذا السر الذى تبحثه الكتب ، وتشرحه «الأوبريت» عندما يغنى الرجل والمرأة وجها لوجه ، وقد بسطا أذرعهما ، وعندما يتعانقان ويتباعدان ! ٠٠ لابد أنه من نوع ما حدث للمعلمة التى كانت تلقننى اللغة الفرنسية ، والتى كان سلوكها مع أبى شائنا ، مما أدى الى فصلها فيما بعد ! ٠٠ هذه الأمور جميعا تتشابك ٠٠ **انى لأحس بهذا السر ، وان لم أدر كنه هذا الاحساس ٠٠ لكم أتوق الى معرفة هذا السر ! ٠٠ لكم أتوق الى أن أمسك بيدى ذلك المفتاح الذى يفتح أمامي كل الأبواب ! ٠٠ لكم أتوق الى اليوم الذى أشب فيه عن الطوق فلا أعود طفلا يخفون عنه كل شىء ٠٠ ولا يعود ثمة تغرير أو خداع! ٠٠ يجب أن أعمل الآن ، والا فلن أعرف ٠٠ الى الأبد ! ٠٠ لسوف أنتزع منهما هذا السر الخطير !**

وتجعدت أساريره ، فبدا الغلام الهزيل ، الذى لم يجاوز

الثانية عشرة ، كشيخ طاعن فى السن ، وهو ماض على هــذا النحو فى تفكير جدى دون أن يلقى نظرة واحدة على المشهد الذى كان ينبسط حوله فى ألوان زاهية : الجبال وقد اكتست بخضرة غاباتها ، والأودية تبتسم للربيع الذى تأخر عن موعده ٠ لم يحفل مطلقاً بغير الوجهين المقابلين له ، فوق مقعد العربة ، وكأنه كان يسعى الى اصطياد السر المختبىء في أعماق عيونهما ، كما يفعل صائد السمك حين يلقى بالشص فى الماء !

على أنه لا يشحذ العقل مثل الشك الملتهب ، وليس أدعى لتفتح الذهن الذى لم يستكمل نضوجه ، من غوامض تثير هواجسه ! ٠٠ ولا يفصــل ـ أحيانا ـ بين النشء وبين ما نسميه عالم الحقيقة والواقع سوى معبر صغير يجتازونه بدفعة من يد القدر، فاذا الباب مفتوح أمامهم على مصراعيه !

* * *

◆ **ووجد** «ادجار» نفسه بغتة أقرب ما يكون الى «المجهول !» ٠٠ الى السر الخطير ، منه فى أى وقت آخر ٠ كان يحسه ـ هنا ـ أمامه ، ومع ذلك كان بعيدا عن متناوله مستعصيا على وعيه ٠ ولكنه رغم هــذا كله كان جــد قريب منه ! ٠٠ وأثاره هذا الاحساس الذى خلع عليه وقارا ضافيا ، مباغتا ٠ فقد أدرك ، دون أن يفطن ، انه قد بلغ نهاية طفولته !

وكان صاحبا السر الجالسان فى مواجهته ، يحسان بمقاومة صامتة لا قدرة لهما على معرفة كنهها ، وما خطر ببالهما انهــا كانت صادرة عن الغلام ، وان خيل اليهما أن العــربة تضيق بثلاثتهم ! ٠٠ وأخــذت العينان اللتان كانا يريانهما أمامهما ، والحرارة القاتمة التى تنبعث من أغوارهما ، تثير فى نفسيهما اضطرابا وضيقا ، فلم يجرؤا على الحديث الا لماما ٠٠ ولماما كانا يتبادلان النظرات ! ٠٠ لم يعودا يهتديان الى طريق ذلك الحديث المرح ، الذى اعتادا تبادله كثيرا من قبل ٠ **كانا قد أوغــلا فى**

طريق الأسرار المحرقة ، حيث الكلمات المثيرة ، التى تفعل فعل الغزل الخليع واللمسات الخفية مجتمعين ! ٠٠ وكانا كلما هما بالعودة الى الحديث ، اصطدما - فى كل مرة - بهدوء الغلام المصر على صمته فى عناد !

وكان هذا الصمت ثقيلا على نفس الأم بنوع خاص ، فأخذت ترمق الصبى من ركن عينيها فى حذر ٠٠ واكتشفت من مسلكه - اذ زم شفتيه - شبها بينه وبين زوجها عندما يكون منفعلا أو مغضبا ! ٠٠ وشق على نفسها أن تضطر الى تذكر هذا الرجل ، فى نفس اللحظة التى تجمعها فيها والبارون مغامرة غرامية ! ٠٠ كان الغلام ، بعينيه المكتئبتين الفاحصتين ، وبالتربص البادى على جبينه الشاحب ، يبدو لها كشبح عهد اليه أن يراقب ضميرها ، ولهذا لم تعد تطيق وجوده معها ، فى تلك العربة الضيقة ، حيث لا تفصله عنها سوى عشر بوصات !

والتقى بصرها ببصر « ادجار » لحظة ، فخفض كل منهما عينيه ، اذ أدركا ان كلا منهما كان يرقب الآخر خلسة ٠ ولقد كان كل منهما - الى هذه اللحظة - يثق بالآخر ثقة عمياء ، أما الآن فقد أصاب علاقتهما شيء من التغيير ، اذ شرع كلاهما يرقب الآخر ، ويفصل مصيره عن مصيره ، وفى قلب كل منهما نحو صاحبه بغض خفى ، كان من الجدة والغرابة بحيث لم يجسرا على اظهاره أو الافصاح عنه !

وتنفس ثلاثتهم الصعداء عندما وقفت العربة عندباب الفندق، عائدة بهم اليه ٠ كانت نزهة جانبها الحظ ٠٠ ولقد أحسوا جميعا بذلك ، ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على الجهر به ! ٠٠ ونزل ادجار من العربة قبل الآخرين ، وتعللت أمه بأنها تعانى صداعا ، ثم أسرعت بالصعود الى غرفتها ، اذ كانت متعبة ، وتتوق الى أن تخلو الى نفسها ٠ ودفع البارون أجر الحوذى ، ثم ألقى نظرة على ساعته ، واتجه نحو الردهة غير حافل

بالغلام الذى ظل واقفا .. بل لقد مر أمامه بقامته الممشوقة ، وخطواته الرشيقة ـ التى بلغ من اعجاب الصبى بها أن حاول بالأمس تقليدها ـ فسار فى طريقه لا يلوى على شىء .. كان واضحا أنه قد نسيه ، فتركه فى هذا المكان مع الحوذى والخيل كما لو كان غريبا عنه !

* * *

• **وأحس** « ادجار » كأن شيئا تحطم فى كيانه ، حين رأى صديقه يفعل هذا .. صديقه الذى أحبه الى درجة العبادة ، رغم كل شىء ! .. ودب اليأس فى قلبه عندما ابتعد البارون عنه مسرعا ، دون أن يحف به طرف معطفه ، ودون أن ينبس بكلمة واحدة له ، هو الذى لم يرتكب خطأ ما ! .. ولم يقو على الاحتفاظ بثباته الذى أشقاه كثيرا أن يحتفظ به حتى الآن !.. وسقط عن منكبيه الواهنين ثقل الكرامة المصطنعة ، فعاد طفلا .. طفلا صغيرا ، تافها ، كما كان بالأمس ، وكما كان دائما من قبل . وجرى خلف البارون ، على الرغم منه ، بخطى سريعة مضطربة ، ووقف أمامه وهو يهم بصعود السلم ، ثم قال له بصوت مختنق وهو يحبس عبراته بمشقة : « ماذا ارتكبت فى حقك حتى أنك لم تعد تعيرنى أى التفات ؟! .. لماذا تغيرت معاملتك لى ؟ .. وماما أيضا ! .. لماذا تريدان دائما اقصائى عنكما ؟ هل أضايقكما ؟ هل صدر منى ما يعيب ؟! »

وارتجف البارون .. فقد كان فى صوت الصبى شىء أخجله ، وحمله على أن يتلطف اليه . وداخله اشفاق على الغلام البرىء ، فقال : « انك أحمق صغير يا « ادى » .. لقد كنت اليوم عكر المزاج ، وهذا كل ما فى الأمر . على أنك صبى جميل ، وأنا أحبك كثيرا ! »

قال البارون هذا وهو يجذب شعر الصبى ملاطفا ، وقد حول نظره عنه بعض الشىء ، ليتفادى منظر عينيه الواسعتين ،

المغرورقتين ، المتوسلتين ! ٠٠ وبدت له المهزلة التى كان يمثلها ، شاقة ٠ فقد أخجله ـ فى الواقع ـ أن يعبث بحب هذا الصغير له ، على هـــذا النحو غير اللائق ، وآلمه سماع هذا الصـوت الصبيانى الذى تخنقه العبرات ، فقال فى عطف : « اذهب الى غرفتك يا « ادى » ، وسيصفو الجو بيننا هـــذا المساء ، كما سترى ! » ٠٠ فقال الصبى : « ولكنك لن تدع أمى ترسلنى الى الفراش مبكرا ٠٠ أليس كذلك ؟ » ٠٠ فأجاب البارون مبتسما : « بلى ، لن أدعها يا « ادى » ، فاطمئن ! ٠٠ اصـعد الآن الى غرفتك ، أما أنا فينبغى أن أبدل ثيابى استعدادا للعشاء ! »

وذهب « ادجار » مغتبطا أشد الاغتباط ٠ ولكن قلبه سرعان ما عاد الى خفقانه العنيف ٠٠ فقد زاد عمره منـــذ أمس عدة سنوات ، ونزل على صدره الصغير ضيف غريب ، هو : **الشك!**

وأخذ الصبى ينتظر لحظة الاختبار الحاسـم ٠ وكان ثلاثتهم جالسين حول المائدة حين دقت الساعة التاسعة ٠ ولما لم ترسله أمه الى الفراش ، ساوره القلق ٠ ترى لماذا سمحت له اليـوم بالذات بأن يبقى الى هذا الوقت وهى التى تتمسك بعاداتهـا بكل دقة ؟! ٠٠ أيكون البـارون قد وشى بما دار بينهمـا من حديث ، وأبلغها رغبته ؟! ٠٠ واستولى عليـــه ندم لاذع لأنه أفضى لصديقه بكل ما كان فى قلبه ، بصراحة وثقة ! ٠٠ ولكن حين دقت السـاعة العاشرة ، استأذنت أمه ـ فجـأة ـ فى الانصراف ٠ ومن عجب أن البارون لم يبد أية دهشة لانصرافها المبكر ، ولم يحاول أن يستبقيها كما كان يفعل دائما ٠ **واشتد وجيب قلب الطفل بين جنبيه عنفا !**

وتظاهر ادجـــار بأنه لم يلاحظ شـيئا ، فتبع أمه بغير معارضة ٠ ولكن عينيه زاغتا بغتة ، اذ فاجأ أمه وهى تلقى الى البارون نظرة باسمة من خلفه ٠٠ نظـرة الشريك فى مؤامرة تتصل بسر ما ٠ لقد خانه البارون ، اذن ٠٠ وهذا هو الـذى

جعلهما يفترقان فى وقت مبكر . كان هدفهما اليوم أن ينـام الغلام مطمئنا هادىء البال حتى لا يضايقهما غـدا .. وتمتم « ادجار » بصوت خفيض : « يا للنذل ! » .. فسـألته أمه : « ماذا تقول ؟ » .. وأجاب وهو يعض على شفتيه : « لا شىء ! »

لقد أصبح له ـ هو الآخـر ـ سر .. وكان سره هـو : « الكراهية » .. كراهية لا حد لها .. يكنها لهما .. معا !



الفصل السادس

• لم يعد « ادجار » نهبا للقلق ، اذ غشية ـ أخيراً ـ شعور وليد ، واضح المعالم .. شعور سافر بالبغض والعداء ! .. وبات يستشعر ـ وقد أيقن انهما يضيقان به ـ متعة بالغة في وجوده بجانبهما ! .. بات يجد لذة في مضايقتهما ، وفي مواجهتهما بكل ما في عدائه المركز من شدة . وكان البارون أول من تعرض لهذه الروح الجديدة . فعندما تعطف على ادجار ـ حين هبط في الصباح التالي ـ بتحية ودية ، لم يتطلع الصبي اليه ، ولم يترك مقعده ، بل اقتصر على رد التحية بفتور . وعندما سأله البارون عما اذا كانت أمه قد هبطت الى الطابق الأرضي ، أجاب في اقتضاب وهو ينظر الى صحيفة كان يقرأها: « لا أعرف ! »

واستبدت بالبارون الدهشة : ما معنى هذا ؟.. وهتف قائلا : « انك لم تحظ الليلة بنوم مريح يا ادجار .. أليس كذلك ؟».. وحسب ان مثل هذه العبارة اللطيفة ، كفيلة بأن تعيد الأمور الى نصابها ، كما كان العهد دائما .. بيد أن « ادجار » أجاب في اقتضاب : « لا ! » .. ثم عاد الى الاستغراق في قراءة

الصحيفة ٠ وقال البارون وهو يهز كتفيه مبتعدا عنه : « يا لك من غبى ! » ٠٠ ثم مضى فى سبيله

كانت هذه بداية المعركة !٠٠ فلقد أبدى «ادجار» لأمه بعد ذلك تأدبا فاترا ٠٠ فرفض فى هدوء أن يذهب الى ساحة « التنس »، عندما حاولت ــ عبثا ــ أن ترسله الى هناك ٠ ونمت ابتسامته الصفراء وانقباض شفتيه ، عن انه لم يعد يرتضى أن يخدعه أحد ٠ وما لبث أن قال فى حياء مصطنع ، وهو يحدق فى عينى أمه : « أفضل أن أذهب للنزهة معكما ! » ٠٠ فاستاءت أمه كل الاستياء من هذا الجواب ، وبدا عليها الارتباك ، فتظاهرت بأنها تبحث عن شىء ما ثم قالت أخيرا : « انتظرنى هنا حتى أتناول فطورى » !

وانتظر « ادجار » ٠٠ بيد أن شكوكه كانت ساهرة ، يقظة، اذ غدا يستشعر فى قراره نفسه شبهات تدفعه الى تمحيص كل كلمة ينطق بها هذان الشريكان ، للبحث عما تنطوى عليه من نوايا خفية أو عدائية ! ٠٠ وكانت هذه الشكوك تمنحه ــ فى بعض الأحيان ــ نظرة ثاقبة تهديه الى الصواب فيما يتخذ من قرارات ٠٠ ومن ثم فانه لم يشأ أن ينتظر فى الردهة ، كما طلبت اليه أمه ــ وانما آثر أن يقف فى الطريق ، فى موقع يستطيع منه أن يرقب كافة أبواب الفندق ، لا الباب الرئيسى للخروج وحده ! ٠٠ فلقد أحس بأن ثمة خدعة تدبر ، ومن ثم عقد العزم على أن لا يترك « غريميه » يفلتان ! ٠٠ واختبأ خلف كومة من الخشب ــ فى الطريق ــ على غرار الطريقة التى قرأ عنها فى قصص الهنود ! ٠٠ وضحك راضيا عن خطته ، حين أبصر بأمه تخرج بالفعل من الباب الجانبى ، بعد نحو نصف ساعة ، ممسكة طاقة من الورد الجميل ، والبارون الخائن فى أعقابها !

وكان الاثنان فى غاية المرح ٠ لا شك فى أنهما كانا سعيدين بافلاتهما منه ، وافلات سرهما أيضا ! ٠٠ كانت الضحكات

تتخلل حديثهما ، وهما يتأهبان للانطلاق فى طريق الغابة ٠ وحانت اللحظة المنتظرة ، فغادر « ادجار » مخبأه ، واتجه نحوهما فى هدوء ، كما لو كانت المصادفة وحدها هى التى قادته الى هذا المكان ٠ وأخذ يستمتع ، وفى تمهل ، بما أحدثته المفاجأة فى نفسيهما ! ٠٠ وكان الشريكان قد انزعجا بالفعل ، وأخذا يتبادلان نظرات مذهولة ٠ وما لبث الصبى أن تقدم متثاقل الخطى ، محاولا أن يبدو طبيعيا ، ودون أن يحول عنهما عينيه اللتين كانتا تلمعان ببريق ساخر ٠ وقالت أمه أخيرا : « أأنت هنا يا ادى ؟ ٠٠ لقد بحثنا عنك فى الفندق ! » ٠٠ فقال الصبى فى نفسه : « يا للكذب الفاضح ! » ٠٠ على ان شفتيه لم تتحركا ، فقد كانتا مغلقتين على سر كراهيته !

وكان ثلاثتهم مترددين ، وهم يرقبون بعضهم بعضا خلسة٠ على ان المرأة المستاءة لم تلبث أن قالت بصوت هادىء ، وهى تعبث بأوراق زهرة من أزهارها الجميلة : « هيا نتمشى ! » ٠٠ وسرت فى طاقتى أنفها رجفة خفيفة ، وهى ظاهرة كانت تنم لديها عن غضب مكبوت ٠ وظل « ادجار » يحملق فى الهواء ، كما لو لم تكن هذه الكلمات موجهة اليه ٠ ولم يتحرك من مكانه الا حين شرع الآخران فى السير ، فانضم اليهما ٠ وحاول البارون أن يغريه على العدول عن متابعتهما ، فقال له : «ستجرى اليوم مباراة فى « التنس » ٠٠ أفلا تحب أن تشاهدها ؟! » ٠٠ فرمقه « ادجار » بازدراء ، ولم يجب على سؤاله ، مكتفيا بمد شفتيه كما لو كان يهم بالصفير ! ٠٠ وكانت هذه هى طريقته فى اظهار شعوره ٠٠ اذ كانت كراهيته الطاغية قد بدأت تكشف عن نفسها !

كان وجوده غير مرغوب فيه ، ولذا ثقلت وطأته على الشريكين ، وهما يسيران وقد ضم كل منهما قبضتيه كسجينين أمام حارسهما ! ٠٠ والواقع ان الصبى لم يكن يقول أو يفعل شيئا ، ومع هذا فقد أخذ ضيقهما به يتزايد ، ولم يعودا يحتملان

نظراته الفاحصة ، وعينيه اللتين رطبتهما الدموع المنسابة ، وانقباضه الذى كان يصد كل محاولة منهما للتقرب اليه . وفجأة ، قالت الأم فى غضب ، وقد ضاقت أبلغ الضيق بهذه الرقابة التى لا تنتهى : « **سر أمامنا ، ولا تلاحقنا ، فان هذا يثير أعصابى !** » .. فأطاع ادجار أمر أمه ، بيد أنه كان لا يلبث ، بعد كل بضع خطوات ، أن يستدير .. وكان ينتظرهما كلما تخلفا من ورائه ، مصوبا اليهما نظرة شاملة ملؤها الخبث والمكر ، ناسجا حولهما شبكة من الكراهية والبغض كانا يحسان أنها تطبق عليهما من كل جانب !

★ ★ ★

• **كان** صمته العدائى ينخر سعادتهما كالسوس ، كما كانت نظراته الفاحصة تقتل الكلمات على شفتيهما . **ولم يعد البارون يجرؤ على المضى فى مغازلته للأم ، بل انه أحس - والسخط يملأ جوانحه - بأن هذه المرأة تفلت من يديه مرة أخرى ، وأن الشهوة التى أشعلها بعناء كبير قد أخذت تخمد بسبب خوفها من هذا الصبى المتطفل البغيض !** .. كانا دائما يحاولان استئناف الحديث ، ولكن الحديث كان لا يلبث أن ينقطع فى كل مرة . ولم يسع الثلاثة - آخر الأمر - الا أن يسيروا صامتين ، قانعين بسماع حفيف الشجر ووقع خطواتهم الممل !

.. كانت البغضاء قد تملكتهم جميعا ! .. وكان الصبى - الذى أحس بغدر صاحبيه - يستمرئ غضبهما العاجز ويستعذبه .. هذا الغضب الذى كان يتجمع حول كيانه الصغير ، المهين ! .. **وأخذ يرمق البارون من حين الى آخر ، بنظراته الساخرة ، فيسمعه يتمتم بكلمات لا يجد جرأة على أن يواجهه بها . كذلك كان يلاحظ - فى غبطة شيطانية ! - غضب أمه المتزايد ، وكيف انها وشريكها راحا يبحثان عن حيلة يتوسلان بها الى ابعاده عنهما وتجنب أذاه ! .. بيد أنه لم يتح لهما أية**

وسيلة .. فقد كان عداؤه مستحكما ، وخطته مرسومة بدقة لا تفسح لهما أى منفذ !

وعلى حين غـرة ، قالت الأم : « لنعد ! » .. فلقد أحست بأنها لم تعد قادرة على ضبط نفسها ، وان لابد لها من أن تعمل شيئا ، حتى لا تنفجر باكية من هذا العذاب ! .. وقال «ادجار» فى هدوء : « هذا يدعو للأسف ، فان الطقس جميل جدا ! »

وأدرك الشريكان ان الصـبى يسخر منهمـا ، ولكنهما لم يجرؤا على أن يقولا شيئا .. فقد تعلم هذا الجبار ، فى يومين اثنين ، كيف يسيطر على نفسه . ولهذا لم يبد على أية قسمة من قسمات وجهه ما يشى بسخريته اللاذعة ! .. وقفلوا عائدين دون أن ينطق أحدهم بكلمة طوال الطريق . حتى اذا ما خلت الأم الى ابنهـا فى مخدعها ، أخذت تتخلى عن رزانتها ، وتفثأ غيظها ، فألقت مظلتها وقفازها بحركة تنم عن الاستياء . ولاحظ « ادجار » جليا أن أعصابها مهتاجة ، وان أمثال هذه الحـركة تسرى عنها ، فى حين انه كان ينشد انفجارا ، فبقى فى الغرفة ليذكى جذوة هياجها ! .. وأخذت تروح وتجىء ثم تجلس .. وتطرق المائدة بأصابعها أحيانا . وأخيرا ، قفزت قائلة : «لشد ما أنت أشعث الشعر ! .. وكم أنت قذر ! .. ألا تستحى فى هذه السن من الظهور أمام الناس بهذا الشكل ؟ » .. فراح ينسق شعره دون أن يجيب بكلمة ! .. وأثارها هذا الصمت البارد الـذى اقترن بابتسامة واهنة ساخرة ارتسمت عـلى شفتيه ، فودت لو أنها انهالت عليه لطما . وما لبثت أن صاحت فيه : « اذهب الى غرفتك ! » .. فقد أصبحت لا تحتمل وجوده على مقربة منها . وابتسم « ادجار » ، وخرج !

***

• لكم أصبحا يرتجفان أمامه ! .. لكم أصبحا يخافان وجودهما معه ، والتعرض لنظراته الصارمة تغمرهما . وكانت

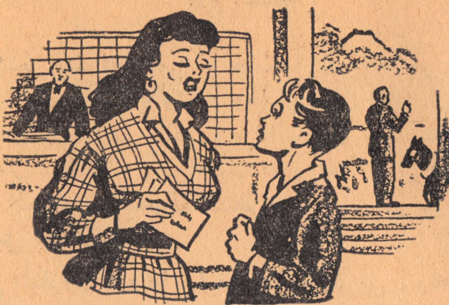
عيناه ترددان وميضا كلما اشتد ضيقهما ، فكان اغتباطه هذا — في حد ذاته — مثيرا لهما ! .. كان « ادجار » يعذب خصميه الأعزلين بقسوة الأطفال ، وهي قسوة فيها شيء من وحشية الحيوان ! .. وظل البارون قادرا على كظم غضبه ، لأنه لم يكن قد يئس من الوصول الى حيلة جديدة مع الصبى ، ولأنه لم يكن يفكر الا في هدفه . أما الأم فقد أخذت تفقد سيطرتها على نفسها ، شيئا فشيئا . وكانت تنشد لغيظها تفريجا ، في السعى لكشف بعض عيوبه . فكانت تقول له بغلظة ، أثناء تناول الطعام : « لا تعبث بشوكتك ! .. أنت غير مؤدب ! .. أنت لا تستحق أن تجلس مع الكبار ! » .. ولكن « ادجار » لم يزد على أن يبتسم لهذه الملاحظات .. كان يبتسم وراسه مائل قليلا نحو الجانب الآخر ، فقد كان يعرف ان هذه الصيحات ان دلت على شيء ، فانما تدل على اليأس ! .. وازدهاه أن يرى الشريكين يكشفان أمامه عما كان في نفسيهما ، على هذا النحو ! .. أما هو ، فكانت نظراته هادئة كما لو كانت نظرات طبيب . ولو ان هذا حدث من قبل ، لكان من المحتمل أن يجنح الى الغلظة لاثارة غضبهما ، ولكن المرء يتعلم كثيرا ، وفي وقت وجيز ، عندما يكون كارها ، مبغضا .. وقد تعلم الآن أن يقنع بالصمت ، فصار دائما صامتا ، صامتا !

ولقد ظل مثابرا على صمته المرهق حتى بدأت أمه تصرخ من وطأة هذا الصمت عليها .. اذ لم يعد في طوقها احتمال هذه الحال ، فلما نهضت والبارون — بعد تناول الطعام — أراد « ادجار » أن يتبعهما في حركة طبيعية ، لا تنم عن تعمد ، وعندئذ انفجرت الأم بغتة .. نسيت كل تحفظ وقذفت بكل ما كان في صدرها ! .. كان وجود الغلام على هذا النحو الوقح يعذبها عذابا أليما ، فانتفضت — في عنفوان غيظها — انتفاضة الجواد من لذع الذباب ، وقالت : « ما بالك تلاحقنى دائما كطفل لم يجاوز الثالثة من عمره ؟ .. لست أحب أن تكون باستمرار

فى أعقابى ، فليس للأطفال مكان فى مجالس الكبار . يجب أن تعرف هذا .. اشغل نفسك لحظة بما يسليك .. اقرأ شيئا ما ، أو أفعل ماتريد ، ولكن دعنى قليلا ، فانك تثير أعصابى اذ تحوم حولى بهذا الوجه المكتئب ، المقيت ! »

وهكذا انتزع منها الاعتراف آخر الأمر .. وظل « ادجار » يبتسم ، بينما بدت الأم والبارون مضطربين . ثم استدارت تبغى الابتعاد ، وقد أغضبها من نفسها أن كشفت عن استيائها! .. أما « ادجار » ، فلم يزد عن أن قال : « ان أبى لا يحب أن أتنزه بمفردى .. فلقد أخذ منى وعدا بأن أكون حذرا ، وأن أبقى دائما الى جانبك » !

وضغط على كلمة « أبى » ، اذ كان قد لاحظ أن لها وقعا شديدا عليهما ، مما أوحى اليه بأن لأبيه شأنا ما فى هذا السر ، وان له — ولابد — على الشريكين سلطانا خفيا ، ما دام مجرد ذكر اسمه يوقعهما فى الضيق والاضطراب ! .. ولم يجيبا بشىء فى هذه المرة أيضا ، بل استسلما فى صمت ! .. وسارت الأم مع البارون جنبا لجنب ، وخلفهما « ادجار » . **بيد أنه لم يكن يحس مهانة الخدم ، وانما كان على العكس قويا ، صارما ، يقظا كالحارس .. كان — وهو الذى يجهل كل شىء — أقوى من خصميه اللذين عقدا خنصريهما على السر الدفين !**



الفصل السابع

• **كان** الوقت يمر سريعا ، فلم يبق على رحيل البارون سوى أيام ، قرر أن يفيد منها ما استطاع . **وكان والسيدة يدركان ان لا جدوى من مقاومة عناد الصبى الغاضب ، فعمدا الى وسيلة من أتعس الوسائل .. وسيلة مخزية .. تلك هى أن يلوذا بالهرب ، ليفلتا ساعة أو اثنتين من جبروت الصبى** . ومن ثم قالت الأم لادجار ، وهما يقفان فى بهو الفندق بعد يومين : « اذهب الى مكتب البريد ، فسجل هذين الخطابين » .. وكان البارون لدى الباب - يتحدث الى أحد الجوذيين - فتناول « ادجار » الخطابين ، وهو فى ريب من الأمر .. كان يعرف ان خدم الفندق يؤدون - عادة - هذه المهمة ، فهل تراهما عادا الى التآمر ضده ؟ .. وتردد لحظة ، ثم سأل أمه : « وأين تنتظرينني ؟ »

- هنا ..

- أواثقة أنت ؟

- أجل ..

- اذن ، فأنت لن تخرجى .. ستنتظرين هنا فى البهو حتى أعود ؟

كان يشعر بتفوقه، ومن ثم خاطبها بلهجة الأمر ! فقد تغيرت أمور كثيرة منذ أمس الأول • وما لبث أن اتجه الى الباب وفى يده الخطابان ، فلما مر بالقرب من البارون ، خاطبه للمرة الاولى ـ منذ يومين ـ قائلا : « لن أغيب الا ريثما أحمل هذين الخطابين الى مكتب البريد ، ولسوف تنتظرنى أمى ، فأرجو أن لا تغادرا الفندق قبل عودتى »

وتنحى البارون مسرعا ، ليفسح له الطريق ، وقال : « أجل، أجل ، لا تخف ! » •• وهرع « ادجار » صوب مكتب البريد ، ولكنه اضطر هناك الى الانتظار ، اذ كان قد سبقه رجل راح يرهق الموظف بطائفة من الاسئلة • على أنه ما لبث أن أنجز مهمته ـ فى النهاية ـ فعاد الى الفندق مسرعا ، وهو يحمل الايصالين ••

ووصل فى عين اللحظة التى استوت فيها أمه والبارون داخل عربة تحركت بهما ، فاستشاط حنقا •• وود لو جمع بعض **الأحجار ليرجمهما بها ؟ •• لقد افلتا منه ، ولكن •• بأى ثمن ؟ •• بأكذوبة خسيسة ، دنيئة ؟ •• لقد كان يعرف ـ منذ أمس ـ أن أمه تكذب••ولكن نقضها وعدا صريحا بهذه الطريقة المزرية ، قضى على البقية الباقية ـ فى نفسه ـ من الثقة فى أمه ! •• وخيل اليه انه لا يكاد يفقه الحياة ، بعد أن رأى أن لا قيمة للوعود ـ التى ظن أنها حقيقية ، فاذا بها ليست أكثر من فقاقيع تنفجر فى الهواء لأقل نفخة !**

★ ★ ★

◆ **ولكن** ، أى سر عجيب هذا الذى يحدو بشخصين كبيرين الى أن يخدعاه ـ هو الصبى الصغير ! ـ وأن يفرا منه كما لو كانا مجرمين ؟! •• ان الناس ـ فى الكتب التى قرأها ـ يلجأون الى الغش ، والخداع ، والقتل ، للوصول الى المال أو الجاه أو الحكم •• أما هذان ، فما الذى دفعهما الى هذا العمل ؟ •• **ما الذى**

يبغيانه ؟ .. لماذا يتواريان عنه ؟ .. ما الذى يتستران عليه بالأكاذيب التى لا تنتهى ؟! .. وأخذ يرهق عقله ويضنيه ، فى غير ما رحمة ، وقد ساوره شعور غامض بأن الطفولة تقبع وراء هذا السر ، فاذا قدر له أن ينفذ اليه ، انتقل الى النضوج وأصبح رجلا ! .. ولكن ، ما السبيل الى معرفة هذا السر ؟ .. لم يكن فى وسعه أن يفكر ـ للاهتداء اليه ـ بعقل صاف ، فان الغضب والحنق اللذين تملكاه ، بعد أن رأى أمه وصاحبه يفلتان منه ، أخذا يمضانه ويعكران صفو ذهنه !

وانطلق يعدو فى اتجاه الغابة ، حتى اذا بلغ الطريق المعتم، الذى لا يتعرض فيه لأنظار أحد ، ترك دمعه ينساب غـزيرا ، كاويا ! .. وراح يهتف فى غيظ ملتهب : « **كاذبان ! مخادعان ! خبيثان !** » .. كان مضطرا الى أن يقذف بهذه الشتائم حتى لا تجثم على صدره فتخنقه ! .. وكانت الهموم ، ونفاد الصبر ، والغضب ، والكراهية التى حفلت بها هذه الأيام « الكبيرة » ، والتى احتملها بجهد طفل يخال انه أصـبح من الكبار اليافعين .. كانت هذه المشاعر تتفجر فى صدره ، فتنساب فى دموع ! **.. ولكن هذه النوبة كانت آخر نوبات البكاء فى طفولته .. النوبة التى تغلق باب الطفولة ! .. ومن ثم فهى أعتى النوبات وأقساها ! .. كان يستسلم للبكاء فى استعذاب ـ كالمرأة ـ للمرة الأخيرة ، فأخذ يبكى ، فى هذه اللحظة من لحظات الهياج، راثيا لكل ما كان فى نفسه من ثقة ، وحب ، وعقيدة ، واحترام .. كان يرثى طفولته بأسرها !**

وعندما عاد الى الفندق فى النهاية ، كان انسانا آخر . كان هادئا ، رزينا . وسـعى أولا الى غرفته ، حيث غسل وجهه وعينيه فى عناية ، كى لا يتيح للمذنبين أن يستمتعا برؤية آثار دموعه ! .. ثم قبع متأهبا للانتقام ، فراح ينتظرهما وهو رابط الجاش ، مسيطرا على أعصابه !

وكان البهو مزدحما بالناس حين عاد الهاربان .. كان بعض

الجلوس يلعبــون الشطرنج ، وبعضهم يقــرأون الصحف ٠٠ والسيدات منهمكات في الثرثرة ٠ أما الصبى ، فقد جلس بينهم لا يحير حراكا ، وقد شحب وجهه ، وزاغت نظراته ٠ واذ نفذ البارون وأمه خلال الباب ، بدا عليهما الضيق حين رأياه عـلى غير توقع منهما ! ٠٠ وما أن هما بأن ينطقا ببعض المعاذير التى ابتكراها قبل وصولهما ، حتى استوى واقفا أمامهما فى هدوء، وقال فى تحد : « سيدى ، أحب أن أقول لك شيئا » ٠٠

وتململ البارون محرجا ٠٠ كان كمجرم فوجىء متلبســا بجريمته ، فقال : «حسنا ٠٠ نعم ٠٠ بعد قليل ٠٠ بعد لحظة !» ٠٠ ولكن « ادجار » صاح بحدة ، وبصوت تعمد أن يرفعه حتى يسمعه من كانوا فى البهو : « بل أريد أن أكلمك الآن ٠٠ لقد كان مسلكك مشـينا ، اذ كذبت على ٠٠ كنت تعـرف أن أمى تنتظرنى ٠٠ »

وقطعت عليه الأم حديثه ، اذ رأت الأنظار تتجه اليهــا ، فأسرعت نحوه قائلة : « ادجار ! » ٠٠ ولكن « ادجار » فطن الى أنها تريد أن تغطى صوته بصوتها ، فازداد حدة ، وصاح بأعلى صوته موجها كلامه للبارون : « **اننى أكرر لك ـ على مسمع من الملأ ـ انك كنت دنيئا حين كذبت على ، وان هذا ذنب شائن !** »

وشحب وجه البارون ٠٠ وعلقت به أنظار القوم ، وأخـذ بعضهم يتغامزون ٠ وعندئذ لكزت الأم بقبضتها الطفل الـذى كان يرتجف انفعالا ، وصاحت فيه بصوت مختنق : « هيا الى غرفتك فورا ، والا صفعتك أمام الجميع ! »

بيد ان « ادجار » سرعان ما استرد هدوءه ، وشعر بالاستياء من تهوره على هذا النحو ٠٠ فقد كان ـ فى الواقع ـ يبغى أن يثير البارون ، بينما يظل هو متمالكا نفسه ٠٠ ولكن غضـبه غلب ارادته !

واتجه الى السلم بخطى متثاقلة ، بينما قالت الأم للبارون متلعثمة : «اغفر له وقاحته يا سيدى ، فأنت تعرف أنه عصبى»

.. وأزعجتها النظرات التى كان القوم يوجهونها اليها فى شىء من السخرية .. فلم يكن أبغض الى نفسها من أن تتعرض للفضيحة ، ومن ثم أدركت أن لابد لها من أن تتشبث برزانتها وثبات جنانها . ولم تشأ أن تتوارى عن الأنظار فورا ، ومن ثم سارت - أولا - الى حارس الباب ، وسألته عما اذا كانت ثمة خطابات باسمها ، وتحدثت اليه فى بعض أمور تافهة ، ثم صعدت الى غرفتها ، وكأن شيئا لم يقع .. ولكن القوم شيعوها - اذ أولتهم ظهرها - بموجة من الهمس والضحك المكتوم !

* * *

• **وأخذت** تصعد السلم متباطئة ، فما كان يزعجها قدر المواقف الخطيرة .. **بل انها كانت - فى الواقع - تخشى أن تناقش الصبى الحساب ، فما كان فى وسعها أن تنكر ذنبها ، كما أنها كانت تهاب نظرات ابنها .. النظرات الجديدة ، الغريبة ، غير المألوفة ، التى أودت بطمأنينتها ، وشلت فكرها ! .. وأوعز اليها الخوف أن تتذرع باللين ، اذ حدست أن الصبى الثائر لن يلبث أن يغدو أقوى منها ، اذا هى عمدت الى العنف !**

وفتحت الباب فى لطف بالغ ، فاذا الغلام يجلس فى الغرفة ساكنا ، وقد سيطر على أعصابه . ولم يكن يبدو فى عينيه أى خوف ، ولا أى شعور بالذنب ، وانما كان يبدو معتدا بنفسه تمام الاعتداد !

وقالت أمه ، متذرعة ما استطاعت بلهجة الأمومة : « ما الذى دهاك يا ادجار ؟ .. لقد خجلت لك ! .. كيف تسنى أن تبلغ بك القحة حدا يجعلك تتخذ مثل هذا المسلك الشائن نحو شخص من الكبار ؟ .. لابد أن تذهب فورا فتعتذر للبارون ! »

.. وأرسل « ادجار » بصره خلال النافذة ، قائلا : « لا ! » ، وكأنما كان يوجه قوله الى الأشجار المواجهة له فى الخارج ! .. وأخذ العجب يساور الأم مما بدا عليه من ثقة فى نفسه ،

فقالت : « ماذا بك يا ادجار ! •• أراك قد تغيرت تماما ، حتى أنني لا أكاد أعرفك ! •• لقد عهدتك دائما ابنا عاقلا ، رقيقا ، يسهل التفاهم معه •• فماذا بك تنقلب فجأة في سلوكك كمن أصابه مس من الشيطان ! •• ما الذي يوغر صدرك ضد البارون ؟ •• لقد كنت تحبه كثيرا ، وكان من ناحيته لطيفا معك ، طيلة الوقت ! »

– أجل •• كان لطيفا معي ، لأنه كان يسعى الى التعرف بك !

ووخزتها هذه العبارة ، فقالت : « ما هذا الغباء ؟ •• كيف أمكن أن تتصور شيئا كهذا ؟ •• ما الذي يجول بخاطرك ؟ » •• فهتف الصبي في غضب : « انه كاذب ، مخادع •• وليست أفعاله سوى حيل وخبث •• لقد شاء أن يتعرف بك ، فأخذ يتودد الى ، ووعدني بأن يهديني كلبا •• ولست أدري بماذا وعدك أنت الأخرى ، ولا لماذا يتودد اليك ؟! •• على أنه ولابد يبغي منك – أنت الأخرى – شيئا ، والا ما اتخذ هذا المظهر المهذب ، اللطيف •• انه رجل سيء ، ويكذب كثيرا •• الا راقبيه ، وسوف ترين كيف يتخذ مظهرا غير مظهره الحقيقي •• أواه ! •• لشد ما أبغضه •• هذا التعس ، الكذوب ، النذل !! »

– ويحك يا « ادجار » •• كيف تنطق بمثل هذه الألفاظ ؟

وشعرت بحيرة واضطراب ، فلم تدر بماذا تجيب بعد ذلك •• وانتبه في أعماقها احساس أخذ يوحي اليها بأن الصبي على حق •• بينما استطرد « ادجار » قائلا : « انه نذل ، ما في هذا من ريب •• وكان جديرا بك أن تتبيني هذا بنفسك •• والا ، فلماذا ترينه يخشاني ؟ •• لماذا يتهرب مني ؟ •• انه يفعل ذلك لأنه يعرف اني أحدس نواياه ، وأنني أكشف خبثه ! »

– كيف تتكلم بهذا الشكل ؟ •• كيف تنطق بهذه الالفاظ !

كان هذا كل ما استطاعت أن ترد به على قوله • فقد كان

عقلها عاجزا عن التفكير ، ولم تجد شفتاها سوى هذه الكلمات ترددانها · وفجأة ، غشيها جزع مروع ، اذ أعياها في الواقع أن تعرف أيهما أولى بأن تخشاه وترتاب فيه : البارون ، أم الصبي ؟!·· ورأى « ادجار » ان انذاره قد أثر في أمه ، فداعبه الأمل في أن تنحاز الى صفه ، فتحالفه في عداوته للبارون · ومن ثم اقترب منها متدللا ، وأمسك بذراعها ، وبدا صوته ناعما بتأثير عواطفه الجياشة : « **انك ولابد قد لاحظت بنفسك يا « ماما » سوء نواياه ·· لقد غير حالك تماما ·· أنت التى تغيرت ، لا أنا ·· لقد أوغر صدرك على ، لا لشىء الا ليخلو بك! ·· انه ولابد يريد أن يغرر بك ، ولست أعلم بماذا وعدك ، ولكن الذى أعرفه أنه لن يفي بوعده · ألا صدقيني ·· ان من يخدع انسانا واحدا خليق بأن يخدع الناس جميعا ، فهو رجل شرير لا ينبغى الاطمئنان اليه !** »

وخيل لأم « ادجار » ان هذا الصوت الرقيق ، المختنق بالعبرات ، كان ينبعث من فؤادها هى · فلقد راودها منذ الأمس احساس كان يوحى اليها بهذه الكلمات ذاتها ، فى الحاح مطرد ! ·· على انها خجلت من أن تعترف بأن ابنها كان على حق ، ففعلت ما تفعله الكثيرات من مثيلاتها ، اذا شئن التخلص من الحاح شعور ممض ·· لجأت الى الغلظة والجفاء ، فقالت : « ان الأطفال لا يدركون هذه الأمور ، فليس لك أن تقحم نفسك فيها ، بل يجب أن تصلح من مسلكك ·· وهذا كل شىء ! »

فاسترد وجه « ادجار » جموده ، وقال فى لهجة جافة : « ليكن ما تريدين ·· لقد نبهتك وكفى ! »

— اذن ، فلست تريد أن تعتذر للبارون ؟

— بلى ·· لا أريد !

* * *

• **وكانا يقفان وجها لوجه ، فأحست بأن سلطانها ازاء**

قاصر ، فقالت : « حسنا ، ستتناول الوجبات وحدك فى غرفتك ، ولن تجلس الى مائدتنا حتى تعتــذر ٠٠ سأعلمك كيف يكون السلوك اللائق ٠٠ اذهب فالزم غرفتك ولا تبرحها حتى آذن لك ٠٠ هل تفهم ؟ » ٠٠ فاكتفى بالابتسام ٠٠ كأنما غدت هذه الابتسامة الماكرة جزءا من شفتيه ٠٠ لكنه كان فى قرارة نفسه مستاء لمسلكه ٠٠ لكم كان مخبولا حين ترك عنان انفعالاته يفلت منه مع البارون ٠ ومن ثم أراد أن يتفادى الوقوع فى مثل هــذه الغلطة مع تلك الكاذبة ٠٠ أمه !

وغادرت الأم المكان مسرعة ، دون أن تلتفت اليه ٠٠ فقــد كانت تخشى نظراته الثاقبة ، الفاحصة ٠٠ لقد غدا هذا الصبى مبعث ضيق لها مذ أحست بأن عينيه قد تفتحتا ، وبأنه يلاحقها بكل ما لا تريد معرفته أو سماعه ! ٠٠ كان يرعبهــا أن ترى ضميرها ـ ذلك الصوت الداخلى ـ ينفصل عن ذاتها ، ويتخذ شكل هذا الولد ٠٠ ولدها هى ، الذى تراه سائرا الى جانبها ، ينبهها ويسخر منها ! ٠٠ كانت كل قيمة هذا الولد فى حياتها، حتى الآن ، تنحصر فى انه مجرد حلية تتزين بها ، أو لعبــة تتلهى بها ، أو شىء ما تخصه بحبها ٠٠ وقد يضايقها أحيانا ، ولكنه رغم هذا جزء من حياتها ، وهو يكمل لحن هذه الحياة !٠٠ ولكن هذا الشىء تحرك أخيرا ، وللمرة الأولى ، وأخذ يعترض طريق ارادتها ، ويحاول أن يثنيها٠٠ومن ثم أصبحت تستشعر نوعا من الكراهية ينمو فى نفسها كلما فكرت فى ابنها !

على أنها بينما كانت تهبط درجات السلم ، وهى متعبة بعض الشىء ، سمعت ذلك الصوت الصبيانى ـ الذى خالت انه ينبعث من صدرها ذاته ـ يتردد فى أذنيها : « انك لتحسنين صنعا لو أخذت حذرك منه ! »٠٠ولم تستطع أن تخنق هذا النذير الذى راح يتردد في أعماقها ! ٠٠ ولمحت مرآة أمام عينيها ، انعكس طيفها على صفحتها ، فأخذت تتأمله بنظرة متفحصة ، عميقة ،

تلمست طريقها الى أغـوار نفسـها ، الى أن رأت شـفتيها تنفرجان عن ابتسامة خفيفة ، وتسـتديران ، كما لو كانتا توشكان أن تقذفا بكلمة ساخرة ! •• وكان الصوت يدوى فى أعماقها دون انقطاع ، بيد أنها هـزت كتفيها ، كما لو كانت تطوح بهذه الوساوس بعيدا عنها ! •• ثم ألقت على المرآة نظرة أخيرة ، وجمعت أطراف ثوبها ، ونزلت بخطى ثابتة كاللاعب الذى يدق مائدة القمار بآخر قطعة ذهبية معه !

* * *

• **حمل** خادم الفندق الطعام لادجار فى غرفته ــ حيث كان حبيسا ــ ثم انصرف مغلقا الباب خلفه • وما لبث « ادجار » أن سمع صرير القفل ، فنهض ثائرا • لا شك أن أمه هى التى أمرت بحبسه على هذا النحو ، وكأنه حيوان مسعور ! •• وطافت برأسه أفواج مبهمة من مشاعر التساؤل والاستقصاء والاستنتاج : « ترى ما الذى يجرى فى الطابق الأسفل وأنا حبيس هنا ؟ •• أية مؤامرة تراهما يدبرانها ؟ •• وهل يتكشف الآن ، وفى غيابى ، ذلك السر الكبير •• السر الذى أحس به عندما أكون بين الكبار ، فى كل آن ، وفى كل مكان ! •• ذلك السر الذى يوصدون عليه أبوابهم بالليل ، والذى يخبئونه وراء أحاديث تافهة ، حين أقبل على مجالسهم فى النهار ! •• ذلك السر الذى ظل ــ منذ أيام ــ جد قريب منى ، حتى لأكاد ألمسه ، ولكنى مع ذلك أعجز عن ادراك كنهه ! •• أى جهد فاتنى أن أبذله فى سبيل كشفه ؟ •• كم أخذت من كتب ــ من مكتبة أبى ــ وقرأتها ، فوجدت فيها كل هذه الاشياء المشوقة ، غير أننى لم أفهمها ! •• **لابد أن ثمة خاتما ينبغى فضه أولا اذا شئت أن أنفذ الى هذا السر •• وقد يكون الخاتم**

فى نفسى ، وربما كان فى نفوس الآخرين ٠٠ لكم سألت الخادم، ورجوتها أن تفسر لى فقرات من تلك الكتب ، فسخرت منى !٠٠ ما أفظع أن يكون المرء طفلا ، متعطشا الى المعرفة ، ولكنه لا يملك أن يسأل الناس ! ٠٠ وما أبشع أن أكون ـ بهذا الوضع ـ أضحوكة للكبار ، ومخلوقا تافها لا نفع من ورائه ! ٠٠ على اننى لن ألبث أن أهتدى الى هذا السر ٠٠ ان قلبى يحدثنى بأنى ولابد مهتد اليه ٠٠ لقد أصبحت أقبض على طرف منه ، ولن يهدأ لى بال حتى أعرفه بأكمله ! »

وأصاخ السمع ،اذ خيل اليه أن ثمة قادما يقترب ٠ بيد أنه ما لبث أن تبين أن ريحا خفيفة هبت ، فداعبت أوراق الشجر ، وهزت الأفنان ، وكسرت بهذا صفحة ضوء القمر التى كانت مسدلة عليها ٠٠ فما لبث أن عاد الى الاسترسال فى تأملاته :

« لا يمكن أن يكون الأمر الذى يدبرانه خيرا ، والا ما انساقا فى الأكاذيب الدنيئة الى هذا الحد ، ليقصيانى عنهما ٠٠ لاشك أنهما الآن يسخران منى ٠٠ ان الخبيثين مغتبطان ـ ولابد ـ اذ تخلصا منى أخيرا ، ولكن الذى يضحك أخيرا ، يضحك كثيرا ! ٠٠ ما أغبانى اذ ارتضيت لنفسى هذا السجن ، فأتحت لهما فترة ينعمان فيها بالحرية ، بدلا من أن ألازمهما كظلهما ،وأراقب كل حركة من حركاتهما ! ٠٠ اننى أدرك أن الكبار قليلو التبصر والحيطة ، فهم يتوهمون اننا نظل أطفالا طوال حياتنا ، وأننا اذا آوينا الى مضاجعنا فى الليل ، لا نلبث أن نغط فى نوم عميق ٠٠ وينسون أن فى وسعنا أن نتظاهر بالنوم ، ونحن منتبهون لكل ما يحدث حولنا ٠٠ بل ينسون أن فى وسعنا أن نبدى بلاهة ، ونحن أشد ما نكون ذكاء ! ٠٠ لقد حدث عندما وضعت عمتى طفلا ـ منذ عهد غير بعيد ـ أن حرص الجميع على أن يبدوا أمامى دهشة ، وكأن الأمر مفاجأة لهم ، فى حين كنت أعرف أنهم ظلوا يرتقبونه زمنا طويلا ، اذ سمعت أبى وأمى يتحدثان

عنه فى احدى الليالى ـ قبل ذلك بأسابيع ـ وهما يحسبانني نائما ! ٠٠ وفى هذه المرة أيضا ، سأفاجىء هذين الشقيين ٠٠ آه ، لو استطعت أن أسترق السمع خلال الباب ، وأن أرقبهما خلسة بينما هما يظنان انى فى سجن حصين ! ٠٠ ألست أحسن صنعا اذا أنا دققت الجرس٠٠ستأتى ـ اذ ذاك ـ الخادم ، وتفتح الباب لتسألنى عما أريد ٠٠ كذلك سيفتح الباب لو أننى أثرت جلبة ، أو كسرت اناء ، وعندئذ ، أستطيع أن أنتهز الفرصة ، فأندفع الى الخارج ، وأذهب لأراقبهما ٠ ولكن ، لا ٠٠ لا أحب هذا ، فلا ينبغى أن يعرف أحد المعاملة المهينة التى ألاقيها منهما ٠٠ اننى راض بها ، فلسوف أكيل لهما غدا بالكيل نفسه ! »

* * *

♦ وارتجف « ادجار » اذ تناهت الى سمعه ضحكة نسوية منبعثة من الطابق الأسفل ، وساءل نفسه : أليست هذه ضحكة أمه ؟ ٠٠ حسنا ، لتضحك هازئة منه ، هو الغلام المسكين الذى يحبس وراء باب موصد ، حين يكون حضوره أمرا غير مرغوب فيه٠٠هو الانسان الذى يلقى فى أحد الأركان دون ما اكتراث ، وكأنه حزمة من الثياب القذرة !

وأطل خلال النافذة فى حذر ٠٠ لا ، لم تكن أمه صاحبة الضحكة ٠٠ لقد انبعثت من واحدة من بضع فتيات ماجنات لم يكن يعرفهن ، انصرفن الى مداعبة شاب ٠ وفطن اذ ذاك الى ان نافذته لم تكن على ارتفاع كبير ، بل ان المسافة بينها وبين الأرض كانت قصيرة ٠ ومن ثم خطر له على الفور أن يقفز من النافذة ، ويذهب لمراقبتهما وهما يحسبان أنهما وحيدان ، بمنأى عن بصره ! ٠٠ وتملكته غبطة ضافية ، وخيل اليه أنه يمسك بين يديه بالسر الخطير المثير ، سر الطفولة ! ٠٠ وصاح به هاتف داخلى كان يرتجف لهفة فى أعماقه : « هيا اسرع بالخروج ! » ٠٠ ولم يكن ثمة خطر يخشى ، فالطريق خال من المارة ٠ وفى طرفة عين ، قفز من فوق حافة النافذة ، فانبعث

لارتطام قدميه بأرض الشارع صوت خفيف لم يسمعه أحد

كانت المراقبة والترصد خلال اليومين الماضيين ، مبعث متعة فى حياته ، ولكنه بدأ يحس الآن بشيء من التوجس يمازج هذه المتعة ، وهو يطوف خلسة حول الفندق على أطراف قدميه ، متجنبا فى حذر أن يتعرض لأى ضوء • واسترق النظر – أولا – الى داخل قاعة الطعام ، ملصقا خده فى حرص بزجاج النافذة •• كان مكانهما المألوف خاليا ! •• وأخذ يتنقل من نافذة الى أخرى ، مرسلا بصره خلال كل منها ، دون أن يجرؤ على التسلل الى داخل الفندق ، خشية أن يلتقى بهما وجها لوجه فى احدى الردهات • ولما لم يلمحهما فى أى مكان ، بدأ اليأس يداخله ، ولكنه ما لبث أن لمح بغتة ظل شخصين لدى الباب ، فاضطرب وأسرع الى التراجع ، مختفيا فى الظلام • **كانت أمه خارجة فى صحبة البارون ، وقد أصبح رفيقها لا يفارقها ! •• اذن ، فقد وصل فى الوقت الملائم •• ترى فيم كانا يتكلمان ؟ •• ولم يستطع أن يتبين حديثهما ، اذ كانا يتكلمان بصوت منخفض ، بينما أخذت الريح تهز الشجر بعنف • على انه ما لبث أن سمع ضحكات من أمه •• ضحكات لم يكن له بها عهد •• ضحكات عصبية ، منفعلة ، حادة ، غير مألوفة ، وكأنما كان ثمة من يدغدغ ملمس الضحك لديها •• كان ضحكها يبدو وكأنه منبعث من شخص غريب عنه ، فينذر بالشر !** •• ولكنها كانت تضحك ، فليس ثمة شر اذن •• بل ليس هناك ما يوحى بأنهما يخفيان عنه أمرا على شيء من الأهمية أو الغرابة ••

وشعر « ادجار » اذ ذاك بشيء من خيبة الأمل !

* * *

◆ **ولكن** لماذا يخرجان من الفندق ؟! •• والى أين يذهبان الآن ، وحدهما ، فى جوف الليل ؟ •• كانت فى الجو نذر رياح

شديدة صاخبة ·· وأظلمت صفحة السماء بغتة ، بعد أن كانت ــ منذ لحظة ــ صافية ، مشرقة بالضوء ·· وكأنما طرحت يد خفية حجبا على وجه القمر ، فاذا الليل كثيف الظلمة ، حتى ليجد الانسان مشقة فى تبين الطريق · ولكن كوكب الليل لم يلبث أن تخلص من غلالته القاتمة هذه ، وغمر المكان بفيض من الضوء الفضى · وطال تعاقب الضوء والظلمة ، وكأن الكون غانية ماجنة ، تتقنع حينا وتسفر حينا آخر ! ·· واذ عاد الى السماء صفاؤها ، لمح « ادجار » وسط الطريق طيفى البارون وأمه سائرين ، **أو قل انه لمح طيفا واحدا يمثلهما ، لأنهما كانا يسيران متلاصقين، كما لو كانا نهبا لخوف داخلى يهز مشاعرهما هزا عنيفا !**·· ترى الى أين يذهب هذان الشريكان الآثمان ؟·· كان نبات الصفصاف يتنهد ، والغابة تتململ فى حركة قلقة ، مضطربة ، وكأن صائدا ضاريا يروح ويجىء ــ بين أعوانه ــ فى المكان ، طليقا من كل قيد ! ·· وقال « ادجار » فى نفسه : « سأتبعهما ، فانهما لن يستطيعا سماع وقع خطواتى وسط صخب الريح وحفيف نباتات الغابة »

وأخذ يرقبهما وهما يهبطان الطريق المنحدر الواسع ·· وسار فى أعقابهما خفية ، متنقلا من شجرة الى أخرى ، ومن ظل الى آخر · كان يتبعهما فى مثابرة وعناد ، حامدا للريح صنيعها ، اذ كانت لا تمكنهما من سماعه ، لاعنا اياها ــ فى الوقت نفسه ــ لأنها حرمته من سماع حديثهما ! ·· وداخله يقين بأنه لو استطاع ان يتبين وجهيهما ، لعرف السر !!

ومضيا فى سيرهما غير مباليين بشىء، وهما يحسان بالسعادة لخلوتهما هذه فى الليل الطويل النابض بالحركة ، مستسلمين لنشوتهما الفياضة ، دون أن يدور بخلدهما أن فى الظلمة من كان يقتفى كل خطوة من خطواتهما عن كثب ، وأن ثمة عينين مليئتين بالفضول والبغض ، لا تتحولان عنهما لحظة !

وما لبثا أن توقفا فجأة ، فتوقف « ادجار » كذلك على الفور، والتصق باحدى الاشجار ، وقد اعتراه سخط مشوب بالخوف .. فماذا يحدث لو أنهما نكصا على أعقابهما عائدين الى الفندق، ولم يستطع أن يبلغ غرفته قبل وصولهما ؟! .. لسوف يخسر كل شيء اذ ذاك .. سيعرفان أنه يرقبهما خفية ، وسيفقد كل أمل فى أن ينتزع منهما السر الذى يهفو اليه بكل قوته ! .. على أنهما لاحا مترددين .. وكان ـ لحسن حظه ـ بمنـأى عن ضوء القمر ، فلم يكن بوسعهما أن يتبيناه ، بينمـا كان هو يراهما بجلاء .

وأشار البارون بيده الى درب صغير مظلم يؤدى الى السهل ، حيث كان ضـوء القمر أقل تألقا ، اذ لم يكن يصـل اليه من الاشعة الفضية سوى خيوط تتخلل الغابة ، منسابة فى وهن نحو الطريق . وتساءل « ادجار » : « ترى لماذا يريدان أن يهبطا من هنا ؟ » .. وبدت أمه وكأنها رافضة . أما البارون فقد أخذ يتكلم . واستطاع « ادجار » أن يتبين من خلال حـركاته أنه يلح . وعرا الصبى خوف ووجل . **ما الذى يبغيه هذا الرجل من أمه ؟ .. لماذا يريد هذا التعس أن يستدرجها الى الظلام ؟.. وبغتة ، قفزت الى عقله ذكريات حية مما كان قد قرأه فى كتبه عن الاغتيالات وحوادث الخطف والجرائم الغامضة .. لابد أنه يريد قتلها ، وأنه كان يبعده لكي يستدرجها الى هـذا المكان المنعزل ! .. ألا يجدر به أن يستغيث، وأن يصيح : «القاتل !»**

وهم بأن يصيح فعلا ، ولكن شفتيه الجافتين لم تخرجا أى صوت . وتوترت أعصابه لفرط الانفعال .. ولم يعد يقـوى على البقاء واقفـا ، فبحث عن شيء يستند اليـه . وأجفل اذ تقصف أحد الأغصان تحت يده . واستدار الطيفان وجلين ، وأرسلا بصريهما فى ظلام الغابة ، يحاولان أن يستبينا ما كان هناك .. وازداد « ادجار » التصاقا بالشجرة ، وثبت يديه الى جانبيه ، وجمد فى مكانه وقد لفه الظلام بردائه . وساد الصمت



من جديد ، ومع ذلك لم يبد على الشريكين - رغم السكون - انهما قد استردا طمأنينتهما ..

وما لبثت الأم أن قالت : « لنعد ! » .. ووافق البارون ، اذ كان هو الآخر قلقا .. ومن ثم عادا أدراجهما فى خطى وئيدة ، وقد التصق كل منهما بالآخر . واستشعر « ادجار » لألمهما النفسى لذة ! .. وزحف على يديه وقدميه ، حتى أدمى كفيه ، متسللا خلال الشجر ، الى أن اجتاز الغابة . ثم أخذ يعدو بأقصى سرعته ، حتى تقطعت أنفاسه من الاعياء .. وما أن بلغ الفندق ، حتى صعد السلم فى قفزات قليلة . وكان مفتاح « سجنه » فى ثقب الباب لحسن الحظ ، فأداره فى القفل ، وفى لحظة واحدة كان داخل الغرفة ، فاستلقى على فراشه .. وبقى ساكنا لبضع دقائق ، اذ كان قلبه ينبض بشدة فى صدره ، وكأنه مقرعة تدق جوانب ناقوس رنان ! .. على أنه ما لبث أن استجمع قواه ، فنهض وأسند ذراعيه الى النافذة ، مرتقبا عودتهما

* * *

• انتظر طويلا .. لا شك أنهما كانا يسيران ببطء شديد ، ومضى يرقب الطريق فى حذر ، خلال النافذة المغمورة بالظلام

٠٠ وما لبثا أن لاحا له ، يتقدمان رويداً ، رويدا ، وقد لمعت ملابسهما فى ضوء القمر ٠ كانا يبدوان كطيفين يتحركان فى هذا الضوء المائل الى الخضرة ٠ وما لبث الصبى أن عاد يسائل نفسه مرة أخرى : **ألم يكن هذا الرجل قاتلا حقا ؟ ٠٠ ألم يكن تسلله وراءهما سببا فى الحيلولة دون وقوع حادث رهيب ؟٠٠ وما لبث أن تبين بوضوح وجهيهما وقد لاحا فى بياض الجير ٠ وكان يرتسم على وجه أمه شعور بالغبطة ، لا عهد لها به ٠ أما البازون فكان على العكس ، يبدو مستاء ٠٠ لا شك أنه كان مستاء لاخفاقه فيما دبره !**

وازدادا اقترابا ، بيد أن طيفيهما لم يفترقا الا عندما صارا على بعد خطوات من الفندق ٠٠ ترى هل سيرفعان أنظارهما الى الطابق الذى يقف فيه ؟٠٠ كلا ، لم يتطلع أحدهما نحوه ٠٠ وقال الصبى لنفسه : « لقد نسيانى ! » ٠٠ وطغى عليه حنق جائح ، خالطه احساس خفى بالانتصار ٠٠ وعاد يقول فى نفسه : « **أما أنا ، فلم أنسكما ٠٠ انكما تحسبان ـ ولا شك ـ أنى نائم ، أو أننى لست موجودا على الاطلاق ، ولكنكما لن تلبثا أن تعرفا أنكما مخطئان ٠٠ فلسوف أراقب كل خطوة من خطواتكما ، حتى أظفر من هذا الوغد بالسر ٠٠ السر الرهيب الذى لا يدعنى أنام ٠٠ سأفض حلفكما ٠٠ فلست غافلا ولا نائما !** »

واجتاز القادمان باب الفندق ، واذ دخلا ـ واحدا خلف الآخر ـ اختلط ظلاهما الطويلان المنبسطان على الأرض لحظة ، قبل أن يتلاشيا فى ضوء الباب ٠٠ ثم أفاض القمر ضياءه على فناء الفندق ، فبدا كأنه سهل من الجليد واسع الجنبات



الفصل الثامن

• **استدار** «ادجار» عن النافذة لاهثا ، يرتعد من الخوف !٠٠ انه لم يكن فى يوم من الأيام أقرب الى مثل هذا السر ، منه اليوم٠ لقد كان يحسب أن عالم الانفعالات والمغامرات المثيرة ٠٠ عالم الاغتيالات والمخادعات ، الذى ارتاده فى كتبه ، لا وجود له الا فى مملـكة الأقاصيص والأحلام ، بعيدا عن الواقع المحسوس ، الملموس ٠ أما الآن ، فقد بدا له بغتة أن ذلك العالم موجود فى قلب عالمنا هذا المخيف ، فاهتز له كيانه كله اهتزازا عنيفا ٠٠ من يكون هذا الرجل الغامض الذى دخل بغتة فى حياتهما الهادئة؟ أهو حقا قاتل ؟ أهو حقا يبحث عن الأماكن المنعـزلة ويريد استدراج أمه الى حيث يخيم الظلام ؟ لا بد أن أمرا مخيفا كان يوشك أن يقع ، فما العمل ؟ لا بد من أن يكتب الى أبيه فى صباح غد ، أو يرسل اليه برقية ٠ ولكن ، ألا يمكن أن يقع الحادث فى هذا المساء بالذات ؟ ان أمه لم تصعد بعد ، انها ما تزال مع ذلك الغريب ، مع ذلك الرجل اللعين !

وكانت تفصل بين باب الغرفة والباب المؤدى الى الردهة مسافة ضيقة ، لا تتجاوز حجم خزانة الثياب ٠٠ فاختفى الصبى

فى ذلك المكان المظلم ، خلف ستارة ، ليرقب عودتهما المتأخرة ! كان قد قرر ألا يتركهما بعد الآن وحدهما، ولو للحظة واحدة ! .. لقد انتصف الليل وخلت الردهة ، وخفت ضوؤها، فلم يعد يضيئها سوى مصباح واحد .. وبدت له الدقائق ساعات .. وأخيرا ، سمع وقع أقدام على درج السلم ، فأرهف سمعه .. لم تكن مشية شخص يريد الاسراع فى العودة الى غرفته ، وانما هى خطوات متثاقلة ، مترددة ، أشبه شىء بخطى السلحفاة..وبتلك الخطى التى نجتاز بها طريقا وعرا !

وكانت تسمع من حين لآخر همسات ، يتبعها توقف متكرر ! فكان «ادجار» يرتعد من الانفعال : هل هما القادمان آخر الامر ؟ .. أهو ما يزال معها ؟ ان الصوت الخافت بعيد جدا ، بيد أن الخطى التى ما زالت مترددة غدت أكثر وضـــوحا ! .. وفجأة سمع البارون يقول هامسا بصوته البغيض ، شيئا لم يفهمه ، أعقبه على الفور جواب أمه تقول : « لا ، لا ، ليس اليوم ! » .. وارتجف ادجار أكثر فأكثر . انهما يقتربان ، وسيسمع حتما كل شىء ! ان كل خطوة يخطوانها صوبه ـ بالغة ما بلغت من الصغر ـ تضاعف من نبضات قلبه ! لكم بدا له صوت الرجل الذى يبغضه قبيحا لا يطاق ، وهو يلحف متذللا : « خلى عنك القسوة . لقد كنت فائقة الجمال هذا المساء ! » ..فأجابت : «لا، لا يحق لى ! لا أستطيع .. اتركنى ! »

وتولى الصبى الرعب : ان أمه تتنهد بشدة ، ترى ماذا يريد البارون منها ؟! لماذا هى خائفة ؟ انهما يقتربان من الباب ، وهو خلفهما يرتعد فى مخبئه ، ولا يفصله عنهما أكثر من ذراع ، ولا يخفيه عن ناظريهما سوى الستار الرقيق . انه الآن يسمع صوتهما قريبا من أنفاسه : « تعالى ، ياماتيلد ، تعالى ! » .. ومرة أخرى سمع الغلام أمه تتنهد . بيد أنها تتنهد الآن تنهدا واهنا .. ان مقاومتها تضعف !

ترى ما الذى يحدث ؟ .. وواصل الاثنان السير فى الظلام ،

فمرت أمه أمام غرفتها ، لكنها لم تدخل . الى أين يستدرجها البارون ؟ لماذا لم تعد تتكلم ؟ هل أعطاها مخدرا ، أم هو يضغط على حنجرتها ؟ .. ان الغلام ليكاد يجن لهذه الافكار ! .. وفتح الباب ، بيد مرتعشة ، بضع سنتيمترات . **انه يراهما الآن فى الردهة التى يغمرها الظلام ، وقد احتوى البارون الام بين ذراعيه وأخذ يجذبها فى رفق ، وهى تبدو مستسلمة ! .. حتى وقفا أمام غرفة الرجل ، وحسب الغلام فى وجل انه يريد ادخالها بالقوة ، وأنه سيرتكب جرمه الآن ! .. ففتح الباب بحركة وحشية ، واندفع نحو البارون وأمه ! .. ورأت الام « شيئا » يخرج بغتة من الظلام منطلقا صوبها .. فصاحت ، وبدا كأنه أغمى عليها !** .. وسندها البارون بمشقة ، غير أنه أحس فى تلك اللحظة بقبضة صغيرة على وجهه ، تسحق — رغم وهنها — شفتيه ، وتلصقهما بأسنانه.. كما أحس شيئا يتشبث بجسمه كالقط ! .. واذ ذاك ترك الأم ، وقد تملكها الرعب فانطلقت مبتعدة قبل أن تعرف حتى من المهاجم ! .. بينما حاول البارون — دون أن يرى شيئا — أن يرد اللطمات التى تنهال عليه ! .. كان الصبى يعرف أنه أضعف من خصمه ، لكنه لم يوقف النزال . لقد حان الوقت أخيرا كى يثأر لحبه الطعين ، وينفث كل البغض الذى استجمعه فى قلبه . انه يضرب خصمه بقبضتيه الصغيرتين ضربات عمياء ، وقد اصطكت أسنانه فى هياج وجنون ! .. واذ عرفه البارون وقف فى مواجهته مفعم النفس — هو أيضا — بالبغض لهذا « الجاسوس » الذى عكر صفو الأيام الأخيرة من أجازته ، والذى حال بينه وبين الفوز بالصفقة التى شرع فى اقتناصها ! .. وكان الغلام يضرب بغلظة ، كيفما اتفق .. وزفر غيظا ، لكنه لم يترك المعركة ، ولا استغاث بأحد ! .. وظل دقيقة فى عراكه الصامت وسط الردهة المظلمة . وشيئا فشيئا ، استبان البارون أن هذه المعركة بينه وبين غلام لم يكتمل بعد ، هى معركة

« مضحكة » ، فهم بلطمه لطمة تبعده عنه ! ٠٠ بيد أن الغلام اذ أحس بأن عضلاته تخور ، وانه سيهزم بعد لحظة ، عض فى هياج وحشى ، اليد القوية التى أرادت أن تمسك برقبته ! ٠٠ فصاح البارون ـ دون قصد ـ صيحة مختنقة ، وجذب يده من فم الغلام ٠٠ واذ ذاك غنم ادجار الفرصة فهرع الى غرفته وأغلق الباب وراءه !

لم تطل معركة نصف الليل هذه أكثر من دقيقة ! ولم يسمع أحد ـ سواء من الجانب الايمن أو الجانب الايسر ـ شيئا ٠ حدث كل شيء فى سكون ، كما لو كان فى حلم ! ومسح البارون بمنديله يده الدامية ، وهو يجيل بصره فى الظلام قلقا : لم ير أحد ما حدث ، ولكن كان هناك فى السقف ضوء مضطرب بدا له كأنه يسخر منه !

* * *

◆ **حين** صحا « ادجار » فى صبيحة اليوم التالى ، أشعث الشعر ، نهبا لألم ممض غامض ، ساءل نفسه فى حيرة : « أهو حلم ؟ ٠٠ كابوس ثقيل مخيف ؟! » ٠ انه يحس بدوار شديد ، ويبدو مضطربا ٠ واذ نظر الى نفسه ، أذهله ان يلحظ أنه ما زال بملابسه ! فنهض مسرعا واتجه نحو المرآة ٠٠ بيد أنه تراجع من شدة الخوف حين رأى وجهه شاحبا ، متبدلا تماما ، وجبينه متورما وبه خطوط حمراء ! ٠٠ ثم استعاد هدوءه بعناء ، وتذكر فى مرارة ما حدث : **تذكر المعركة الليلية فى الردهة ، وعودته الخاطفة الى غرفته ، كما ذكر أيضا أنه فى حمى الفزع الذى انتابه كان قد ارتمى على فراشه دون أن يخلع ملابسه ، متأهبا للهرب ! ٠٠ ولا شك أنه بعد هذا استسلم لنوم مضطرب تجدد فيه مشهد الردهة ، ولكن بصورة مختلفة ، أشد رعبا ٠٠ اذ أن رائحة الدم كانت تصعد الى أنفه !**

أما فى الطابق الأسفل من الفندق فكانت ثمة خطى تدق أديم الارض ، وأصوات ترتفع فى الهواء ـ كما لو أن طيورا غير

مرئية تصعد صفحة السماء! - وقد أخذت أشعة الشمس تنساب الى غرفة الغلام . لا بد أن النهار قد تقدم . ونظر « ادجار » الى ساعته ، فتبين أنها تشير الى منتصف الليل . لقد فاته فى شدة انفعاله أن يملأها ! وان عجزه عن ضـــبط الوقت تماما لمما يضاعف الاضطراب الذى يستشعره من جراء جهله بما حدث يوم أمس بالضبط !.. ونهض فاغتسل وأصلح من شأن نفسه فى عجلة ، ثم هبط الى الطابق الاسفل وهو نهب لهزة نفسية ، ولشىء من الاحساس بالاثم !

كانت أمه فى قاعة الطعام ، جالسة بمفردها الى المائدة المألوفة. وتنفس ادجار الصعداء حين رأى أن غريمه غير موجود فى القاعة، وأنه لن يرى ذلك الوجه البغيض الذى لطمه أمس بقبضته ، بدافع من الغضب . ومع ذلك فانه وهو يقترب من المائدة لم يكن واثقا من نفسه ..

وحيا أمه تحية الصباح . **لكنها لم تجبه بشىء ، بل لم تنظر اليه ! انها تركز بصرها فى المنظر الخارجى الممتد أمامها ، وقد بدت شاحبة غاية الشحوب ، وعيناها مغلقتان قليلا ، وأسفل أنفها يهتز تلك الاهتزازة التى يعرفهـــا ادجار ، والتى تشى باضطراب أعصابها ! .. وعض الغلام شفتيه : ان هذا الصمت يزعجه ، فهو لا يعرف اذا كان قد أصاب البارون بالامس اصابة خطرة ، واذا كانت أمه على علم بالمعركة الليلية ؟! وكان هـــذا يؤلمه أشد الألم ، فبدا له وجه أمه - الذى ظل ثابتا - مقلقا الى حد أنه لم يحاول مجرد النظر اليها ، خشية أن تبرز عيناها بغتة وراء جفنيها المغلقين ، وتحدقا فيه !**

ولم ينطق بكلمة واحدة ، أو يجرؤ على أية حركة - حتى لقد حرص أشد الحرص على ألا يحدث أى صوت عند رفع قدحه أو اعادته الى مكانه من المائدة ! - وان راح يلقى من حين لآخر ، خفية ، ببعض النظرات على أصابع أمه التى تداعب الملعقة فى حركة عصبية تنم عن غضب خفى ؟!

وظل جالسا على هذه الصورة ربع ساعة ، فى انتظار شىء لا يجىء !٠٠لم تفه أمه بكلمة واحدة تخرجه من اضطرابه ! وعندما نهضت ، وهى ما تزال غير ملقية بالا لوجوده ، لم يكن يدرى ماذا ينبغى له أن يفعل : أيبقى جالسا وحده الى المائدة ، أو يصحبها ؟ على أنه نهض آخر الامر وتبعهـــا فى ضعة ، بينما تظاهرت هى بأنها لا تراه ! ٠٠ وأحس الصبى أنه مضحك فى سيره على هذا النحو فى أثر أمه ٠٠ فأخـــذ يقصر خطاه حتى تتضاعف المسافة التى تفصله عنها ٠٠ الى أن دخلت غرفتها غير عابئة به ، وأغلقت الباب فى وجهه !

ماذا حدث ؟ انها وهو لم يعودا يعرفان أحدهما الآخر ! لقد فارقته طمأنينة الأمس ٠ أليس مخطئا فى مهاجمة البارون على هذا النحو ؟ وهل هما يعدان له عقابا أو تحقيرا جديدا ؟ انه يلمح أن شيئا رهيبا يوشك أن يحدث ! كانت تبدو فيما بينه وبين أمه بوادر عاصفة تقترب ، وكانت الصاعقة تبدو محتومة ٠٠ لقد أنفق أربع ساعات متنقلا بين قاعات الفندق يحمل ثقل هذا الاحساس الذى ناءت به رقبته الغضة ، حتى اذا حان موعد الغداء جلس الى المائدة فى ضعة وذلة !

ومرة أخرى حيا أمه ! انه فى حاجة الى قطع هـــذا الصمت المكشر عن أنيابه ، الجاثم فوق صدره ، المخيم على حياته كسحابة قاتمة ! ٠٠ لكن أمه لم تجب هذه المرة أيضا ، ولم تنظر اليه كذلك ! وأحس ادجار فى وجل جديد بأنه يواجه غضبا مقدورا ، ومركزا ، لا عهد له به من أمه : ان الخلافات التى نشأت بينهما الى اليوم لم تكن سوى ثورات غضب ترجع أكثر ما ترجع الى حالات عصبية ، وكانت سرعان ما تزول بملاطفة أو ابتسامة ٠ أما هذه المرة فيبدو له جليا انه قد أثار على نفسه فى قلب أمه شعورا دفينا ، وهو الآن يرتعد أمام تلك القوة التى أيقظها من مرقدها !

٠٠ وهكذا تناول طعامه على مضض ٠ انه يغص بشىء صلب حتى ليكاد يختنق ! وأمه تبدو كما لو أنها لا تلحظ شيئا من كل

هذا . مرة واحدة أبدت ما ينم عن شعورها بوجوده ، حين نهضا فاستدارت كما لو كان ذلك بطريق المصادفة ، اتفاقا ، وقالت : « اصعد يا ادجار ، ان لى كلاما معك . »

لم تقل ذلك بلهجة التهديد ، بل قالته فى ثبات وهدوء ، الى حد أن ادجار استشعر رعشة تهز كيانه ، كما لو أن حلقة محكمة وضعت حول عنقه ! .. لقد أذلت كبرياؤه ، فتبع أمه الى غرفتها ككلب مصفوع !

ظلت أمه صامتة بضع دقائق ــ حسبها هو « ساعة » ، لفرط ماكان يعانيــــه من ألم ممض ! .. كان يسمع همس ساعته ، وضحك طفل فى الخارج ، ونبضات قلبه تدق سراعا داخـــل صدره . وكانت هى أيضا تحس بانفعال شديد ، فكانت كلما خاطبته تتجنب النظر اليه ، وتدير له ظهرها ! .. وابتدرته بقولها :

ــ لا أريد أن أتكلم عن مسلكك أمس . انها فضيحة يخجلنى أن أفكر فيها ، ولسوف تتحمل تبعتها ! أما الآن فأريد أن أقول لك شيئا واحدا : منذ اليوم ليس لك مكان بين الكبار ! لقد كتبت الآن الى أبيك ليجعل لك رائدا ، أو يكل شأنك الى قسم داخلى فى أحد المعاهد .. حتى تتعلم السلوك الحسن ! فلست أريد أن أتعذب بسببك ..

كان ادجار واقفا مطأطىء الرأس ، وقد أحس أن ذلك ليس سوى مقدمة وتمهيد للأمر الجوهرى الذى ينتظره فى قلق !

وأردفت الام : « والآن ستذهب على الفور للاعتـــذار الى البارون ! »

ارتجفت فرائص ادجار .. بيد أنها لم تسمح له بمقاطعتها ، بل استطردت : « لقد سافر البارون اليوم ، وستكتب له الخطاب الذى سأمليه عليك ! »

ارتعش ادجار مرة أخرى ، لكن أمه قالت فى صلابة : « لا معارضة ! اليك الورق والحبر ، اجلس .. »

نظر اليها ادجار وقد تصلبت عيناه خضوعا لقرار لا رجعة فيه ! ـ فانه لم يكن قد رأى أمه فى أى وقت مضى قوية حاسمة الى هذا الحد ـ ثم عراه الخوف فجلس وتناول القلم ، وأحنى رأسه على المائدة ، انحناءة كبيرة ، بينما أخذت أمه تملى عليه : « التاريخ فى أعلى ٠٠ هل تكتب ؟ ٠٠ اترك سطرا ٠٠ حسن : « سيدى » ٠٠ أترك سطرا آخر ٠٠ « علمت بمزيد الاسف (هل أنت مستمر ؟) ٠٠ علمت بمزيد الاسف أنك غادرت « سيمرنج » ، وأنا لهذا مضطر لأن أضمن خطابى ما كان ينبغى أن أفعله بشخصى ، أى (اسرع قليلا ، لاضرورة لتحسين خطك) أى أنى أرجوك قبول أسفى على مسلكى بالامس ٠ فانى كما قالت لك أمى ناقه من مرض خطير ، ولا أزال سريع الانفعال ٠ ولهذا فانى كثيرا ما أرى الحبة قبة ، فأسلك فى بعض الامور مسلكا أندم عليه بعد قليل ! » ٠

كان ادجار منحنيا بظهره نحو المائدة ، فاعتدل بقوة ، واستدار ٠ لقد استيقظت كبرياؤه ٠٠ فهتف : «**لن أكتب هذا ، لأنه غير صحيح !** »

وصاحت أمه مهددة : « ادجار »

ـ ليس صحيحا ! لم أفعل شيئا أندم عليه ٠ لم أفعل سوءا أعتذر عنه ، وانما هرعت فقط لاغاثتك عندما طلبت الغوث ! »

شحبت شفتا الام ، وتمرد أسفل أنفها :

ـ تقول أنى استغثت ؟ أنت مجنون !

انتفض ادجار غضبا فنهض بغتة واقفا ، وأجابها : « **نعم لقد استغثت فى الردهة ، مساء أمس ، عندما وضع يده عليك وصحت بصوت عال : « اتركنى ، اتركنى » ، حتى لقد سمعت صياحك وأنا فى غرفتى !** »

ـ أنت تكذب ! ٠٠ فما كنت قط مع البارون فى الردهة ، وانما صحبنى فقط حتى أول السلم ٠٠

واذ سمع ادجار هذا الكذب الجرىء خيل اليه أن قلبه يوشك

أن يتوقف عن النبض ، ولم يدر ماذا يقول .. ثم نظر الى أمه بعين فاحصة ، وجابهها :

ـ ألم ... ألم تكونى ... ألم تكوني في الردهة ؟ وهو ... وهو .. ألم يأخذك بين ذراعيه ، ألم يضربك بقبضته بشدة ؟

ضحكت ضحكة فاترة جافة .. وأجابته : « كنت تحلم ! »

وكان هذا أكثر مما يحتمله الغلام أو يتوقعه ! كان يعرف أن الكبار يلجأون الى أساليب غير صحيحة للهرب من الحقيقة ، والى أكاذيب وخدع ملتوية .. أما انكار الأشياء الحقيقية تماما ، فى غير حياء أو خجل ، فذلك ما أثار ثائرته وأهاج نفسه !

ـ وهذه الكدمات الدامية .. أهى حلم أيضا ؟

ـ وكيف لأحد أن يعرف ممن أصابتك ، ومع من تشاجرت؟ .. على أننى لا أريد جدالا .. عليك الطاعة ، ولا شىء غيرها .. اجلس ، واكتب

وكانت شديدة الشحوب ، وتجد عناء فى الاحتفاظ بثباتها وهدوئها ..

وفجأة ، انبثق فى أعماق « ادجار » شىء .. قبس أخير انبعث من يقينه .. وبهت اذ رأى الحقيقة تمتهن على هذا النحو ، وكأنها لا تزيد فى قيمتها عن عود ثقاب محترق ! .. وسرت فى جسده قشعريرة .. وعندما تكلم أخيرا ، بدا كل ما قال داميا ، موجعا ، واخزا :

ـ آه ، كل هذا عرض لى فى الحلم ! .. حتى ما جرى فى الردهة ! .. هذه الكدمات الدامية .. ونزهتكما بالأمس وحيدين فى ضوء القمر ، ورغبته فى أن يحملك على سلوك الدرب المنحدر .. لعلنى حلمت بكل هذا أيضا ! .. أو ظننت أننى أرتضى البقاء سجينا فى غرفتى كطفل صغير ؟ .. لا ، لست أبله بالدرجة التى تخالينها ! .. اننى أعرف ما أفعل !

وأشاح عنها فى صلف . واذ رأت الأم ابنها يقاومها على هذا النحو خرجت عن هدوئها ، فصاحت وقد أربد وجهها

بالكراهية ، وجاش غضبها : « هيا ٠٠ اكتب فورا ، والا ٠٠ » ٠٠ فقال بصوت انطوى على التحدى والاستثارة : « والا ماذا ؟»
ـ والا ضربتك كما يضرب الطفل العنيد !

فاقترب منها خطوة ، وأطلق ضحكة ساخرة ٠ واذ ذاك صفعته على وجهه ، فصاح كشخص أشرف على الغرق ، وانبعث فى أذنيه طنين غريب ، وأخذ يطوح قبضتيه حوله على غير هدى ٠٠ وانبثق أمام عينيه خيط من نور أحمر ٠٠ واستمر يضرب بقبضتيه كيفما اتفق ، ثم أحس بأنه أصاب شيئا ناعما ٠٠ أحس بأن يديه أصابتا وجها ٠٠ وسمع صرخة !

وردته هذه الصرخة الى وعيه٠٠ الى الحقيقة ٠ فتنبه ـ بغتة ـ الى ما كان يفعل ٠٠ وشعر بما كان أبعد الأمور عن أن يصدقه ٠٠ لقد ضرب أمه ! ٠٠ واستبد به الألم ، والخجل ، والخوف ٠٠ واستأثرت به رغبة جامحة فى الهرب ، والاختفاء ٠٠ بل تمنى لو ابتلعته الأرض ! ٠٠ وان هى الا لحظة ، حتى قفز نحو الباب ، وهبط السلم مسرعا ، ثم غادر الفندق ٠ وانطلق يعدو فى الطريق ، كما لو كان فى أعقابه حشد حانق يطارده !

* * *

٠ ووقف أخيرا ، بعيدا ، وقد أدركه الاعياء ، فاستند الى جذع شجرة ٠٠ وكانت ساقاه ترتجفان ، وأنفاسه متهدجة ٠٠ فقد لاحقه هول فعلته ، وراح الذعر والاستنكار يخنقانه ، ويهزان كيانه فى عنف محموم ٠ ترى ما الذى ينبغى أن يفعل بعد هذا ؟ ٠٠ أين يلتمس المأوى ؟! ٠٠ وشعر بالوحدة تحيط به ، رغم أنه كان فى الغابة التى ألفها ، وعلى مسيرة ربع ساعة من الفندق ٠ وخيل اليه ان ما من شىء يشعر به ، أو يكترث له ٠٠ بل كان كل شىء يبدى له العداء ! ٠٠ لقد غدا وحيدا ، لا سند له ٠٠ حتى الأشجار التى أحاطته أمس بهمساتها الحنون، قست فجأة ، وبدت ظلالها متحفزة للانقضاض عليه ! ٠٠ ولكن ، كم من أمور ترتقبه ، أشد من هذا قسوة وجحودا !

وأحس بخور ، اذ وجد نفسه وحيدا وسط عالم واسع يجهله ٠٠ لا ، لن يقوى على احتمال كل هذا ٠٠ وعلى احتماله وحده !
٠٠ ولكن ، بمن يلوذ ؟ ٠٠ انه ليخشى أباه الغضوب ، السريع الانفعال ، الذى لن يتورع عن طرده فورا ٠٠ وهو لا يبغى العودة الى أمه ! ٠٠ وشعر برغبة فى المضى فى ركوب الأخطار وخوض المجهول ، لا سيما وقد بدا له انه لن يقوى على رؤية وجه أمه ، دون أن يذكر انه صفعها !

وتذكر اذ ذاك جدته ٠٠ تلك الجدة العجوز ، الطيبة القلب ، الرقيقة الجانب ، التى دللته منذ طفولته ، والتى كانت تدافع عنه دائما ، كلما تعرض – فى البيت – لعقاب أو ظلم ! ٠٠ اذن ، ليختبىء عندها فى (بادن) – بالقرب من (فيينا) – ريثما يكتب الى أبويه معتذرا ٠٠

وأشعره ربع الساعة الذى قضاه فى أول عزلة له ، بالهوان والذلة ، الى درجة جعلته – وقد خال نفسه وحيدا فى هذا العالم ، أعزل من التجربة والمعرفة – يلعن اعتزازه بذاته ٠٠ هذا الاعتزاز الذى أيقظه فى نفسه شخص غريب لم يلبث أن غرر به ٠٠

ولم يعد يبغى سوى أن يظل الطفل الذى كانه من قبل ٠٠ الطفل المطيع ، الصبور ، المجرد من هذا الصلف الذى أصبح يراه سخيفا ، مزريا ! ٠٠ ولكن ، كيف يذهب الى (بادن) ؟٠٠ كيف يقطع هذه الأميال التى تفصله عنها ؟ ٠٠ وجذب محفظة نقوده الجلدية – التى لا تفارقه – من جيبه ، ثم حمد الله حين وجد بها قطعة النقود الذهبية الجديدة ذات العشرين « كورونا » – التى منحها يوم عيد ميلاده – محتفظة بلمعانها وبريقها ٠٠ كان قد أمسك حتى الآن عن ان ينفقها ٠٠ وكان فى كل يوم ، يتثبت من وجودها داخل المحفظة ٠ واغتبط لرؤيتها ، أليس غنيا بفضلها ؟ ٠٠ وفى رفق ينم عن عرفان بالجميل ، جعل يفركها بمنديله حتى غدت فى تألق الشمس الصغيرة !

ولكنه لم يلبث أن جزع ، اذ خامرته فكرة جديدة ٠٠ هل تكفى هذه النقود ؟ ٠٠ انه كثيرا ما سافر بالقطارات ، ولكن لم يخطر بباله من قبل ان هذا السفر يقتضى ثمنا ، ولا سأل مرة عن مقدار هذا الثمن ٠ أهو «كورون» واحد ، أم مائة «كورون»؟ ٠٠ وتبين ـ لأول مرة ـ أن فى الحياة أشياء لم يفكر فيها من قبل ٠٠ وأن للاشياء الكثيرة التى عاش بينها ، والتى اعتاد أن يتناولها بأصابعه وأن يلعب بها ، قيمة ذاتية ، ومغزى خاصا ! ٠٠ وفطن ـ وهو الذى كان منذ ساعة فقط يتصور أنه يعرف كل شىء ـ الى أنه مر بعديد من المشكلات والألغاز ، دون أن يلقى بالا الى واحدة منها ، وأن بصيرته الصغيرة تخونه ، ولما يخط بعد سوى خطوات قليلة فى معترك الحياة !

واشتد تردده ، وتعثرت مشيته ، عندما اقترب من المحطة ٠

كم من مرة فكر فى الهرب على هذا النحو ، وكم من مرة هم بأن يقذف بنفسه فى خضم الحياة ليصبح امبراطورا ، أو ملكا ، أو جنديا ، أو شاعرا ! ٠٠ ولكنه الآن ، وقف ينظر فى خوف ووجل بالغين ، الى مبنى المحطة الصغير ، الصارخ اللون ، القائم الى جانب القضبان الحديدية ٠٠ ولم يعد يفكر الا فى شىء واحد ، هو : هل تكفى العشرون « كورونا » لايصاله الى بيت جدته ؟

وتأمل القضبان الحديدية اللامعة ، وقد امتدت بعيدا وراء مرمى البصر ٠٠ وألفى المحطة خالية من الناس أو تكاد ، فاتجه وجلا الى نافذة التذاكر ، وسأل بصوت خافت ـ حتى لا يسمعه أحد ـ عن ثمن تذكرة الى (بادن) ٠ وأطل عليه من خلف النافذة المعتمة وجه علته الدهشة ، وهو يلقى نظرة باسمة ـ خلال عدستى نظارته ـ على هذا الغلام البادى الارتباك ، ثم سأله الموظف : « تذكرة كاملة ؟ » ٠٠ فأجاب « ادجار » فى غير صلف أو غرور ، وانما فى خوف من أن يكون الثمن مرتفعا جدا : « نعم ! »

ـ ستة كورونات ٠٠

ـ اذن ، اعطنى تذكرة من فضلك !

ومد يده - مغتبطا - الى الرجل بقطعة النقـــود اللامعة ، العزيزة عليه ، وتناول ما تبقى منها ، قطعا من النقد الصغير ٠٠ وأحس « ادجـار » بأنه غدا مرة أخرى غنيـا اذ باتت فى يده قطعة الورق المقوى القمحية اللون ، التى تكفل له الحرية ، وفى جيبه قطع النقـود ذات الرنين الصامت !٠٠ وعرف من لوحة المواعيد أن القطار يصل بعد عشرين دقيقة ، فانزوى فى أحد الأركان ٠٠ وأخذ ينتظر٠وكان على الرصيف بضعةأشخاص ، ينتظرون مثله ، ولا يحفلون بشىء ٠ بيد أن الصبى المضطرب خالهم ينظرون اليه ٠٠ وبدا له أنهم جميعـا فى دهشة لرؤية طفل يسافر بمفرده !٠٠ بل وخيل اليه أن مرآه يشى بالذنب الذى اقترفه !

وتنفس الصعداء عندما طرق سمعه - آخر الأمر - صـوت قادم من بعيد ، أخذ يزداد شدة كلما اقترب من المحطة ٠٠ كان صوت القطار الذى سيحمله الى العالم ! ولم ينتبه - الا بعد أن ركب القطار - الى أن تذكرته من تذاكر الدرجة الثـالثة ! ٠٠ فقد كانت أسفاره دائما - قبل اليوم - بالدرجـــة الأولى ٠٠ **وهنا أيضـــا ، تبين أمورا جـــديدة عليــه ٠٠ تبين أن بعض الأشخاص يمتازون - فى الدنيا - على البعض الآخر ، وان بين الناس فوارق لم يفطن اليها من قبل ! ٠٠**

وكان فى المقعد المواجه له عمال ايطاليون ، غلاظ الأصوات، أمسكوا فى أيديهم الخشنة فؤوسا ومجارف ، ولاح فى أعينهم الأسى والاكتئاب ! ٠٠ كان من الجلى أنهم قضوا يومهم فى عمل شاق ، مضن ، اذ أسـلم التعب المبرح بعضهم الى النـــوم ، فأسندوا ظهورهم الى خشب المقاعد الصلب ، وفغروا أفواههم٠ ولم يخطر ببال « ادجار » سوى أنهم كدوا ليكسبوا المـــال ، ولكنه لم يفكر فى مقـــدار ما كسبوا ، **وانما كان كل ما فطن اليه ، اذ ذاك ، ان المال شىء لا يكون فى متناول الانســان فى كل وقت ، وانما لابد للمرء من اكتسابه بأية طـــريقة ! ٠٠**

وأدرك انه كان يرى الجو المترف الذى عاش فيه أمرا طبيعيا ، فلم يفطن الى أن فى الحياة ثغرات ذات اليمين وذات الشمال !.. ثغـــرات فاغرة الأفواه ، لم يلق بالا اليهـــا فى أى وقت من الأوقات. وانتبه فجأة الى ان فى الدنيا مهنا ، وحرفا ، ومناصب متباينة ، وان على جانبى حياته أسرارا من اليسير تبينها ، ولكنه كان غافلا عنها !

* * *

● ما أكثر الأمور التى عرفها « ادجار » فى تلك الساعة التى خلا فيها الى نفسه ، على ذلك المقعد الضيق ، وسرح بصره خلال النافذة المفتوحة ، نحو الأفق ! .. لقد بدأ يستبين رويدا ، خلال القلق المبهم ، شيئا راح يتفتح ويبرز أمام بصـــيرته .. وما كان هـــذا الشىء : « الســـعادة » ، وانما كان شعورا من الاعجاب .. الاعجاب بصورة الحياة ، وقـــد نمت وتضاعفت خطوطها أمام عينيه ! .. وعلى الرغم من أنه شعر بأن فراره كان خـــوفا ، وجبنا ، الا انه أحس مع ذلك بأنه ـ ولأول مرة فى حياته ـ قد أقدم على فعل ، بدافع من ذاته هو ! .. كان يواجه ـ للمرة الأولى ـ هذا العالم الواقعى الذى طالما مر به من قبل دون ما اكتراث !

ووقر فى نفسه انه ربما غدا لغزا غامضا بالنسبة لأبيه وأمه، كما كان العالم من قبل لغزا غامضا بالنسبة له ! .. وأخـــذ ينظر خلال النافذة بعينين جديدتين .. بعينين انزاح عنهمـــا الستار الذى كان يحجب عنه الامور والاشياء قبل اليـــوم . وخيل اليه ان كل الاشياء أخذت تطلعه على كنهها ، وطبيعتها ، وحوافز النشاط الخفية التى تســـاورها ! .. وكانت البيوت تلوح لناظريه كما لو كانت تطير ، لفرط سرعة القطار .. كأنما كانت ثمة ريح عاتية تحملها على أجنحتها !.. ووجد فكره يتجه ـ دون ارادة منه ـ الى أولئك الذين يعمرون تلك البيوت ، فراح يسائل نفسه : أأثرياء هم أم فقراء ؟ أسعداء أم تعساء ؟ ..

أتراهم مثله يتوقون الى معرفة كل شيء ؟ ٠٠ وهل هناك أطفال لم يحفلوا حتى الآن بغير اللعب ، كما كانت حاله ؟ ٠٠ وخيل اليه ان عمال سكة الحديد الذين كان يشاهدهم خلال أسفاره – وهم يرفعون رايات الاشارة فى طريق القطار – لم يعودوا دمى ، أو لعبا لا حياة فيها ، كما كانوا يلوحون له من قبل ، فقد أدرك ان هذه وسيلتهم للكفاح من أجل العيش !

وازدادت سرعة القطار وهو يتجه نحو بطن الوادى ، مبتعدا عن الجبال التى ما لبثت أن بدأت تتوارى ، لينبسط السهل أمام بصر « ادجار » ٠٠ فالتفت مرة أخرى نحو الجبال المتباعدة، وقد غدت كضباب أزرق مهتز ، أو شيء أشبه بالظلال ٠٠

وخيل اليه فجأة ، انه خلف طفولته هناك ٠٠ بين تلك الجبال التى أخذت تتلاشى أمام بصره !

* * *

◆ **ما لبث** القطار أن وصل الى محطة (بادن) ٠ وما أن وجد « ادجار » نفسه وحيدا على الرصيف الذى غمرته الاضواء ، وتراءت عنده أنوار الاشارات الحمراء والخضراء ، حتى غشيته كآبة ، اذ فطن الى أن الليل قد أسدل أستاره ٠٠ كان – خلال النهار – يستشعر طمأنينة وأمنا ، لان الناس يحيطون به فى كل مكان ، كما كانت المناظر تسرى عنه ٠٠ أما الآن ، فكيف تكون حاله وقد أوى الناس الى دورهم ، حيث يجدون أسراتهم في انتظارهم ، وحيث الفراش الوثير ، والنوم الناعم ؟٠٠ وأحس بعزلة لا قبل له بها ، وبأنه هائم على وجهه – على غير هدى – تلاحقه فعلته !٠٠ وانتبه الى أن لابد له من أن يأوى فى أسرع وقت الى ملجأ يحميه ، وان لا يمكث دقيقة واحدة فى الخارج ٠٠ فى بيئة مجهولة لديه !

وانطلق فى الطريق الذى كان يألفه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى وجد نفسه فى النهاية أمام « الفيلا » التى كانت جدته تقطنها ٠ وكانت تقوم فى موقع بديع ، فى أحد الشوارع

الكبرى ، وقد صانتها عن الانظار أشجار حديقة غناء ، فكانت « الفيلا » بسقفها الاحمر تلوح خلال الاشجار كلهب وسط سحابة خضراء !٠٠ أما جدرانها فكانت بيضاء ٠٠ وكانت من طراز بديع ، قديم

وألقى « ادجار » نظرة خاطفة خلال سياج الحديقة ـ وكأنه غريب يتعرف على الدار ـ فلم يجد حركة فى الداخل ، كما كانت النوافذ مغلقة ٠ وحدس أن أهل الدار فى الجانب الخلفى منها ٠ وما أن وضع يده على مقبض الباب البارد ، حتى ساورته فكرة أزعجته : كان منذ ساعتين يرى فى التجائه الى جدته أمرا طبيعيا ، ولكنه فطن الآن الى أنه أبعد الامور عن أن يكون طبيعيا ٠٠ كيف يدخل ؟٠٠ وكيف يمثل بين يدى جدته ؟٠٠ وكيف يجيب على الاسئلة التى ستوجهها اليه ؟٠٠ كيف يحتمل النظرات الاولى التى ستوجه اليه حين يضطر الى الجهر بفراره ؟٠٠ بل كيف يفسر شناعة مسلكه الذى لم يعد يرى له مبررا ؟!

وفجأة ، فتح الباب ، فأجفل مذعورا ، وأسرع بالابتعاد خشية أن يفاجئه أحد ٠ ولكنه لم يدر الى أين يذهب ٠ ووقف برهة أمام متنزه البلدية ٠٠ كان الظلام يرين عليه ٠٠ وخيل اليه أنه خال من أى انسان ، فعن له أن يجلس فيه ليستريح ويستعرض حاله ، ومن ثم دلف الى المتنزه فى وجل ٠ وبدت له المصابيح الواهنة التى قامت بين الشجر عند مدخل المتنزه كأشباح التفت بغلالات خضراء ٠٠ وكان لابد من أن ينحدر فى طريق تفضى به الى قلب الحديقة ، حيث غرق كل شىء فى ظلمة ليل الربيع المبكر ، حتى ليخال الناظر انه ازاء عجينة سوداء تختمر !٠٠ وخفق قلبه اذ مر بأشخاص جلسوا تحت أضواء المصابيح الغازية الواهنة ، يتحدثون أو يطالعون ٠٠ اذن ، فلن يجد الوحدة التى ينشدها ؟٠٠ **وخطر له أنه ربما استطاع أن يخلو الى نفسه فى الدروب المعتمة ، ولكنه سمع فيها همسا**

يمتزج – بين حين وآخر – بزفيف الريح ، وحفيف الشجر ، ووقع أقدام بعيدة ، وضحكات مختنقة ، وأصـوات خافتة كالانغام ، تنظمها آهات وتنهدات خيل اليه انهـا تتصاعد من أفئدة الانسان ، والحيوان ، والطبيعة الهاجعة !

وأحس بهاجس محير ، قلق ، منذر ، فى هذه الحياة النابضة التى أشاعها مطلع الربيع ، والتى ملأت جنان الغلام المضطرب ألما موجعا !

* * *

◆ **وجلس** فوق أحد المقاعد ، منطويا على نفسه ، فى هـذا الظلام الذى لا عهد له به · وجعل يفـكر فيما سوف يقـوله لجدته ، بيد أن الافكار كانت تفلت منه قبل أن يمسك بها !·· كان – على الرغم منه – يلقى سمعه الى الهمسات الخافتة ، والى الحركات الغامضة التى كانت تنبعث فى جوف الليـل · لكم كانت هذه الظلمة مفزعة ، مخيفة !·· ومع هذا ، فكم فيها من جمال وسحر !·· ترى من أين تجىء كل هذه الاصوات ، وكل هذه التنهدات والهمسات والنداءات ؟!·· وأرهف السمع ، فتبين من هذه الاصوات زفيف الريح وهى تتخلل الشجر وتهز أوراقه ·· على أنه تبين أيضا – وبوضوح فى هذه المرة – أن هناك أناسا جاءوا أزواجا من المدينة المضيئة ، فبعثوا الحيـاة فى الظلمة بوجودهم المستتر بين طياتها !·· ما الذى جاء بهم الى هنا ؟!·· ما كان « ادجـار » ليعرف ، اذ انهم لم يكونوا يتكلمون بصوت مسموع ·· بل لم يكن يسـمع سوى وقع أقدامهم فوق الأديم الخشن ، وكان يرى بين الفينـة والفينـة أطيافهم تمر سراعا فى القطاعات المضيئة ، وقد تلاصـق كل اثنين ، على نحو ما كان يرى أمه وهى مع البارون !·· **اذن ، فهنا أيضا يكمن ذلك السر ·· السر الرهيب ، الخفى ، المثير !·· وما لبث أن سمع وقع خطوات تزداد منه دنوا ، وضـحكات مختنقة ·· فخشى أن يقع عليه نظر القادمين ، وتوارى موغـلا**

فى جوف الظلام ‥ ولكن القادمين صعدا الدرب المنحدر ، ولم يرياه فى الظلام الكثيف ‥ وما أن استعاد « ادجار » أنفاسه ، حتى ألفى القادمين يقفان قرب المقعد الذى يجلس فوقه ‥ وتلاصق وجهاهما ٠ ولم يستطع أن يتبين شيئا واضحا ، ولكنه سمع زفرة تنبعث من المرأة ، بينما تمتم الرجل بكلمات حارة محمومة ٠ وأحس « ادجار » بشعور غامض ، ملتهب ، يبث رعشة معربدة فى كيانه ٠ ٠ وظل الغريبان على وضعهما دقيقة ، ثم سمع من جديد وقع أقدامهما على الأديم الخشن ، فأنصت اليه حتى تلاشى فى جوف الليل ٠

وارتجف الغلام فى عنف ، وأحس بالدم يغلى فى عروقه ‥ ثم شعر فجأة بأنه وحيد فى جوف هذا الظلام الرهيب ‥ وتولاه حنين ملح الى صوت ودود ناعم ، والى أحضان حانية ، والى أن يجد نفسه فى غرفة تسطع فيها الاضواء ، بين أشخاص يحبهم !‥ وخيل اليه أن ظلمة الليل العميقة قد تجمعت وانسكبت فى نفسه ، وراحت تفرى قلبه !

ونهض بغتة ٠ ماذا يمكن أن يحدث له ؟ ٠ ٠ قد يؤنب ، ويضرب ؟‥ ولكنه لم يعد يخشى شيئا ، منذ عرف تلك الظلمات ، وأحس رهبة العزلة !‥ ومن ثم انطلق فى طريقه دون أن يدرى ما هو فاعل ، فما لبث أن بلغ بيت جدته على غير وعى منه ‥ ومرة أخرى لامست يده المقبض البارد ‥ وكان الضوء – فى هذه المرة – ينساب من النوافذ فوق الخضرة ، فتخيل منظر قاعة الجلوس ، وقد اجتمع فيها أصحاب الدار ٠ وبدأ يستشعر ارتياحا واطمئنانا ، اذ ألفى نفسه قريبا جدا من أناس يحبونه ، فهدأ روعه ٠ واذا كان قد تردد قليلا قبل أن يدق الجرس ، فما كان ذلك الا رغبة منه فى أن يزداد استمتاعا بشعور الالفة والقرب ممن يحبهم !

وفجأة ، انبعث الى جواره صوت حاد ، منفعل : « ادجار !‥ أأنت هنا !؟ »

كانت الخادم أول من رآه ، فأسرعت نحـوه تربت كتفه ٠٠ وفتح الباب بغتة ، فانطلق نحوه كلب ينبح ، وانسابت الاضواء من داخل الدار ، وسمع أصواتا تتجاذبها الغبطة والدهشة ٠٠ ثم استبان أصحاب هذه الاصوات اذ اقتربوا منه فى ابتهـاج ٠٠ وكانت جدته فى المقدمة ، تبسط ذراعيها نحوه ٠٠ وخيل اليه انه فى حلم حين رأى أمه خلفهـا ، وقد اغرورقت عينـاها بالدموع !٠٠ وارتجف فى غمرة هذه الجلبـة المحببة ، وسرى الى نفسه وجل وحيرة ، فلم يدر ماذا يفعل ، ولا ماذا يقول ٠٠ بل انه لم يدر ، أخوف هذا الذى كان يحس به ، أم سعادة !

* * *

• كانوا يرتقبونه منذ ساعات٠٠ فقد ارتاعت أمه لفراره رغم غضبها وحنقها، وأخذت تبحث عنه فى كل مكان ٠٠ وسرى القلق والانزعاج فى (سمرنج) ، وذهبت الهواجس بالقـوم كل مذهب ٠٠ وفجأة ، أقبـل شخص ذكر لهم أن الغلام شوهد عند نافذة التذاكر فى المحطة ، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر • وسرعان ما عرف أن « ادجار » ابتاع تذكرة الى (بادن) ٠٠ وكانت الأم قد أبرقت الى (بادن) والى (فيينا) ـ حيث كان والد الصبى ـ بنبأ الفـرار ، فقضى الأب ساعتين فى حركة دائبة ، يتنسم أخبار الهارب ٠٠

وما لبثت الأم أن بادرت بالرحيل الى (بادن) فى أثر الصبى ٠٠

وأحاطت به الأسرة ، فبدا كالسجين فى أيديهم ، ولكن ٠٠ فى غير ما عنف أو خشونة !٠٠ وقادوه الى قاعة الجلوس وقد سادهم شـعور بالظفر !٠٠ ومن العجيب أن الغلام لم يحس للتأنيب وخزا موجعـا ، فقد تبين أن الحب والغبطة كانا يطفران على أسارير أهله ٠٠ بل ان فترة التأنيب لم تطل ، فما لبثت جدته أن احتضنته وهى تجهش بالبكاء ٠٠ ولم يعد أحد يتحدث عن خطأه !٠٠ وحفت به رعاية الأهل ٠٠ وما لبثت الخادم أن خلعت عنه ثيـابه ، وألبسته غيرها ـ أدفأ منها ـ ثم سألته جدته ان كان يبغى شيئا ، كأن يكون جائعا مثلا ٠٠ وانهالت عليه بالاسئلة ، وهى تغمره بالحنان

واذ فطن القوم الى انه منهوك القوى ، كفوا فى النهـاية عن سؤاله ٠٠ واذ ذاك تولته غبطة ضافية ، اذ عاوده الشعور بأنه مازال طفلا ٠٠ الشعور الذى كان يخجل منه قبل ذلك ، فاذا به يستمرئه ، ويـنـدم على ما تولاه فى الأيام الاخيرة من كبرياء ، وصلف ، وجنوح الى الاستغناء عن كل هذا ، والى أن يستبدل به ما خاله فى الاستقلال من متعة !

وانبعث رنين جرس التليفون ، وما لبث « ادجار » أن سمع أمه تردد بعبارات متقطعة : « ادجار ٠٠ وجد ٠٠ وصل الى هنا ٠٠ آخر قطار » ٠٠ وأدهشه انها لم تبد نحوه جفاء ولا غلظة ، وانما راحت تغمره بنظرات هادئة ، هدوءا غريبا كل الغرابة !٠٠ وشعر بأنه يزداد ندما ٠٠ وود لو افلت من هذه الرعاية التى تحيطه بها جدته وخالته ، ليسعى الى أمه يسألها الصفح ، ويسر اليها ـ فى خضوع وانصياع ـ بأنه يحب أن يعود طفلا ، كما كان ، وان يطيع أوامرها !٠٠ ولكنه حين نهض فى هدوء ، سمع جدته تقول فى لهجة نمت عن الخوف : « الى أين ؟! »

وظل واقفا وقد عراه الخجل ، اذ رآهم يضطربون لكل حركة يتحركها ، كأنما كان يخيفهم جميعا ٠٠ فقد كانوا يخشون أن يهرب منهم مرة أخرى !٠٠ آه ، لو عرفوا أنه أكثر من أى منهم ندما على هذا الهرب !

وأعدت المائدة ، وقدم اليه عشاء خفيف ٠ وكانت جدته تجلس بالقرب منه ، لا تحول عنه نظرها ٠ وأحاطت به خالته والخادمة فى صمت ٠٠ وأحس بأنه غدا مطمئنا كل الاطمئنان وسط هذه العناية التى أغدقوها عليه ٠٠ لم يعد يشغله سوى أن أمه لم تكن بجانبه ٠ آه ، لو أنها عرفت كم هو نادم ، اذن لما فارقت جواره قط !

وسمع بغتة صوت عربة تقف أمام المنزل ٠٠ وبدا على الآخرين ذهول ازعج ادجار ٠٠ وأسرعت جدته تغادر الغرفة ، ثم سمع حديثا يجرى فى الظلام ٠٠ وأدرك أن أباه قد جاء ٠٠ ثم فطن الى انه ترك وحيدا فى القاعة ، فاذا هذه اللحظة القصيرة من الوحدة كافية لايقاع الاضطراب فى نفسه !٠٠ كان يعرف مدى صرامة أبيه ، فهو الشخص الوحيد الذى يخشاه خشية حقيقية !٠٠ وأرهف سمعه ٠٠ كان أبوه يبدو غاضبا ، اذ راح يتكلم بصوت مرتفع ، وفى انفعال شديد ٠ وأخذ « ادجار » يسمع ـ من حين لآخر ـ جدته وأمه تهدئان من حنق أبيه ، ولكن لهجة الأب ظلت غليظة ، غليظة كتلك الخطى التى أخذت تزداد اقترابا ، حتى بلغت الباب ، الذى ما لبث أن فتح فجأة ٠٠ وكان والد «ادجار» بدينا ٠٠ واذ رآه الصبى يدخل بخطى عصبية تنم عن غضب شديد ، أحس أنه بجانب أبيه غاية فى الضآلة !

وصاح الأب : « ماذا دهاك يابنى حتى تهرب على هذا النحو وتسبب لأمك كل هذا الانزعاج ؟ »

كان الأب منفعلا ، ويداه ترتعشان بشدة ٠٠ ودخلت خلفه أم « ادجار » فى رفق ، وقد شحب وجهها ٠ ولم يجب « ادجار » ٠٠ كان يدرك أنه مطالب بأن يبرر مسلكه ، ولكن كيف يمكنه أن يقص قصة غشه والتغرير به وضربه ؟!٠٠ ترى هل يفهم أبوه الأمر ؟!٠٠ وعاد الأب يقول : « هل فقدت

لسانك ؟٠٠ ما الذى حدث ؟٠٠ تكلم فى هدوء ٠٠ هل وقع شىء لا يروقك ؟٠٠ لابد من سبب لهربك بهذه الصورة ٠٠ هل مسك أحد بسوء ؟ »

وتردد « ادجار » ، وقد نكأت الذكرى جراح نفسه من جديد ٠ وهم بأن يتكلم ، غير أنه لمح - فى انفعال شديد - أمه وهى تشير اليه من خلف أبيه اشارة غريبة ٠٠ اشارة لم يفهمها فى أول الامر ، ثم ما عتم أن أدرك أنها تتوسل اليه بعينيها ، بينما رفعت أصبعها الى فمها تطلب منه أن يلتزم الصمت!

وبغتة أحس الغلام بحرارة تغمر كيانه ٠٠ أحس بسعادة طاغية عجيبة تملأ جوانحه ٠٠ أدرك أن أمه تستودعه سرها ، وأن مصير انسان - هو أمه - رهن بكلمة تنطلق من شفتيه الصغيرتين ٠٠ وداخله زهو اذ رأى أمه تركن اليه ٠٠ وهفا بكل كيانه الى التضحية ، فعول على أن يبالغ فى اظهار ذنبه ، ليبين لها انه غدا بالفعل رجلا ٠ ومن ثم استجمع شجاعته ليقول : « لا ، لا ٠٠ لم يكن هناك سبب ٠٠ بل كانت أمى غاية فى الرقة معى ، ولكنى لم أكن عاقلا ، فسلكت مسلكا شائنا ، وعندئذ ٠٠ وعندئذ ، هربت خوفا ! »

وأشاح أبوه عنه فى دهشة ٠٠ كان يتوقع اى شىء الا هذا الاعتراف ٠ ٠ وانفثأ غضبه ، فقال : « ان الندم امارة طيبة ، وما دمت نادما ، فليس لدى ما اقوله ٠٠ ولعلك تفكر مليا قبل أن تفعل شيئا - فى المستقبل - حتى لا تتورط ثانية فى حماقة كهذه ! »

وأنعم النظر فى ابنه ، ثم قال فى حنان : « لشد ماتبدو شاحبا ٠٠ ولكن ، يلوح انك كبرت أيضا ، فآمل ان لاتصدر منك بعد اليوم مثل هذه الامور الصبيانية ، لأنك لم تعد طفلا ٠٠ انك الآن فى سن الادراك ! »

وكان بصر الصبى - طيلة الوقت - عالقا بأمه ٠٠ وخيل اليه أن شيئا يبرق فى عينيها ٠٠ أتراه انعكاس الضوء ؟٠٠ لا ٠٠ كانت عيناها نديتين بالدموع ٠٠ وعلى شفتيها ، كانت ثمة ابتسامة خاصة ، وكأنها كانت تقول له: « شكرا ! »

واكتهل الليل ، فاشير على الطفل بأن يأوى الى فراشه !٠٠ على أنه لم يشعر - فى هذه المرة - بما كان يخالجه فى الايام السالفة من مرارة لهذا الطلب ، فقد كان يهفو الى أن يخلو الى نفسه ، ليفكر فى أشياء كثيرة، وانفعالات عديدة، حافلة ، متباينة !٠٠ كان كل ماعاناه من ألم فى الايام الاخيرة يتلاشى فى انبهاره بأول حدث هام يقع فى حياته ٠٠ وخيل اليه أنه يتذوق السعادة ، وهو يستعرض الأحداث الغامضة التى قد يخبئها له المستقبل !

كانت الأشجار تهتز بعنف ، فى جوف الليل ، خارج الدار ٠٠ ولكن «ادجار» لم يشعر بخوف أو وجل ٠٠ لقد اصبح يواجه الحياة بجأش رابط ، بعد ان عرف كم هى غنية ، حافلة !٠٠ ألم يرها أمامه على حقيقتها ، عارية من

كل أكاذيب الطفولة ، على كثرتها ؟!٠٠ انها فى تجردها تبدو له فى جمال فاتن ، مهيب !٠٠ ما كان ليتصـور لحظة ان الأيام قد تكن له كل هـذه التغييرات ، والآلام ، والمباهج ٠٠ ولكم أخذ يشعر بالسعادة وهو يتصور ان عديدا من مثل هذه الأيام تنتظره ، وان حياته بأسرها تتأهب لتكشف له عن أسرارها ! ٠٠ لقد ألم الآن بطرف عن جوانب هذه الحياة وتنوعها، فخيل اليه أنه أدرك طبيعة البشر، وعرف أنهم يحتاجون بعضهم الى بعض، حتى حين تفرق بينهم الضغائن!٠٠ ولقد تذوق عذوبة حب الناس له ــ ممثلين فى أهله ــ فشعر بأنه لايقوى على التفكير فى الكراهية ٠٠ لا يقوى على كراهية أى شيء ، ولا أى شخص ، ولو كان هذا الشخص غريمه اللدود : البارون !٠٠ بل انه شعر نحو البـارون بعرفان الجميل ، لأنه أول من فتح أمامه باب هذا العـالم الجديد ٠٠ عالم التجارب الأولى فى الحياة !

وراق له أن يفكر على هذا النحو فى الظلام ٠٠ الى أن غزت عقله صور غامضة ، تسللت من عالم الأحلام ٠ وفيما كان النوم يغشاه ، خيل اليه ان الباب يفتح، وأن انسانا يتقدم نحوه فى رفق ٠٠ ولم يستطع تبين القادم جليا ٠٠ كذلك لم يقو على فتح عينيه ، اذ أن النوم غلبه ٠ بيد أنه أحس وجها غضا ، دافئا ، ناعما ، ينحنى على وجهه ، ثم يلتصق به ٠٠ وعرف أنها أمه تعانقه وتداعب شعره ٠ وأحس بالقبلات ، وبالدموع ٠٠ واستجاب فى لطف لهذا الحنان الذى تقبله على أنه رمز للصلح وعرفان الجميل لما أسداه بكتمان اتهامه لها !

ولم يعرف الصبى الابعد زمن طويل ، بعد سنوات ، ان هذه الدموع الصامتة انما كانت وعدا من امرأة تتقدم بها السن ، بأنها لن تكون بعد الآن ملكا لغير ابنها ، وبأنها ستكف عن المغامرات ، وستتخلى عن كافة رغباتها الأنانية ! ٠٠ لم يعرف أنها جاءت تعترف له بالجميل ، لأنه انقذها من مغامرة عقيمة ، وانها شاءت أن تمنحه فى هذه القبلات تراثا لمستقبل حياته هو: الحب ٠٠ بمرارة مذاقه وحلاوته معا !٠٠ لم يدرك الصبى كل هذا ، ولكنه أحس نشوة هذا الحب ٠ هـذا الحب الذى يصله الآن بسر الكون الخطير !

وعندما جذبت الام يديها فى رفق، وأبعدت شفتيها عن شفتى الغلام، واختفى طيفها من الغرفة ، خلفت وراءها شيئا دافئا ٠٠ خلفت أنفاسا عـذبة فوق فم «ادجار» ٠ وفاض قلبه بالرغبة فى أن يحس كثيرا بالشفاه الناعمة تلصق به ، وأن يظل محوطا بمثل هذا الحنان ! ٠٠ وأسدل النوم ستارا كثيفا على احساسه بذلك السر الذى كان يتوق بكل كيانه الى معرفتـه ٠٠ سر الحب ٠٠ وللمرة الاخيرة ، مرت بخاطر الصبى صور الساعات التى انقضت جميعـا ٠٠ وللمرة الأخيرة أيضا ، انفتح أمامه كتاب صباه بصفحاته الحافلة بالاغراء ، ثم أسلم جفنيه للنوم ٠٠ وعندئذ بدأ حلم حياته العميق يفض أسراره !

قرأت فى هذه السلسلة من قبل :

من الأدب الانجليزى : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخاطئة
من الأدب الفرنسى : حياة امرأة (جزءان) ، مدام بوفارى (جزءان)
من الأدب الأمريكى : أنجالدون
من الأدب الأيطالى : الخطيئة الأولى ، فتاة من الأقاليم
من الأدب اليونانى : أوديب

واليوم تقرأ فى هذا العدد ..

من الأدب النمسوى : الأرملة العاشقة ، الأم العاشقة .

وفى الأعداد القادمة

تقرأ أعظم شوامخ الأدب الروسى ، والألمانى ، و.. و.. الخ

احرص على اقتناء هذه السلسلة كاملة ، تؤسس لبيتك
وأولادك أنفع وأمتع مكتبة للثقافة العالمية
باللغة العربية

مطبوعات
كتابى
يصدرها : حلمى مراد



شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩